عن مطرٍ لنا..

رواية

هدى فاضل

ماستر

عن مطرلنا

رواية..

هدى فاضل

الجمع والإخراج
التجهيزات الفنية بدار ماستر للنشر

رقم الإيداع/٢٠١٩/٥٢٤٣م

ISBN: 978-977-85459-5-1

13,5×19.5 CM

جميع حقوق الطبع محفوظة للناشر

ماســـتر ©

٢٠١٩م

Email: master.publisher@hotmail.com
Facebook: facebook.com/Master.PH
Smashwords: smashwords.com/master.ph
Tel & Whatsapp/ 0128 730 3637

الإهـــــداء

إلى كل من يقف أمام الحروب
ويسأل :لماذا؟

الثلاثاء ٢٤ نيسان ٢٠١٨ /السعودية /

بقيت صامتاً، ومحدقاً إلى الورقة البيضاء التي كنتُ كتبت على جانبها العلوي – منذ عدة أيام _ رقم واحد؛ كان عليّ أن أقول شيئاً بعد رحيلها بتلك الطريقة، لكنني وأثناء التحديق في ذلك البياض، اكتشفت أني في منتصف المسافة، أولنقل في مكانٍ ما قد أجهله من المسافة بيني، وبين العدم؛ وأنّ إعصاراً من الكلمات والجمل كان قد اهتاج في داخلي، ثم هدأ وخبا.

إذ إنَّ التغلب على الحزن ليس بحاجةٍ إلى الكثير من الكلمات، واسترجاع الذكريات في الرثاء، لا علاقةً له بالوقوف على مساحاتٍ من الوقت لتمجيد المآثر، التخلص من الحزن: هو الوقوف أمام المسلّمات باستسلامٍ تام.

هو: تمجيدُ عباراتٍ تخرج من الفم مع أعتى التنهيدات؛ كأن تقول: «هذه حالُ الدنيا « ثم تلوذُ بالفرار لتترك حال الدنيا يبتعد إلى أقصى مكانٍ خلف مدى توقعاتكَ. تحاول حبسه، وحبس عينيك في قصرٍ متعمدٍ للبصر خلف المدى...

هذه حال الدنيا.....

حدث في ربيع عام ١٩٨٠ في القرية...

كنتُ في الرابعة من عمري، و المخاض إحدى الثقافات المحرمةِ على الأطفال...

كنتُ أسمع صراخها، وعويلها خلف الباب الخشبيّ الضخم، وأقتربُ لأضع أذنيَّ على أحد الشقوق، ولا أسمع سوى الصراخ، والتأوهات، يرتجف قلبي وجلاً إلاّ أنيّ أحاول أن أقحم عيني في أحد شقوق الباب، غير أني لا أرى سوى العتمة، ولا أشم سوى رائحة الخشب المشبع بالرطوبة التي زادت منها أمطار نيسان الغزيرة.

فجأةً تفتح أمي الباب، فيبدأ قلبي بالخفقان، ويضيق تنفسي

لاقتراف الفضول.

- ماذا تفعل هنا يا ولد؟!!

وهشتني كدجاجةٍ أقحمت نفسها في غرفة الجلوس.

لم يكن الحدث واضحاً بالنسبة لي على الإطلاق، فما كانت تلتقطه حواسي آنذاك لم يكن عقلي بعد قادراً على ترجمته.

تُرى لماذا اجتمعت تلك النسوة في غرفة أمّ يحيى اليوم؟

- اضربيها على مؤخرتها بقوة.

- لا فائدة.

- لا يبدو أن لونها مائلٌ للزرقة... تبدو طبيعية.

- أجل... لكن...

فوضى الأصوات النسائية بدأت تزداد، فما عدتُ أستطيع أن أميز بينها.

كنتُ قد اخترتُ البقاء وحدي ؛ هنا أمام هذا الباب، بعدما انفرد الصبية منتشرين في أراضي القرية، وبساتينها للعب ؛ كان قلبي يذوب شوقاً إلى العدو فوق التراب الطريّ... وبعد التعب من الركض، الأطفالُ ينتقلون إلى ممارسة استعراض القوة، أمّا بالنسبة لي، فقد كانت متعة بناء قريً طينية صغيرة؛ أكثر جدوى، فماذا يعني الانتصار؟

أفكر اليوم... حقاً ما هي ماهيته؟ وكم مرّةً اقتنصني انتصاري، ورماني في هوةٍ دونَ قرار، أبحث عن نشواي دون أن أجدها، وكأنني أشرب ليمتلئ بطني، وتبقى عروقي جافةً تماماً.....

هل يعني الانتصار أني في يومٍ ضربتُ « شاهر « بحجرٍ حادٍ إلى أن أدميته، وتركته « جرذٌ

أدمتهُ مخالب قطٍ متغطرسٍ «، وتركت الندم، والنقمة يتصارعان أمامي؟

- ما كان عليه أن يبدأ بإزعاجي.

- وما كان عليّ أن أضربه بكلِّ تلك القسوة

- لكنّك قويٌّ بما يكفي لتدافع عن نفسك
- كان يكفي أن أدافع.
- كان عليك أن تجعله يعرف أنك قوي.
- ربما بطريقةٍ أخرى...

فالألم والخزي اللذان سالا من عينيه قد آلما انتصاري، وألبساه ثوب الحيرة.

ربمّا هو الإشفاق من فعل بي ذلك... ربما لم أكن قاسياً بما يكفي لأشعر بالانتصار.

تُرى هل يحتاج الانتصار إلى القسوة ليحقق ذاته؟

- يبدو أنها ميتة.
- لا أعتقد ذلك.
- لا لا ميتة، انظري إليها لقد قرصتها بقوة إلا أنها لم تتنفس، لم تشهق....
- ضعيها جانباً
- مسكينة أمّ يحيى.

لكنني كنتُ واقفاً خلف الباب كمسمارٍ في كانون....

بدأت النساءُ بالخروج، وقد ارتدين الصمت، وكلاحة الوجوه ماعدا أمي، فقد بقيت في الداخل، فانتهزت الفرصة، ودخلتُ إليها لأقول : إني جائع.

يستطيع الإنسان أن يتعلم الكثير على مدى أربعين عاماً، لكن قد يكون ما تعلمهُ في هذه السنين من غير جدوى، وقد يكون عكس ذلك، وقد يتعلّم المرء متأخراً ما قد يغير حياته، أمّا أنا فكان من أهمّ ما تعلمته؛ هو أن الأحداثَ الخارقةَ... الأحداثَ التي قد تغيرُ حياتك، والتي قد تجعلك تعيشُ حياةً جديدة، إنمّا تحدثُ في داخلك...في داخلكَ وحسب.

- أمي انظري الطفلُ يرضع يده..
- آه... بنيَّ أنت أول من رأى الحياة في هذه الطفلة... مبارك يا أم

يحيى ليس هنالك من خطب... يبدو أنها كانت تحتاج لبعض الوقت فقط.

نظرت أم يحيى إليّ نظرة امتنانٍ لم أنسها إلى الآن، وربمّا منذ ذلك الوقت بدأت علاقةٌ من نوعٍ مختلف بيني وبين تلك المرأة، التي أغدقت عليّ فيما بعد كلّ ما تستطيع من عطايا...

- ناوليني إيّاها أريدُ إرضاعها...

نظرت المرأتان إلى وجه الطفلة... وقد فتحت عينها بنظرةٍ حياديةٍ تجاه العالم ؛ تلك النظرة التي تسِمُ الأطفال حديثي الولادة، لكن لا أعرف لماذا في ذلك اليوم شعرت بأنها تنظر بسخطٍ إلى كلِّ ما حولها.

- تشبُهك كثيراً يا أم يحيى

- أعتقد أنها تشبه والدها... انظري شعرها ذهبي.

- الأطفالُ يتغيرون كثيراً، على كلِّ حال... مبارك.

حاولت أمي أن ترتب منزل أم يحيى، وعندما سمعت صوت الرجال، تبعثر هدوؤها، ولملمت أغراضها، وتركت قبلة على جبين خالتي أم يحيى، وهمّت بالخروج، وقد أمسكت راحة يدي.

كان والدي يتحدّث إلى أبي يحيى بكلامٍ لم أفهم معناه:

- يا أخي إذا تخلى عنا الاتحاد السوفييتي سنبقى من غير ظهر.

أجابه أبو يحيى:

- أخالفك الرأي، نحن دولةٌ مستقلة تغلبت حتى اليوم على كلِّ الطامعين ولم يكن الاتحاد السوفييتي يقف إلى جانبنا آنذاك.

- لكن ماذا بشأن إمداد جيشنا بالأسلحة المتطورة... نحن بلدٌ زراعي يا أبا يحيى.

- بالتأكيد لكن لا يعجبني أنّك تستهين بكوننا بلداً يعتمد الزراعة.. نحن نعملُ في الأرض... الأرض ألا تدرك ذلك « الأرض والخبز والسلام «.

الأرض أولاً لا تنسَ ذلك رجاءً.

- كان لينين رومانسيّاً في ذلك الوقت.

- كان حكيماً يا صديقي

- بمناسبةِ الأرضِ هل ستفجِّر أرض التلّة الصخرية؟ سمعتُ أن الحزام الأخضر يقوم بتوزيع الكثير من المواد الغذائية كعامل محفز على الزراعة.

- أفكر في الموضوع.

وعندما وصلا إلى الباب تعثرا بنظرات أمي المرتبكة، وقالا بصوتٍ واحد : مرحباً (أم عزيز)، كيف الحال؟ قال ذلك أبو يحيى، وضغط أسنانه فوق بعضها أثناء لفظه للكلمة الأخيرة.

قالت أمي دون أن تنظر إلى عينيه :

- لقد أنجبتْ فتاةً.

ضحك أبو يحيى... ضحك مطولاً، وارتفع شارباه حتّى إني رأيت أضراسه البنية.

- وماذا في ذلك...أهلاً وسهلاً.

- اعتقدتُ أنك لن تفرح بذلك.

- لا لا...أم يحيى.. عطاء الله لا يُرد، ولا نجيب عليه سوى بالقبول والامتنان. وقف أبي في مكانه يتململ من الحديث الذي طال، لكنّ أبا يحيى تابع حديثه :

- يا أم عزيز أنا لستُ متخلفاً إلى هذا الحد...أصبحنا في القرن العشرين... وعاد يضحك منقلاً نظره على ملامح وجه أمي التي ازداد ضغط يدها على يدي، وابتعدتْ من أمامه حين دخل ليرى الطفلة، وأخذ يتمتم في أذنها بكلماتٍ لم أفهمها... ألا أن الطفلة بكت في تلك اللحظة... في تلك اللحظة بالذات، سمعتُ صوتها للمرة الأولى.

أخيراً تكلم والدي :

- ماذا ستسميها؟

أجابت أم يحيى من غير تردد (حياة)

كان وقعٌ للاسم في داخلي لن ينسى.

وأنا عائدٌ إلى البيت برفقة والديَّ، وكانت الشمس قد بدأت تلامس

الأفق لترتسم فوقها هالات أرجوانية أخذت تتزايد وتمتد إلى أن وصلت ثلث السماء، كنتُ أراقبها، وأسأل أمي التي قبضت يدها على يدي : أمي ما هذا؟... انظري إلى السماء. إلا أنها لم تجب، وكأنها لم تسمعني، إذ كانت منصتةً لوالدي الذي لا ينفك يتذمر، لأنّ هذه السنة كثيرة الأمطار، وظهور الشمس من الأحداثِ النادرةِ هذا الشتاء.

- نكادُ نتعفن.
- طوّل بالك يا عزيزي.... المطرُ خير.
- والشمسُ خير... أشعرُ بضيقٍ شديد...

ونظر إلى حذائه الذي يغطس في الوحل في كلِّ خطوة.

السعودية ٢٠١٨

في كلِّ خطوةٍ كنتُ أشعر بحرارةٍ مزعجةٍ ناتجةٍ عن احتكاك حذائي بالأرض وبأصابعِ قدمي ؛ في كلِّ خطوةٍ كنتُ أشعر بنبضات قلبي المتسارعةِ... لم أعِ سبب تسارع دقات قلبي!.. ربما هي حرارة الجوِّ في هذا البلد المليء بالنخيل... في هذا البلد الشاحب الذي لم أستطع فيه أن أنظر إلى السماءِ الزرقاءِ إلا من خلف زجاج نافذةٍ ما.

ربما لم يكن المناخ الحارّ، أو الرمال، أو شكل المنازل... لم يكن الخللُ في ذلك كلّه... ربما كانت المشكلة في داخلي، في اشتياقِ الجذورِ والأرواح... في الموتِ الذي يخلقُ داخلَ الحياةِ ويطفئها فجوةً فجوة... أو ربمّا هو شوقُ السماءِ، فقد تخليتُ عن سمائي منذ اخترتُ الرحيل.

القرية ١٩٨٠

على الجانب الآخر من القرية حيث هنالك طريق أنفته الأقدام وبابٌ لا يطرقه زائر.. بدأت المرأة الروسيّة بالعويل...

كنتُ ألمحُ شعرها الذهبي الطويل من تحت ملاءتها عندما تأتي لشراء مقدارٍ قليل من لحم البقر من دكان الجزار وأنا أقف مستنداً إلى فخذ أمي التي تلكزني بركبتها عندما تريد أن تنطلق في طريقها دون أن تطلق صوتها.

كانت ميروشا امرأة رشيقة الجسد لكن ملامح وجهها باهتة، حاجباها رقيقان لعينين محصورتين في محجرين عميقين و رموشٍ ذات حواف بيضاء أمّا لون عينها فقد كان محيراً بين البني الشاحب والعسلي الداكن، بالإضافة إلى النمش الذي يغطي أنفها ومساحةً لا بأس بها من وجنتيها النحيلتين كلُّ تلك الصفات كانت تزيد من وضوح غربة هذه المرأة عن القرية وعن الشرق الأوسط بكلّ ما فيه.

لكنها حاولت... حاولت أن تخطو فوق غرابة ما حدث عنها ومعها.

بدأت تتكلم العربية متجاهلةً تلعثمها في كثيرٍ من الأحرف وملقيةً بالتهكّم والقهقهات التي يحدثها وجودها في ذلك الخليط المتماسك من الناس والذي بدت فيه كذبابةٍ في كأس حليب

لكن لم أستطع أن أنظر في داخلها لأعرف كم من الحزن والغربة والندم قد تعانيهِ تلك المرأة التي قالوا : إنها كانت تعمل في ملهىً ليلي وعشقها حسن هناك وتزوجها في مكانٍ ما وأحضرها إلى هنا إلى قريةٍ ذات مطرٍ غزيرٍ دافىء وقلوبٍ متقبلةِ العواطف.

لكنّها تصرخُ وحدها في ذلك المكان و حسن يركضُ مسرعاً لإحضار القابلة التي تعاند خوف أن ينبذها أهل القريةِ لمساعدة الغريبة لكنها أتت في النهاية وأخرجت بيديها المجعدةِ الأصابع طفلاً من رحم تلك المرأة، بتلك اليدين قبضت مبلغاً كبيراً من المال كان كلّ ما يملكه حسن في ذلك المساء وكان « جفن» الذي ملأ المنزل صراخاً مذ استقبلت رئتاه هواء

الحياة..

قالت ميروشا متلعثمةً مصرّة على التحدّث بالعربيّة مع أنَّ حسن يجيد الروسيّة : أريد أن أسميّه جفن.

- حبيبتي... إنه اسمٌ غريب... ولا أحد يطلق مثل هذه الأسماء هنا، فليس من الممكن إطلاقُ أسماء الملامح على الأشخاص.

- لقد سمعت الكلمة في إحدى الأغاني وعشقت الاسم.

في قرارة نفسه كان حسن يفكرّ أن يسمي المولود على اسم والده (مختار) إلاّ أنّهُ ما لبث أن استعاد ذاكرته الغريبة وذلك قبل عامين عندما طرده والده ومسح بكرامته الأرض ومسح كلَّ أملٍ له بالعيش مع العائلة وحرمهُ من الميراث سلفاً... لأنه ترك بنات العائلة وتزوج هذه الفتاة الغريبة السيئة السمعة.

- لا تعد إلى هذا البيت يا حقيريا قليل التربية.

- أبي أرجوك لا تقسُ علي...

- لستُ والدك بعد اليوم

وركله برجله إلى خارج المنزل وكأنّه كيس قمامةٍ استطاع أخيراً التخلص من رائحته القذرة.

بدأت الذكرى تؤلم حسن بشّدة و أخذت تتموضع في قلبه على شكلِ وخزاتٍ لنصلٍ حادةٍ تكادُ تخترق فؤاده إلّا أنّه صمد كما أنا صامدٌ الآن أحاول استعادة ذاكرتي لأعيش عليها .

العمل المضني يوصلني إلى مرحلة شعوري بالدوار، وسماعُ أصوات الموظفين ذوي اللهجة الغريبة عن ذاكرتي الكلامية.

كنتُ أحتفظُ ببعض التسجيلات لأحاديثي مع عائلتي على الانترنت، فقط لأستمتع بالاستماع للهجةِ أهل القرية التي عشت فيها طفولتي، طفولتي كانت غريبةً بعض الشيء، فقد عشتها متنقلاً بين المستشفى الكبير في المدينة، وبين بيت حياة الذي قضيت فيه معظم وقتي.

- مرحباً خالتي.

- أهلاً يا روح خالتك.
- جئتُ لألعب مع حياة.
وتغمرني بذراعيها النحيلتين، وتبكي.

كانت حياة تجلس على الأرض فارِدةً بعض الأغراض كالعلب البلاستيكية الفارغة وقطع الأقمشةِ، بالإضافة إلى دبٍ بني يبدو أن خالتي أم يحيى قامت بصنعه لها على عجلٍ إذ أنها وضعت عينيه في أعلى رأسه وبدا شكله أشبه بضفدعٍ، لكنه لعبة حياة المفضلة، كلّما حاولت أن أمسك به، تشدّهُ من يدي بعنف لتبعده عني، لكنها لم تكن تفعل ذلك عندما يأتي جفن ليلعب معها... لي رغبةٌ بضربه، لابد أنني أغار...أجل أغار. لماذا تعامله حياة بكلِّ تلك المودة مع أنه لا يستطيع الكلام بعد؟ إذ كان يدخل برفقةِ ميروشا التي أصبحت الصديقة الوحيدة لأمِّ يحيى واكتفت المرأتان بالصحبةِ التي لم يعرف أحدٌ من أهلِ القرية سرّها بعد.

كان جفن يدخل الغرفة بمشيةٍ يزيد من ثقلها حفاضه الكبير، فقد أصبح ابن عامين، لكنه (لايزال يعملها في حفاضه)، ميروشا كانت سعيدة بتلك الصحبة فهي أحوجُ إليها من أيّ شيءٍ في غربتها تلك.

أمّا أنا فلم تسعدني صحبتهما يوماً لأنني آتي لألعب مع حياة وحدي، وذلك على الرغم من محاولات أمي العديدة لكي تمنعني، وذلك لأنّ أم يحيى لم تعد صديقتها المفضلة، ذلك أنها سمحت لميروشا الغريبة الساقطة بالدخول إلى منزلها وتدنيسهِ، لكنّ ما كنتُ أستغربه هو موقف أبي المحايد فقد كانت أمي تطالبه بمنعي إلّا أنه يجيبها من تحت شاربيه، و دون أن أرى انفراجاً لفمه : « دعيه « وتخرج الكلمة مع الدخان الخارج من فمه أثناء تدخينه سيجارةً ضخمةً كان قد أمضى بعضاً من الوقت وهو يحشوها بعنايةِ أمٍّ تلفُ وليدها الجديد.

ما إن أسمع الكلمة حتى أخرج مسرعاً إلا أن (برهان) كان دائماً يصادفني في منتصف الطريق... إذ يختبئُ بين القصب الأخضر ينتظر طرائدهُ من العصافير الغافلة ليجهز عليها بأن يمسكها بيد ويشمط رقابها

بيده الأخرى، دون رحمة وكنتُ أنا كواحدةٍ من طرائده المسكينة، ينتظر أن أنسى وجوده تماماً ثم يفاجئني بانقضاضه السريع عليّ ليرميني على الأرض الموحلةِ فتتلطخ ثيابي... أشعر بخيبةٍ شديدةٍ حيال مظهري الذي كان (برهان) يتلذذ في تخريبه.

- إلى أين أنت ذاهبٌ يا ولد؟

- اخرس يا غبي...

ينظر إليَّ بخباثة، ويدفعني من صدري، ويقول مستفزاً إياي:

- ذاهبٌ إلى أم يحيى؟!

تلك العبارة كانت كافية لتجعل من جسده جداراً يجب عليَّ هدمه. أضربه بكلِّ قوتي إلى أن يستغيث، وإلى أن يصرخ قلبي مستنجداً، إذ يبدأ بالخفقان بشدّة، ثمَّ يأتي (شاهرُ) محاولاً التدخل، وسحب برهان من تحتي، وذلك أثناء محاولتي زجَّ حجرٍ ذو نتوءٍ حادٍ في جمجمته. يخرج برهان من تحت جسدي المصرّ على عصرهِ تماماً. ينهضُ باكياً متوسلاً، إلا أنه لم يتوقف يوماً عمّا كان يفعله معي... بالإصراره!

جلستُ وحيداً في ذلك العصر، فوق أعشاب (التين) القصيرة التي تغطي تلك البقعة، جلستُ بهدوءٍ، بعد أن ذهب شاهر وبرهان، أخذتُ أتأملُ الهواء اللطيف الذي يتغلغلُ بين القصب، فهدأ خفقان قلبي.

كنتُ ألاحظ الفطر الذي نما تحت الأعشاب المتبقيّة من العام الماضي، والتي شكلّت غطاءً رطباً و دافئاً له، وأشتمُ رائحة البراز المنبعثةِ من خلفِ القصب الذي يشكل دريئةً على الطريق، فكان المارون يقضون حاجتهم خلفها.

نهضتُ و تأملتُ مظهري المشعث، فعدتُ أدراجي إلى البيت لتستقبلني أمي، وهي تولولُ كعادتها :

- ماذا فعلتَ بنفسكَ.... أهكذا يتصرّفُ الأولادُ المهذبون؟! إنه برهان أليس كذلك؟

سأذهبُ إلى أمه حالاً لتجد لنا حلاً مع ابنها.

- أمي أرجوكِ لا تفعلي ذلك... أرجوكِ... لقد فعلتُ ما يجب فعله
- حقاً... ماذا فعلت؟

أطرقُ خجلاً لأن مظهري لا يشبه منظر من قام بالفعل... غير أنها الحقيقة.

أمّا والدي فيبقى متكئاً وكأنّه يسمعُ حديثنا ولا يسمعه، إذ يهز رأسه قليلاً ثم يعودُ إلى سهوهِ داخل الكتاب الذي يقرؤه منذ أيام. أمّا أمي فلا يفارقها الهلع كانت تشعرُ أني ضعيف البنية، وفي كلّ مرةٍ تخرج فيها من عند الطبيب تمسك يدي بقوةٍ وتبكي...

- أنا أحبك يا روحي.
- أنا أيضاً أحبكِ يا أُمي، لكن لماذا تبكين؟
- ما من سبب إلّا أنني أشتاقك.
- أنا معكِ دائماً يا أُمي... أرجوكِ لا تبكي.
- حسنٌ أعدِك بأن لا أفعل ذلك مرةً أخرى...

وفي كلِّ مرةٍ كانت تعيد الكرّة.

السعودية ٢٠١١

أنظر حولي في هذا المكتب الفسيح، وأنقّلُ نظري على مساعديّ اللذين أصبح برهان واحداً منهما.. بل أصبح أفضلهما، إلّا أنني أشعرُ ببعض التحفظ حيالَ الحديث معهُ عن ذكرياتنا في القرية، إذ أخاف أن يحاول إثارة قصتي مع أم يحيى، فلستُ الآن في موقعٍ يسمح لي بضربه. لو أنَّ الإنسان يدرك ماهية طفولته في أثنائها كم كان ليحذف من أحداثها آنذاك؟!

آنذاك كانت حياة جلّ اهتمامي على الرغم من بعدها وانجذابها لجفن إلّا أنني كنتُ سعيداً لمجرّدِ وجودي بقربها هناك في الحقل الذي أعدّه والدها لزراعة موسم الخضار الصيفيّة.. كان يعملُ على تقطيع التربة على شكل مساكب، يساعده في ذلك يحيى ابنه الأكبر أمّا أنا فأجلسُ صامتاً فوق تلّةٍ صغيرة من مخلفات الدجاج التي جهزها أبو يحيى ليستخدمها كسمادٍ لمزروعاته.

كان جفن يلعبُ بالقرب من حياة دون أن يعيرها اهتماماً، ولو بنظرة إلّا أنها لا تلبث تحاولُ جذب اهتمامه غير أنه يبقى على حاله مشيحاً بنظره عنها، ومشغولاً بتركيب بعض قطع (الميكانو) ببعضها. أحاولُ أن ألتقط يدها لأعيدها للمنزل لأنّ الشمس بدأت تصبحُ حارقة إلّا أنها تجاهلت يدي والتقطت دبّها ومشت تحت الشمس بهدوء « الهائم على وجهه في الأرض «.

يحيى ينظر كلَّ بضع دقائق إلى الشمس ويبدو أنّه كان ينتظر وصولها إلى نقطةٍ معينةٍ ليرمي المعوَل من يده ويجري مسرعاً باتجاه المنزل، كنتُ جالساً أنظر إلى وجه أم يحيى الشاحب، ألقى يحيى التحيّة على والدته ودخَلَ مسرعاً ليجلس على الأرض ويخرج من خزانةٍ صغيرةٍ بعض الكتب، وغابت ملامحه داخِلَ أحد الكتب، أما والده، فقد بقي في الأرض، دائماً يبقى هناك حتَّى مغيب الشمس، ففي كلِّ يوم يجلس فوق التراب بعد أن

ينهي عمله وينظر إلى أن تفارق الشمس الحياة ثم يعودُ أدراجه، وكأنَّ مسّاً ما أصابهُ، فليسَ لهُ رغبةٌ في الحديثِ أو أيِّ فعلٍ آخر وكأنَ حرماناً ما ارتسم على وجههِ، وعلق بروحه. من يدري لماذا.

أبحثُ عن حياة التي غابت داخل البيت، لأجدها جالسةً تحدّق بدبّها، وبعد قليل تأتي بخيطٍ صغير من تحت وسادة مطرّزة بخيوطٍ حريرية، وبألوان الزهر والأصفر الفاتح، ثم تلّفُ الخيط حولَ عنق الدب الصغير وتحملهُ منه لتتركه يتدلى في الهواء معلقاً من رقبته، فيبدو وكأنها قامت بشنقه، ثم تنظرُ إليه مطوّلاً، وبعد ذلك ترميه من يدها، وتخرجُ هاربةً إلى حضن أمها الساهمة.

السعودية ٢٠١٨

- في هذه البقعة من الأرض تتسع بقعةُ ألمي إذ يحترقُ الوقت، يحترق تاركاً بعض التشوهات الزمنيّة بعد رحيلها الحقيقي، أو الوهمي. لستُ أعرف إلّا أنني مدركٌ بأنها رحلت بطريقةٍ ما تاركةً إياي في بلدٍ غريبٍ عشتُ فيه سنواتٍ لم أعرف فيها سعادةً، إلّا يوم فتحتُ صفحتي على « الفيس بوك » ووجدتُ طلب صداقة منها، كان وجهها يطلُّ عبر صورة يبدو أنها التقطت لها ساعة المغيب في اللاذقية على الكورنيش وشعرها الأصهب يغطي بعضاً من ملامحها غير أنه لم يستطع أن يخفي الحياة التي أطلّت من عينيها الزرقاوين.

القرية ١٩٨٤

- يطرق والدي باب منزل أبي يحيى، فينهض الرجلُ مُرحِّباً، كان ينتظره ليطفئ فانوس الكازوليخرج للقيام بتشغيل متور الكهرباء كي يتابعا نشرة الثامنة، تسطع الشاشة، ثمّ تنطفئ، وتبقى على هذه الحال بعضاً من الوقت إلى أن يتململَ والدي، يضحك أبو يحيى أثناء دخوله من الباب، ويبقى واقفاً في العتبةِ قليلاً ينتظر أن تثبت الصورة، وعندما يتمُّ ذلك يخلع حذاءه المطاطي ذا الساق الطويلة، ويدخل ليجلس إلى جانب والدي.

في هذه الأثناء أفكر أنني أضعت في هذا اليوم فرصة الفرجة على برامج الأطفال إذ سينطلق (بل وسيباستيان في رحلةٍ جديدةٍ) وأضعتُ فرصة كتابة وظائفي وأنا أشعر بالنعاس، بدأتُ أتثاءب، فالتفت والدي نحوي قائلاً:

- ألا تريد أن تذهب إلى البيت اليوم؟

- سأذهبُ بعد قليل.

- متى؟

- بعد قليل.

كانت خالتي أم يحيى قد جهزت إبريق الشاي وبعض الأكواب على صينية ألمنيوم قديمة ووضعتها على الأرض بجانب زوجها وعادت إلى حياكةِ كنزة أطفالٍ بلونٍ زهري كانت قد بدأتها منذُ أيام.

قلتُ لها بحماسة: هذه الكنزة لحياة أليس كذلك يا خالتي؟

- أجل يا عزيزي، إنها لحياة.

وأشرق وجهها من جديد بعد أن كانت دائمة الشرود وقليلة الكلام. إلا أنّ وجه والدي ووجه أبي يحيى أخذا ينكمشان ويتجعدان بتجهمٍ وحدّةٍ، وطلب إليَّ والدي أن أذهب إلى البيت فوراً، ومن دون نقاش.

طأطأتُ رأسي مستسلماً، لكنني ألقيتُ نظرة أخيرة على حياة التي

غفت في زاويةِ الغرفة دون غطاء، ودبّها ملقى إلى جانبها، والخيط لا يزال معلقاً في رقبته.

بعد أن لبستُ حذائي، عدتُ وخلعتهُ ودخلتُ لأضع غطاءً على الطفلةِ، ثم خرجت.

الغيوم تتدافع بفعل الريح فتبدو كقطيعٍ من الأغنام وقد وقعَ في مرجٍ باذخ الثراء بالعشب.

أشعر بالبرد فالطقس متقلبٌ في مثل هذه الأيام، في النهار تكون الشمسُ ساطعةً وفي الليل يبدأ الجو بإطلاق ريحه الباردة التي تنخرُ العظام. أما الأشباح تنتظر الليل لتهاجم الأطفال الذين يخرجون من منازلهم في هذا الوقت، لقد كانت الأشباح منتشرةً على جانبي الطريق، معلقة على الأشجار ومخبأة في جحور الحيوانات، حاولتُ أن أهدئ من روعي...

- أنتَ لستَ طفلاً، لقد أصبحتَ في الثامنة.

- أجل أعرف ذلك لستُ خائفاً ولكنني أشعر بالبرد فقط.

إلّا أن الأشباح لا تلبثُ أن تحاول لمسي واللحاق بي لغايةٍ غير مفهومة، فما الذي قد يريده الشبح من طفلٍ مثلي؟!

- أنتَ لستَ طفلاً... لستَ طفل.

- صحيح... صحيح.

إذن ما الذي قد تريده الأشباح من شخص مثلي؟ أعدتُ السؤال على نفسي مراراً إلّا أنني لم أستطع أن أجيبَ عنه، بدأتُ أزيد من سرعتي، لكن برودة الجو أخذت تزداد كما ازدادت دقات قلبي، فشعرتُ أن الهواء لم يعد يصل إلى رئتي، فسقطتُ أمام باب المنزل الذي كانت أمي تنتظرني خلفه.

عندما رأت وجهي بدأت تولول، وأنا محتارٌ بين صوتها وبين غيابي، كلٌّ يشدني إليه بقوة، لكنَّ صوت أمي المنتحب هو الذي تغلّب على إغماءتي، وعندما فتحتُ عيني وجدتُ أمي تداعب شعري بيد وباليد الأخرى تحاولُ

إخفاء سيل دموعها.

- لا تذهب إلى المدرسةِ غداً يا روحي أنت...

- أنا بخير أمي لا تخافي.

- لا تذهب إلى المدرسةِ غداً، ولا بعدَ غد... لقد سمعتُ عن طبيبٍ في دمشق، سأصطحبك إليه.

- في دمشق؟!

- أجل في دمشق، لكن حاول أن تلتزم المنزل، ولا تتعب نفسك في هذين اليومين. عدني بذلك يا روحي.

- أعدكِ.

السعودية ٢٠١٨

أحمدُ الله على أنني لستُ امرأة، إذ ليس من الممكن أن أصير أمّاً، فأنا لا أستطيع أن أشعر بأكثر مما أنا فيه، أمّا أمي، فكانت تشعرُ بالكثير من الحزن الذي يسحُ هارباً من عينيها على الرغم من محاولاتها الفاشلة لكبحه. ربمّا كانت أمي قد عاشت حالةً من الندم بعدما عرفته من اعتلال قلبي.

سمعتها تقول لأم يحيى : احمدي الله على كلّ شيء لا تخافي، أولادك أقوياء أمّا أنا، فلا أعرف إن كان عليَّ أن أبحث عن علاجٍ لابني أم لي... إنّ قلبي يتقطع كلَّ يوم، أخاف عليه من أنفاسه يا أمّ يحيى..... آه صدق من قال : بأنّ الأولاد ضنى. إنهم أشقّ ما يضني يا أم يحيى.

لكنني حتى اليوم لا أعرف، لماذا لم تكن أمي لتقتنع بأنّ قلبي لم يكن يؤلمني آنذاك على الإطلاق بل على العكس من ذلك أشعرُ بالنشاط دائماً، وكنت قوياً بحيث أقدِرُ على أن أصارع جميع صبيان صفي، وأستطيع أن أوسعهم ضرباً دون أدنى جهدٍ مني. قلتُ لها ذلك مراراً، إلا أنها لم تكن قادرةً على تصديقي، وكأنها تبحثُ عن أداةٍ تجرح بها قلبها، وأيامها التي أصّرت على أن تمضيها في تأنيب نفسها تارةً وفي معاتبة الله تارةً أخرى.

تُرى من يعاتب الآخر الآن بعد مرور زمنٍ على رحيلها، من يعاتب الآخر حقاً؟

هل سيعذبها الله فوق عذابها الذي أمضت أيامها وهي تحوكه يوماً بعد يوم إلى أن لبسته أو لبسها تماماً فأصبحا شخصاً واحداً؟ أم هي من تعاتبه لأنه جعلها تلِدُ خيبةً رمتها في قعر بئرٍ من الخوف لم تستطع الخروج منه إلّا بموتها.

إذ صرتُ أراها بعد وفاتها على صورة مختلفة تزور سريري كلَّ ليةٍ لتغطي كتفيّ فقد كنتُ أتركهما مكشوفين عمداً منتظراً قدومها، لتترك دفقةً من حنانها حول كتفي، وتغادر بخفةٍ، وهي تبتسم.

في ٢٩ نيسان ١٩٨٥ القرية...

كانت أمي قد جهزت كلَّ شيء ووضعته في حقيبة سفرٍ مصنوعة من التنك والقماش المثبتِ فوقه بعناية، خرجتُ من المنزل برفقتها، وقد حملت الحقيبة على رأسها مما زاد في استقامة ظهرها وبعدِ نظراتها عنّي

- أمي احملي الحقيبة بيدك.

- لا أريد، هذه الطريقة أفضل بالنسبة لي.

كنتُ خجلاً من مظهرها لأنها تبدو كواحدةٍ من نساء البدو الذين يأتون إلى القرية بقصد رعاية أغنامهم في أراضيها، وذلك ضمن اتفاقٍ بينهم، وبين أصحاب الأراضي التي تصلح كمراعٍ لقطعانهم.

أثناء السير على الطريق الترابية لمحت أمي من بعيد المرأة البدوية « حجيلة « التي تعملُ عندنا كراعيةٍ للأغنام مع أولادها... لم أكن أحبُّ تلك المرأة بقامتها القصيرة وعينيها اللتين تبدوان كرأسي دبوسين مغروسين في وجهها، وأنفها القصير وأسنانها الذهبية.

كانت تنقلُ الماء من الساقية في حقلنا إلى الخيمة التي تسكنها.

- انظر يا عزيزي إنها « حجيلة «

- وإذا إجت، تجيها موجة

- عيب يا إمي شوه الحكي!

- لا أطيقها، في كلِّ مرةٍ تخرب قرى الطين التي أصنعها، وإن حاولت المزاح معها برفقةِ أصدقائي تخبر والدي بأنني قليل التربية، فيغضب مني.

- لأنك تزعجها ولا تمازحها، هل يجب أن تتجسسوا عليها أنتَ و رفاقك أثناء قيامها بالاستحمام في الخيمة؟! هل تسمي ذلك مزاحاً؟....

لا أدري لماذا كنتُ أحب إغاظة تلك المرأة، ربمّا لأنها وضعت خيمتها في منتصف المرج، في ذلك المكان الذي كنتُ أستلقي فيه أنا وحياة مسلمين نظرنا للسماء، وتاركين لها أن ترسم أحلامنا بغيومها البيضاء.

- انظري حياة، انظري إلى تلك الغيمة تشبه زهرةً على غصنها

- لا لا تشبه زهرة
- ماذا تشبه إذن؟
- لا أعرف... ربما تشبهني!
- هل تعرف أنني أكره والديَّ؟
- لماذا يا حياة؟... هذا لا يجوز!
- لأنهما يكذبان عليَّ دائماً.
- انظري إلى تلك الغيمة، تشبه دراجة أليس كذلك؟
- أجل، تشبه دراجة جفن.
- هل يملك جفن دراجة؟
- نعم سيشتري له حسن واحدة.

بعد قليل تأتي « حجيلة « لتوقظنا من أحلامنا، ولتزعجنا بدورها.

- ماذا تفعل هنا؟
- لا دخلَ لكِ.
- سأخبر والدك يا قليل الأدب.

تكتفي بأيّ ردٍّ مني لتخبرني، ولتخبر والدي أنني قليل أدب، وتربية! لذلك أوغرت صدور أصدقائي تجاهها، وبدأنا نشاكسها كلّما سنحت لنا الفرصة، فتارةً نرميها بالحصا الصغيرة ونختبئ، وتارةً نملأ أكياس « المتة الفارغة « بروث الأبقار، ونعيدُ تغليفها، لنرميها بالقرب من خيمتها، ثم نضحك إلى أن ننام عندما نتذكر وجهها، وهي تفتح كيس المتّة الورقي، لتكتشف أنها خُدِعَت، ثم تنظر حولها بحنق، وتطلق شتائمها ظنّاً منها أنها تنتقم إلّا أنّ ذلك ما كان يزيدنا إلّا إصراراً على تعذيبها.

- لمن الموجة يا ولد... لقد سمعتك؟
- لا يتكلّم عنكِ يا أمُّ محمّد.
- أعرفه، وأعرف تصرفاته.
- اعذريه يا أمّ محمّد لا يزال صغيراً.
- صغير! إي زوجيه بيتزوج.

ضحكت أمي عندما سمعت هذه العبارة التي احمّرت لها وجنتاي:

- إن شاء الله يا أمّ محمّد إن شاء الله أفرح فيه وأزوجه.

بعضُ أهل القرية ينتظرون الحافلة على المفرق ويحملون حقائبهم وسلال الفاكهةِ، إلا أن يحيى كان يحمل حقيبة وبعض الكتب بيد، وراديو صغيراً بيده الأخرى، وقد أطال شعره قليلاً، ووضع على رأسه قبعةً مستديرة « بيريه».

عندما رأى أمي تحمل الحقيبة على رأسها، ركض إليها مسرعاً، وفي عينيه نظرةُ عتابٍ ممزوجة بتأنيب الضمير.

- لماذا لم تقولي لي يا خالتي إنك مسافرة اليوم؟

- لا أريد أن أزعج أحداً.

- لا أبداً يا خالتي.... يسعدني أن أساعِدَكِ.... يا عيب الشوم....

وتناول الحقيبة من فوق رأسها، وذهب بها إلى سائقِ الحافلةِ الذي نزلَ يتنقلُ بين الركاب كديكٍ يتفاخر بين دجاجاته.

تحدّث يحيى إلى السائق، فوضع له الحقائب بشكلٍ محكمٍ فوق الحافلة ثمَّ صعدنا، وركبتُ في حضن أمي، وانتشرت من حولي روائح الناس وأغراضهم، روائح البصل، والثوم، والتبن الذي يغطون به سلال البيض، ورائحة الحليب واللبن الرائب المنبعثة من الأواني التي بدأت ترتجُّ بفعل حركةِ الحافلةِ على الطريق الترابية الوعرة.

السعودية ٢٠١٨

بدأ الألم يتجمع في أحشائي، يعتلج ويتقلّص إلى أن أصاب صدري، فبدت الأضلاع وكأنها تُنتزعُ من مكانها بسكين، وبدأ قلبي ينبضُ بشدة إلى أن وجدتهُ محلقاً في سماء القرية بين أحلامي القطنية البيضاء، كان الضوء ساطعاً لدرجة أنّهُ حجب الرؤية عنّي، فما كان مني إلّا أن استخدمت حاسة أخرى بدأت تلتقطُ صوتاً بعيداً، يغني أغنية « جورجي « الطفلة اليتيمة التي تبحث عن والديها.... كان صوت حياة الصغيرة إذ تردد الأغنية عندما كنّا نتابع البرنامج معاً أثناء زيارتي لهم برفقة أمي.

تجلسُ بقربي مرخيةً غرتها فوق عينيها وساهمة في التلفاز، وعندما تنتهي برامج الأطفال، تخرجُ لتلعبَ مع الخراف في المرج وأذهبُ خلفها كالخروف الذي اعتادَ أكل السكر من يد صاحبهِ، فتراهُ يتبعهُ دائماً ,

تُرى أين حياة الآن وإلى أين يطير قلبي إذ يتبع صوتها؟

أسمعُ أصواتهم المستغربة :

- فتحة بين البطينين وبهذا القياس!!!

- الحالة خلقيّة... لكن الغريب أنَّهُ لا يزال حيّاً حتى الآن

- كم عمرهُ؟

- أربعة وأربعونَ عاماً.

- حقاً!!

وصوتكِ يطغى على كلِّ الأصوات لنذهب بعيداً... هناك في سرداب البئر حيثُ كنّا نصطادُ الأسماكَ معاً بعدَ أن نكون قد جمعنا كيساً مليئاً بالديدان، ثمَّ نربط دودة بخيطٍ ونغمسها في ماءِ البئر، ما إن تنزل حتى نسحب الخيط بسرعة، فتخرج سمكة صغيرة نضعها في دلو ماءٍ كنا قد جهزناه من قبل... نجلس هناك لساعات ننسى العالم داخل السرداب الرطب، المليء بالسراخس، ورائحة الحوارة اللطيفة.

بدأتُ أشعرُ ببرودة ذلك المكان اللطيفة التي كنا نهرب إليها من حرِّ الصيف.

الحرُّيزداد في هذا المكان والأصوات تختلطُ والأضواء تسطع، انتظري حياة... انتظري...

أجدُ نفسي في غرفةٍ في المشفى والطبيب المتابع لحالتي ينظرُإلى إحدى الصور الشعاعية...

- حمداً لله على سلامتكَ.

- شكراً دكتور عبد الله.

دمشق ١٩٨٥

يدورُ الطبيب في الغرفة المليئة بمعداتٍ طبيةٍ، يروح جيئةً وذهاباً، يقفُ أمام النافذة ثمَّ يضعُ الصورة الشعاعية أمام ضوء النافذة للمرّة العاشرة، يحدّقُ فيها لدقيقة، ينزلُ يدهُ، ثمَّ يعيدها إلى مكانها أمام الضوء ويصمت، ترجوهُ أمي أن يخبرها بما قد يريحها، وأنَّ تشخيص الأطباء الآخرين لم يكن دقيقاً، إلّا أنهُ يهزُّرأسهُ بيأس :

- تشخيصُ بقية الأطباء صحيح

- ما من أمل يا دكتور؟

لستُ أعلم ماذا أقول لكِ... أنا أستغربُ أنَّهُ على هذه الحال من الصحة، وأنهُ استطاع أن يتحمل عناء السفر... حالتهُ خطيرةٌ جداً.

- حسنٌ... إلي الله

أمسكت يدي، وأخذت تقبلها بورع، وأخذت دموعها تبلل وجهي وشعري طوال طريق العودة الذي كان طويلاً جداً لأنني كنتُ أفكرُبحياة... اشتقتُ لها. تُرى ماذا تفعل في غيابي؟

لو كنتُ أستطيع أن آخذها لرؤية بردى الذي نسمعُ عنهُ في الأغاني فقط، أردتُ لها أن تسير معي في أحياء دمشق المرصوفة بالحجر الأزرق.

- هل تعرفين يا حياة أن دمشق تختلفُ كثيراً عن قريتنا؟

- لا لا أعلم

- هناك نهرٌكبير

- وما هو النهر؟

- ساقيةُ ماءٍ كبيرة جداً

- نهرنا نحنُ ينبعُ من السماء

- كيفَ ذلك؟

- يتساقطُ الماء دائماً.

- لم أفهم حياة... أتقصدين أنَّ المطرنهر؟

- أجل... لدينا في القرية كلّ شيء، وهي أجمل من دمشق بكثير
- حسنٌ... لن أذهب إلى هناك ثانيةً، سأبقى معكِ هنا دائماً.

ابتسمت حياة وأخذت أصابعها تداعبُ فروَّ القطةِ التي حاولت التملّص من بين يديها واقتربت من قدميَّ لتتمسحَ بهما.

القرية ١٩٨٦

يقفُ والدي في فناء الدار، ويصرخُ : أم عزيز تعالي وانظري ماذا اشتريت....

تترك أمي صينية العدس التي تقومُ بتنقيتها وتنهضُ مسرعةً... لتظهرَ الفرحة على وجهها...

- مبارك يا عزيزي... مبارك

تدخلُ وقد استرخت ملامح وجهها، وهامت في فكرةٍ ما، يدخلُ أبي خلفها يسألها وهو يحتضنني :

- ما بكِ يا أم عزيز... اشتريتُ دراجةً نارية لأجل أن يوصلَ عزيز أخاه إلى المدرسة.

- حسنٌ هذا جيد

- أليسَ هذا ما طلبتهِ مراراً؟!

- ربما... لا أعرف.

عزيز أخي الأكبر في المدجنة يتفقّد أحوال الدجاج لكنَّهُ عندما سمعَ صوتَ الدراجة، جاءَ مسرعاً، فالحدث يعنيه بشكلٍ خاص... خرجَ بقميصهِ الداخلي، وكأن أمي لم توبخهُ على ذلك آلاف المرات، إلا أنّهُ يبدو عليه أنهُ لم يسمعها، فلا يزال يخرجُ في الصيف نصفُ جسدهِ السفلي مغطى ببنطلون جينز مقصوص عند الركبتين، والجزء الأعلى من جسدهِ عارٍتماماً... تلتمعُ سمرتهُ تحت شمسِ القرية، أما في الشتاء فيتعبُ نفسه بلبسِ قميصٍ داخلي وبنطلون جينز ويترك لبقية جسدهِ حريةَ الظهور أمام البرد القارس، إلا أنهُ كان يقول لأمي إنهُ لا يشعر بالبرد.

جاءَ عزيز راكضاً من المدجنة، ودارَ حولَ الدراجة ثم ركبَ فوقها، وضربَ ذراع التشغيل برجلهِ، فانطلق صوتها، أخذ يدير المقبض، فيرتفع الصوت وينخفض ثمَّ يخرج الدخان من المدخنة الصغيرة للدراجة.

- تعالَ يا ولد، اركب خلفي، لآخذك في جولة

امتثلتُ لرغبتهِ وركبت خلفهُ بعد أن لفتني أمي بمعطفٍ ثقيل كانت قد اشترته لعزيز لكنَّهُ لم يضعهُ على جسده ووضعت وشاحاً على رأسي حتى كادت تغطي عيني.

- خذني إلى بيت عمي أبو يحيى

- حسنٌ.

طارت الدراجة على الطريق كانت تخترق الهواء البارد وتقفز فوق الحصى والحجارة الكبيرة فنقفز أنا و عزيز في الهواء ثمَّ نعود مكاننا، وعندما وصلنا أخذَ عزيز يزيدُ من اندفاع الوقود في محركِ الدراجة، وذلك ليعلمهم بقدومنا، فخرجَ يحيى مستعجلاً والكتاب لا يزال بيده، مما أثارَ امتعاض عزيز، وأخذَ يتمتم قبل أن يصل يحيى ليسلّم عليه: لنرى ماذا ستستفيد من الكتب.

تركتهما واقفين خارجاً، ودخلت، كانت الغرفة فارغةً، فذهبتُ إلى المطبخ و صوت غسالة أم يحيى قوياً بحيثُ يصل إلى الغرفة، فعرفتُ أن حياة تساعدُ والدتها التي تُخرِجُ قطعَ الملابس من الماء المغطى بطبقةِ رغوةٍ كثيفة، ثم تضعها في دلوٍ مليءٍ بالماء النظيف وتغمسها فيه ثمَّ تعصرها وتضعها في سلّةٍ كبيرة.

إلّا أنَّ حياة كانت واقفةً فقط، وممسكةً بثوبِ والدتها بإحدى يديها، وباليد الأخرى دبها الصغير، وعندما رأتني نظرت إليَّ بحزن، وقالت :

- أريدُ أن أنتحر

- حياة أرجوكِ لاتقولي هذا الكلام ثانيةً، من أين جئتِ بهذه الأفكار؟!

- أنا حزينةٌ جداً.

- لماذا يا عزيزتي، لماذا؟

- لأن أبي وأمي كاذبان

- بماذا كذبا عليكِ... أخبريني

ونظرتُ إلى أم يحيى فوجدتها منهمكة في عملية الغسيل وكأنها لا ترانا إلّا أن حياة اقتربت من أذني وقالت :

- لقد كانا يفعلان أفعالاً شائنةً في الليل.

شعرتُ بحرارةٍ في وجهي، ما الذي تقولهُ هذه الصغيرة؟! لا تزال في الخامسة، إلى أين تذهبُ بأفكارها؟!

- عيب يا حياة عيب.

- سأنتحر إذن.

- ما الذي تقصدينهُ؟

- سأحاولُ قتل نفسي.

بدأ كلامها يخترقُ قلبي الذي بدأت نبضاتهُ تتسارع وأخذ العرقُ ينضحُ من وجهي وجسدي، ركضتْ إلي أمُ يحيى هرعةً... عزيزي تنفس بهدوء أرجوك وبدأت تدلك صدري وتزيلُ الوشاح عن وجهي... إلى أن هدأت قليلاً.

جلسَ عزيز إلى جانب يحيى على السياج الحجري المرصوف حولَ كرمِ الزيتون، يحيى طالبٌ في كليّة الاقتصاد، وكان مولعاً بالدراسة، يقولون : هو من اختار دراسةَ الاقتصاد، إذ إن علاماتهِ تقبل دخولهُ في كلياتٍ أخرى إلّا أنهُ اختار هذا الفرع لولعهِ بدراسته.

أمّا عزيز منذُ طفولتهِ مختلفٌ عن أقرانهِ، ذلك مع العلم أن لكلِّ إنسان شخصيتهُ المختلفة عن الآخرين، والتي تميزهُ عنهم، غير أنَّ عزيز كان مختلفاً بشدّة في طفولتهِ. يجلسُ لساعات، وهو يفكُ ويركب بعض القطعِ المعدنية، وفي آخر اليوم... ينتجُ عن ذلك اختراعٌ ما، لم يكن يحب اللعب مع الأطفال، ودائماً يتصرّفُ على أنهُ أكبر منهم سناً فقد يترفعُ عن اللعب بالطين أو العراك أو لعبة الاختباء، فإمّا أن يكون في المستودع يقوم بصنع شيءٍ ما، وإما في الأرض أو المدجنة وإما يقفُ خلفَ جدار المنزل المهجور على طريق المدرسة، حيثُ كانت تمر نسرين...

عندما سأل عزيز يحيى عن ولعهِ بالكتب أجابَ الآخر:

- إنهُ عالم حي كنتُ أحاولُ دخولهُ وما إن دخلتهُ علقت بحبهِ، متعةُ المعرفة يا عزيز لا تفوقها متعة، الكتب مخلوقاتٌ جميلة تستطيع أن

تصادقها وأن تؤمنَ بها، وأن تعطيها الأمان فتغيّر حياتك، ما رأيك أن أقرأ لكَ يا عزيز؟

- لا يا رجل ماذا تقول؟! أستطيعُ القراءةَ وحدي إن شئت لكنني لا أحبُ ذلك، أشعرُ بالضيق أثناء القراءة.

- ذلكَ أنك لم تستطع تذوق المتعة بعد.

- إييه لا أريد هذا التذوق... إليكَ عني سأذهب... إذا أردت الذهاب إليَّ لشرب الشاي لا تأخذ واحداً من مخلوقاتكِ الورقيةِ هذه معكَ.

قال ذلك باستخفاف، وركبَ الدراجةَ بزهو

- ألا تريدُ الذهاب يا ولد؟

- لا سأبقى هنا

- ومتى آتي لاصطحابكَ؟

- سآتي وحدي

- حسنٌ... هذا أفضل، فأنا مشغولٌ اليوم.

خرجَ الدخانُ كثيفاً من مدخنةِ الدراجةِ، وانطلق عزيز مسرعاً...

بعدَ خمسِ سنواتٍ من القطيعةِ، كانت عزلة حسن قد انتهت، أو في طريقها إلى النهاية، ذلك أن أهل القرية كفّوا عن تحاشيهِ، وزوجتهِ ميروشا، إذ بدأ يعملُ عند بعضهم كأجيرٍ في الأراضي أو المداجن، كان يعمل بجدٍ دائماً واشتهر بأمانتهِ لذلك أصبحَ أهلُ القرية يتنافسون في طلبِ العمل إليه عندهم، لكنهُ في هذا العام اختارَ العملَ عندنا، إذ لم يعد عزيز قادراً على متابعةِ أمور المدجنةِ والأرض بمفردهِ، ووالدي ربمّا شعرَ بالملل بعدَ العمل كلَّ هذه السنين، فرغبت أن يتقاعد مبكراً، أو ربمّا أنهُ شعرَ برغبةٍ في التباهي على حسن الذي كان ابن حسبٍ ونسبٍ، والآن سيعملُ أجيراً عندهُ، وسيجلسُ أبي أمامهُ يضع رجلاً على رجل، ويفتحُ كتاباً في فناءِ الدار تحت شجرةِ التوت، ويطلبُ إلى أمي أن تحضر له الشاي، أثناء قراءته كتاب « النظرية الماركسية « التي يظهرُ على وجهه أنه يجد عسراً في فهمها إلّا أنهُ لا يكفُ عن فتحِ هذا الكتاب، وعلى الصفحةِ

نفسها دائماً... إلّا أن حسن لم يأبه للحركات الطاووسيةِ التي كان أبي يقومُ بافتعالها، بل يبتسمُ باستخفاف كلّما خرجَ من المدجنةِ، ورأى أبي تحت شجرة التوتِ، أمّا أبي يجلسُ ولا يعلم ما يدورُ حولهُ، فهو لا يلبث يفكرُ بأحداث السهرة، وكيفَ سيناقش أبا يحيى، وسيفحمهُ هذه المرّة... لكن جدتي كانت ممتعضةً دائماً، فحالُ والدي لم تعجبها يوماً، قالت له مراراً: استيقظ مبكراً يا بني، اعمل بيدك، اعرف كل صغيرةٍ وكبيرة عن أرضكَ، عن أشجاركَ، غير أنهُ كان ينفثُ دخان سيجارتهُ ويعبُّ الشاي ويضربُ الكأس على الصينية بضيق كلّما سمعَ هذا الكلام، فما كان منها إلّا أن أخذت مكانهُ تقريباً، فبدأت تساعدُ عزيز في تقليم الكرمةِ والزيتون، وتخرجُ معهُ لسقايةِ بستان الخضراوات، وللقطاف أيضاً... إلى أن جاء يومٌ ولم تستطع الخروج إذ استغرقت في النوم لفترةٍ طويلةٍ من الصباح، في ذلك الصباح بالذات لم أسمع لها شخيراً وذهبت إلى المدرسةِ وأنا في حيرةٍ من أمرها، ترى ماذا فعلت جدتي لتتخلّصَ من صوتِ شخيرها الذي يؤرقني دائماً، ولم أستطع التأقلم معهُ طيلةَ السنواتِ التي شاركتني فيها غرفتي، وعندما عدتُ من المدرسةِ وجدتُ الجواب على سؤالي، وانطفأتْ حيرتي عندما عرفتُ أنَّ جدتي رحلت، ولن تخرجَ لسقايةِ الأشجارِ ثانيةً، ولن توبخَ أبي، ولن تؤنبَ أمي.. ولن.... ولن....

لقد ماتت جدتي ولن يزعجني شخيرها مجدداً... هذا كلّ ما انتهى إليهِ الأمرُ بالنسبةِ لي.

السعودية ٢٠١١

خرجتُ من المكتبِ في الساعةِ السابعةِ تماماً، ألقيتُ جسدي المنهك داخلَ السيارةِ، وطلبتُ إلى السائقِ أن يوصلني إلى البيت، في ذلك اليوم بالذات نظرتُ إلى السماء، فوجدتها بلونِ الورد، تلكَ أولَ مرةٍ ألحظُ فيها أنَّ لذلك المكان سماءً، فعلى مرِّ السنين التي قضيتها فيه اعتقدتُ أنهُ مغطىً ببطانيةٍ أو ما شابه، فلم أكن ألحظُ أن فوقهُ صفاءً أزرق قد أستطيع أن أتأمله كل يوم، لذلك نسيتُ النظرَ إلى هناك، لكنَ اللون الوردي في هذا المساء يتدافعُ على شكلِ موجاتٍ لطيفةٍ تدعوني إلى الرقص، فحلقتُ طوال الطريق، دخلتُ المنزلَ وأنا في حالةِ حبورٍ يغمرني شعورٌ بالفرحِ، لم أعرف كنهه

جلستُ فوقَ الكنبةِ مواجهاً لشاشةِ التلفاز، استمعتُ لبعضِ الأغاني... فازدادت بهجتي، قلبتُ المحطات إلى أن وصلتُ إلى الجزيرةِ الإخباريةِ، ظهرت المذيعةُ بصوتٍ متحدٍّ وأكتافٍ ثابتةٍ، ونظرةٍ شرسةٍ لتخبرَ العالم بقصةِ الشاب التونسي الذي أحرقَ نفسهُ انتقاماً من الحكومةِ التي لم توفر له عملاً كريماً...

تحفزت حواسي كلها عندما نظرتُ إلى الشاب الذي يحترق ولم أعرف بماذا أفكر حينها، شعرتُ بألمٍ شديد رمى حبوري جانباً واستوطنَ مكانهُ، لقد خُدعتْ، ربما لم تكن السماء وردية، لقد كنتُ أحلم بذلك فقط...

سمعتُ إشارةَ رسالةٍ على البريد الالكتروني، فذهبتُ أتفقدهُ وأنا ساهمٌ تماماً... الرسالة من حياة، أرسلتها على الفيس بوك

- هل سمعتَ الأخبار؟
- أجل سمعتها يا حياة
- ما رأيكَ، هل أنتحر؟
- وبماذا يفيدُ ذلك؟...
- أكرهُ هذه الحياة.... أكرهها

- أحبيني يا فتاة... أرجوكِ أحبيني اليوم، لنبقَ ضمن حدودِ الوردي بعض الوقت.

- لا أستطيع... أنسيتَ أنني زوجةُ جفن؟!

- لم أنسَ لكنني سألتُ عنهُ وقالوا لي إنه لم يتزوج بعد

- وداعاً.

- ما رأيكِ أن نتحدث على « الواتس أب»؟

- حسنٌ موافقة، أنتَ صديق العمر، والوحيد الذي أتحدثُ إليه.

- الوحيد الوحيد؟

- أجل، أعطني رقمكَ، وسأحدثُكَ في وقتٍ لاحق.

- حسنٌ...

أشدُ ما يدهشني في أحاديثنا على « الواتس أب» هو أننا نمتلكُ ذاكرةً مختلفة عن الحدث نفسه... تلك الأحداث التي عشناها معاً في القرية، ولربمّا عشناها نحنُ الاثنين فقط، أو ربما عشتها منفرداً.

القرية ١٩٨٨

يجلسُ يحيى خلفَ الدار إلى جانبهِ جهاز الراديو الصغير، يدّوِّرُ الزرَّ إلى الأمام، ثمَ إلى الخلف إلى أن يسمعَ صوت فيروز: « بكتب اسمك يا حبيبي ع الحور العتيق»، يستمعُ بصمت وعلى العشب الذي لم تطأهُ قدم وضعَ بعضَ الكتب وتركها ترتاح وأخذت أفكارهُ تسبحُ في الأفق، أوربمّا كان يفكرُ في الأغنية التي وقفت حياة تصغي لها بلا حراك إلى أن انتهت، فأدارت ظهرها إلى يحيى ونظرت إلى شجرة اللوز المواجهةِ لها، الشجرةُ مليئةٌ باللوز، ولكن لا أعلم كيفَ تساقطت حبات اللوز كالمطر عندما نظرت إليها حياة، عادت ونظرت إلى يحيى الذي لا يزالُ هائماً في أفكارهِ، إلّا أنها لم تكلمهُ، بل ذهبت إلى البيت، وجلست في حضن أُمها وبقيت صامتة.

إلّا أن الكلام يملأُ قلبَ يحيى، لكنَّهُ لا يعرف طريقةً للبوح، فكلّ ما يقولهُ وسيقولهُ قد يفهم بطريقةٍ خاطئةٍ، هوليسَ ممن يؤمنون بالمقولاتِ الجاهزة مثل (خير الكلام ما قلَّ ودلّ) هنالك الكثيرُ مما يجب أن يقال، ويصعبُ عليه قولهُ، وقد يصعب على (سنا) فهمهُ، لذلك عليهِ أن يجدَ الطريقة المناسبة ليتحدثَ إليها عن مشاعرهِ تجاهها، فقد تكون النظراتُ بينهما مجرّد نظراتٍ، فهو لا يعرفها مذ كانت صغيرة. جاءت وأسرتها قبل عامين وسكنوا في القريةِ، فأنى له أن يعرفَ طباعها.

بقي السؤال على شفتيه في حالةِ غيبوبةٍ، لا يعرف متى يستفيقُ منها، فالتقطَ الكتاب الذي وضعهُ في أعلى المجموعة، نظرَ إلى عنوانهِ وأغلقهُ بنزقٍ، ثمَّ أعادهُ إلى مكانهِ، وما لبثَ أن تناول الكتابَ الذي تحت السابق، فتحهُ، قلَّبَ صفحاتهِ بسرعة ورماهُ من يدهِ، وذلكَ في الوقت الذي مرَّت فيه سنا على الطريق المؤديةِ إلى الكنيسةِ وكانت برفقةِ عمتها صباح، في هذه اللحظة رفعَ يحيى بحركةٍ سريعةٍ صوتَ الراديو، وفيروز لا تزالُ تغني، لكن هذه المرة : « لملمتُ ذكرى لقاءِ الأمسِ بالهدبِ..... «

نظرت سنا إلى عينيهِ، وابتسمت، وعندما ابتعدت قليلاً وأصبح لا يرى

منها سوى ظهرها وشعرها البني الذي يغطي ظهرها، أشارت لهُ ملوحةً بيدها من الخلف، دون أن تنظرَ إليه.

رفعَ صوت الراديو أكثر فأكثر وأخذ يرقصُ منفرداً لا يشاركهُ في ذلك سوى العشب النظيف، وأشجارُ اللوز، وأنا، فقد كنتُ منبطحاً على السطح بحجةِ أنني أتفقدُ حال رب البندورةِ الذي وضعتهُ خالتي على السطح بهدف تجفيفهِ.

أخذتُ أرقصُ مكاني فرحاً، فقد كنتُ أحب يحيى، تعجبني طباعهُ الهادئة وتواضعهُ، فقد كان قليلَ التفاخر، على العكس من عزيز، الذي يستعرضُ عضلاتهِ للقاصي والداني، ولا يناديني إلّا: يا ولد؛ مع أني أصبحتُ في الثامنة. لم يكن يحيى في البدايةِ قد انتبهَ إلى وجودي، لكن عندما نسيتُ نفسي، وبدأتُ أرقصُ، ربما سمعَ صوتَ خطواتي التي نسيتُ كبحها... توقف فجأةً، ونظرَ إلى مصدرِ الصوت، حاولتُ أن أتوارى خلفَ الركيزةِ التي تثبت العريشة، إلا أنهُ كشفَ أمري، ابتسمَ بهدوءٍ، وصعدَ السلّمَ، وعندما وصلَ إليَّ سألني:

- ماذا تفعلُ هنا؟

- أتفقدُ رب البندورة.

- منذُ متى وأنتَ هنا؟

حاولتُ أن أتملصَ من الإجابة إلّا أن أصابعهُ أطبقت على شحمةِ أذني، فقلت:

- منذُ أن فتحتَ الراديو.

ظننتُ أثناء استجوابهِ لي أنه سينهالُ عليَّ ضرباً، وسيحرمني من القدومِ إلى بيتهم، لكنهُ بقيَّ صامتاً، مبتسماً بهدوئهِ المعتاد. بقي هكذا لدقائق، ثم عادّ يسألني :

- وما رأيكَ بما رأيت؟

- ليس لدي رأي... رأيتُ وكفى، ورقصتُ أيضاً.

- حسنٌ، لا تتحدث لأحدٍ عما رأيت يا عزيزي، لا تفعل ذلك، هذا سرنا،

وأنتَ أصبحت رجلاً الآن، وتعرفُ كيف تكتمُ الأسرار، أليس كذلك؟

- بالتأكيد.

قلتُ ذلك دون أن أعرف قدرَ المسؤوليةِ التي حمَّلني إياها يحيى، وبعدَ وقتٍ، نسيتُ وعداً قد قطعتهُ آنذاك.

عندما نزلتُ عن السطح وجدتُ حياة تنتظرني عند أسفل السلَّم، قالت لي :

- أنا حزينةٌ جداً.

- لماذا يا حياة؟

- أمي تهملُني كثيراً ولا تلعبُ معي.

- أنا ألعبُ معكِ، ما رأيكِ بذلك؟

- أريدُ أن تلعبَ معي أمي، فهي لا تكسر الألعاب، أمّا أنتَ فتفعل.

- أعدُكِ أن لا أفعل. ما رأيكِ أن نذهبَ معاً إلى بيتي، وسألاعبكِ بألعابي؟

- لا أريد.

- لماذا؟

- لا أريد.

- جفن هناك.

- حسنٌ موافقة.

لقد كبرتُ على اللعب بالألعاب غير أني أحبُ أن أشاركَ حياة بما يسعدها، لكنها لا تحبُ رفقتي، أشعرُ أنها مرغمةٌ على صحبتي على الرغم من أنني أحاول ما استطعت ألا أزعجها.

قالت لي ونحنُ في الطريق إلى منزلي:

- أين الله؟

- في السماءِ يا حياة.

- وكيفَ أستطيعُ رؤيتهُ؟

- لا أظنكِ تستطيعين ذلك.

- أأستطيع إن أحضرتُ عصا طويلةً، ودسستها في السماء أن أجعلهُ يتساقط كما تتساقطُ حبات اللوز من الأشجار؟

- ربما!

- إذن هل لكَ أن تساعدني؟

- بكلِّ سرور، لكن لماذا تريدين رؤيةَ الله؟

- أريدُ أن أسألهُ أشياءَ كثيرةً.

- مثل ماذا؟

- مثلكَ أنت، مثل أمي، مثل المطر، والديدان، وشرانق الفراشات، مثل الخراف، والدجاجات، مثل قطتي ودبي، مثلي أنا.....

لماذا نحنُ هنا....، ولماذا لسنا كذلك؟

- لكنكَ هنا يا حياة.

- لا... أنا لستُ كذلك.

أفلتت يدي وأخذت تركضُ أمامي وتغني، استمعتُ لصوتِ غنائها العذب إلى أن صادفني برهان، وكعادتهِ بدأ يسخر ويتهكم، فما كان منها إلا أن ابتعدت وسبقتني.

- ابتعد من أمامي يا برهان، فلستُ في مزاجٍ لرؤيتكَ اليوم.

- صاحب مزاج ما شاء الله!

- هل تشعر بسعادة عندما أهينك وأضربك؟!

- لا أعرفُ... لكنني أشعرُ بسعادةٍ عندما أغيظكَ.

- انقلع من أمامي إذن، فأنا لا أطيقُ رؤيةَ وجهك، أنت تلاحقني في كل مكان، حتى في المدرسةِ تلازمني.

- لن أفعل سنبقى معاً، أعدكَ بذلك.

أبعدتهُ عن طريقي بنزق، فسقطَ على حافةِ الطريق فوقَ الحصى المتباينةِ الأحجام، لكن ابتسامتهُ الخبيثة لم تفارق وجههُ، إلى أن أدرتُ ظهري، فسمعتهُ يجهشُ بالبكاء، لكنني لم أعر الأمر اهتماماً.... اللحاقُ بحياة هو ما يشغلني دائماً.

بدأتُ أركضُ على الرغمِ من أن أمي دائماً توصيني أن لا أجهدَ نفسي، إلا أنني مع حياة أنسى جميع الوصايا، أمّا هي فكانت تنساني تماماً عندما تلتقي بجفن.

ما الذي يمتلكهُ هذا الصغيرولم أمتلكهُ أنا؟! ترى هل تستمتعُ عندما يتجاهلها دائماً أم أنها تحادثُ صمته؟!

أليس من الغريب أنه صامتٌ دائماً، وإن تحدثَ فيتحدثُ الروسيّةَ، ولا كلمة عربي.

بعد فترةٍ من عمل حسن في المدجنة اكتشفتُ أن ميروشا امرأةٌ مثقفة مهتمةٌ بتعليم حسن، فقد بدأ يدرس (الثانوية العامة) بعد زواجهِ منها بعام ونجحَ في الحصولِ على الشهادة بعد أن خضعَ للامتحانِ مرتين، فهو يدرسُ بالإضافة إلى عمله، وسجلَ في كليةِ الحقوق، وهو يدرسُ حتى الآن، ليس متفوقاً لكنهُ يحاول. أمّا ميروشا فتثابرُعلى تعلم العربية وعلى تعليم ابنها وزوجها الروسيّة، مما لفتَ انتباهَ الناسِ في القريةِ إلى مميزاتها، فصارت تعطي دروسَ اللغةِ الروسيّة لأولادِ الأغنياءِ في القرية، أمّا أنا فأعطتني الدروسَ مجاناً لأن حسن يعملُ عندنا.

جلست في مواجهتي تماماً، وأخذت تطرقُ بأصابعها البيضاء المصطبغةِ باللونِ الباذنجاني ؛ فوقَ الطاولةِ :

- أحضر قلماً وورقة.
- حسنٌ... تفضلي.
- كيف حالكَ اليوم؟

قالتها بالعربيةِ الفصحى، محاولةً أن تقولها بأصحّ طريقةٍ ممكنةٍ للفظ، كانت تدورُ في رأسي ملايينٌ من الأسئلةِ إلّا أنني اكتفيتُ بسؤال :

- هل درستِ في الجامعةِ؟
- أجل... بالتأكيد.
- وماذا درستِ؟
- اللغة العربية

- هههههه... حقاً؟
- وما الغريبُ في ذلك؟
- ليسَ غريباً.

هناك تعرفتُ إلى حسن... كان يمرُّ بالقربِ من بيتي دائماً... هيا إلى الدرسِ الآن.

عرفتُ فيما بعد أن كثيراً من القصص تحاكُ لأجلِ التسليةِ والإثارةِ فحسب، وليسَ بقصدِ الوصولِ إلى حقيقةٍ أو حكمةٍ، وتعلمتُ أن بعضَ القاصّين يضيفون توابلَ قد صنعتها نفوسهم المريضة، وذلكَ كي تستحق الحكاية أن تروى، لكي تستثيرَ الحميّة، وتستفز المواقف. وعرفتُ أنَّ حسن لم يحضر جنازةَ والدهِ الذي توفيَّ دون أن يعتذر لحسن على ظلمهِ لهُ، وأنَّ أخا حسن أكثر قسوة مما ينبغي لأنهُ عندما عَلِمَ بالحقيقةِ التي بدأت تظهر شيئاً فشيئاً بعدما أصبحت ميروشا معلمةً في القرية، وبعدما درسَ حسن، واشترى بيتهُ الخاص من عرقِ جبينهِ، وأصبحَ الأستاذ حسن ؛ بقيَّ ينتظرُ حسن أن يأتي إليه، إلا أن حسن لم يفعل، وعلى الرغم من شعورهِ بحنينٍ شديدٍ إلى بيتِ أهلهِ، وإلى أمهِ بالذات التي تركها خلفهُ راكعةً على الأرض متضرعةً إليهِ ولأبيهِ لأن يعدُلَ واحدٌ منهما عن قرارهِ، غيرَ أن حسن كان عنيداً مثل أبيهِ فالتزمَ كلٌّ منهما بكبريائِهِ وصَمَت.

أمّا جفن، فمن يدري على وعن ماذا صمتهُ، كان طفلاً محيراً، يلعبُ بعيداً عن أمهِ وأبيه ؛ في إحدى المرات وجدتهُ يلعبُ في الخربةِ التي أخشى الاقترابَ منها، إلّا أَنَّهُ كان هناك جالساً القرفصاء، ليستطيعَ مراقبةَ صراصير الروث عن كسب، وحياة هناك تراقبهُ أيضاً.

ربيع ٢٠١١ السعودية

ترى ما كميّة الحياة التي يتنفسها شعبٌ لا يستطيع أن يمشي تحتَ مطرِ بلادهِ، وكم من الأمراضِ قد ينقلها إلى أرواح الناسِ هنا، مطرٌ معلّبٌ، كيفَ تعيشُ الأرواحُ في السيارات، ربمّا ما من أرواح، قد تكونُ الأرواحُ هاجرت إلى أوربا، منذُ زمن، وما بقي سوى الأطياف تهيمُ في فراغٍ مسوَّرٍ بالفضيلةِ والمال والنفط.

وهل أعيشُ أنا أيضاً؟!، وكيفَ تركت لروحي أن تغادر مطرها، وتتركهُ يتساقطُ دونَ فرحةٍ باللقاء، كيف غادرتُ، دونَ أن أحمِلَ قطعةً من سمائي إلى هنا، إذ كنتُ سأحصدُ المطَرَوالمالَ معاً.

كنتُ حزيناً في ذلك النهار، فقد سمعتُ أن المطرَ يهطلُ بغزارةٍ في بلادي، وأنا هنا أعاني حرماني، وأعاني التيه بين الوقائعِ، في هذا النهار بدأت الحربُ في سورية، وبدأ الربيع والمطر، وبدأت المعاناة، والفرح، لكن إيه.... توقف يا رجل إلى أينَ تذهبُ بأفكاركَ؟ عليكَ أن تسألَ السؤالَ التالي:

هل يمكن لشعبٍ ارتوى من مطرٍ واحدٍ أن يقتُلَ بعضهُ بعضاً ليشربَ كلُّ طرفٍ من دمِ الطرفِ الآخر! وأين المطرُ إذن هل انتهى؟ هل جفت السماء، وأحيلت قشرةً جافةً، ليبحثَ سكانُ هذه الأرض عمّا يشربونهُ؟!

أسوأ ما التزمتهُ في ذلك الوقت هو متابعةُ الأخبار، فمع الوقت أصبحت أشبه بمسلسلٍ مشوّق تلاحقُ حلقاتهِ لتعرفَ ما سيحصل في الحلقةِ التاليةِ، إلّا أنّكَ لا تحصلُ على شيء سوى تسجيلٍ لحالاتِ الموتِ قتلاً للحكومات والشعوب، كلَّ يوم جزء جديد، عرفتُ ذلك بعد أعوامٍ عدّةٍ من متابعةِ الأخبارِ التي كنتُ أبحثُ من خلالها عن مخرجٍ للحياة من دهليزِ الموتِ المعتم الذي زُجت فيه بلادي مرغمةً، ربمّا كانَ السببُ في ذلكَ الشخصِ نفسُه الذي اختلقَ قصةَ حسن وميروشا، ربمّا كانَ قد

وضعَ توابلَ زائدة في هذه المرّة، لكنَّ هذه الحكاية طالت، ومن يدري؟ متى ستنتهي؟

القرية ١٩٨٩

كنّا نلاحقُ الشمسَ، وننتظرها في الشتاء، ونطاردُ الظلَّ وننتظرهُ في الصيف ؛ كلُّ فصلٍ يحتملُ انتظاراتٍ تخصهُ، إلّا أنَّ الحبَّ لا ينتظرُ الفصول، إنَّهُ طقسٌ لكلَّ الفصول، لذلك نلاحقهُ، وننتظرهُ دائماً، كما كان يفعلُ أبو يحيى الذي فاجأهُ الخريف على غفلةٍ منهُ، إذ كان يبذرُ القمحَ، ويطالعُ كثافةَ الغيم في السماء، لكنهُ لا يغفلُ بين نظرةٍ وأخرى عن أن يلقي نظرةً على الطريق المؤديةِ إلى بيتنا.

كانَ يعرفُ تلكَ الطريق جيداً، يحفظُ عددَ الخطواتِ إليها وربمّا عدد الحصى على جانبيها، أوعدد الأوراق في الأشجارهناك، لكنني أعتقدُ أنهُ نسيَّ أن يعدَّ الأيام ووحداتِ الوقت التي تمضي عليه وهو عاشقٌ، أو ربما توقفَ به الزمن هناك في قمةِ العشق، وقد أضاعَ طريقَ العودةِ إلى النسيان. فلربما كان يعتقدُ أنَّهُ إن عادَ سيسقطُ في الحضيض، لذلك بقيَّ قلبهُ صامداً في القمةِ على الرغم من ثلجِ الإهمالِ الذي كانت أمي تراكمهُ فوقهُ، فكلَّما حاولت عيناهُ التقاطَ أملٍ ما، كانت عينا أمي تلملمُ نفسها وتهرب، قبل أن يصلها، ما لم يصلها أبداً، أوربمّا كان قد وصلَ أكثرَ مما يمكن لعينيها أن تسعهُ لذلك بكت كثيراً في ذلك اليوم الذي التقت بأبي يحيى فيه.

ربما كان ينتظرها هناك، أو ربمّا كانَ يجلسُ على حافةِ الطريقِ لتداعبَ اللهفةُ قلبهُ فقط، لكنَّهُ انتظرَفي ذلك اليوم أكثرَبكثيرمن طاقتهِ على الانتظار؛ لذلكَ انفجرَصارخاً في وجهها عندما وصلت إليه :

- لن أناديكِ أم عزيز بعدَ اليوم. أنتِ هيفاء وسأناديكِ كذلك : هيفاء.

- ما الذي حدثَ يا أبا يحيى، أرجوكَ انتبه لما تقولهُ نحنُ في الطريق.

- ما عاد يعنيني.

- أنا يعنيني... أنا امرأةٌ متزوجةٌ ولديَّ أولادي وسمعتي.

- ألا تخافينَ أن تقتليني يا هيفاء؟
- ما عدتُ أخافُ شيئاً لأنني قتلتُ نفسي منذ زمن.
- بعيد الشر عنك يا هيفاء.

أرجوكَ دعني أذهب، فما عاد..... ما عاد فيَّ شيءٌ كما كان.

أبعدتهُ بحركةٍ نزقةٍ من يدها ومضتْ، أما هو فلمسَ بيده المكانَ الذي لمستهُ، وبقيَّ واقفاً يحدقُ خلفها، وعندما اختفت في فراغِ الطريق، أخرجَ زجاجةَ خمرٍ من تحت إبطهِ وجرعَ منها، وأخذَ يخطو فوقَ خطواتها ويعدُ : واحد.... اثنان... ثلاثة....

أما أمي فأكملت طريقها إلى بيت خالتي أم يحيى، وبدأت تتحدّث، وتتحدّث....

لم يبقَ موضوع إلّا تحدّثت حوله، أمورٌ تعرفها، وأخرى لا تعرفها، بدأت تتصرف بحمق، وتعبُّ الشاي الساخن بسرعة، كانت مرتبكة لدرجة أنها تابعت خلط الأحاديث، والتصّرفات دون أن تنتبه لنظرة أم يحيى المستغربة، وبعد برهةٍ صمتت أمي فجأة، وأطرقت ولم تعد تتحدّث مطلقاً. نظرت إليها أم يحيى بدهشة، ورسمت إشارة الصليب على صدرها، وحاولت بعدَ ذلك كسر صمتها، فسألتها:

- شو طابخة اليوم؟
- ما بعرف.

- ثم نهضت أمي، وطلبت إليّ العودة إلى البيت برفقتها، وعندما التقت بأبي يحيى مجدداً، وكان ما يزال يعدُّ خطواتها، تجاهلتهُ، وانطلقت في طريقها. فتحت الباب، ودخلت، وارتمت على الأرض ككيسٍ مملوءٍ بالماء، وقد بدأ الماءُ ينزمن ثقبين فيه... إلى أن فرغ.

بعدَ ذلك لبست حجابها، وبدأت تصلّي.

أنا ذهبتُ أتفقد فراخ الحمام التي كانت نتاج زوج حمامٍ واحد، والآن تكاثرت إلى أن غدت سرباً، لكنَّ السرب بدأ يتناقص منذ اليوم الذي قرر والدي نقلهُ إلى مكانٍ آخر....

أحضرتها، من عند برهان، على شكل رشوة، وجهزت لها مسكناً فوق سطح المنزل، ويبدو أن المكان أعجبها، فبدأت بالتكاثر إلى أن وصل عددها إلى مئتي طير، وكانت كارثتها عندما قرر عزيز أنّ الحمام يذرق على المصطبة أمام البيت، وقد أصبحت الرائحة مزعجة، والتنظيف صعب، فما كان من والدي، وعزيز إلّا أن نقلا أعشاش الحمام إلى المدجنة المهجورة، قرب البيت، إلّا أنّ هذه الطيور أبت أن تترك مسكنها، وبدأت تعود تباعاً، وتنام فوق سطح المنزل في برد الشتاء، كان بعضها يسقطُ أمامي ميتاً في الصباح.... ذهبتُ إليها وتوسلت أن لا تعود إلى السطح، إلا أنها كانت تعيد الكرّة كلَّ ليلة، حتى ذلك الصباح الذي كنتُ فيه أبكي أحد الطيور، وكان لايزال بين يدي، فاقتربت مني حياة، وسألتني عن حالي، قلت لها:

- أنا حزين يا حياة، فالحمام يقتل نفسه برداً، لكنه لا يقبل أن ينام في مسكنه الجديد.

نظرتْ إلى الطير الذي بين يديّ، ودلكت صدره بأصابعها... فاستفاقَ، وتحركت أجنحته بهدوء، وأخذ يطيرُ فوق رأسِها ويهدل، بعد قليل خرجت الطيور الأخرى من أعشاشها الباردة، وبدأت تحومُ فوق رأس حياة التي سارت بخفةٍ، واتجهت إلى المدجنة المهجورة فتتبعها السرب، ودخلوا معاً، منذُ ذلك اليوم عرفَ الحمام أن بيته هناك، وأنا ما عدتُ أبكيه.

السعودية ٢٠١٢

خرج عزيز من السجن، وبعدَ عدّةِ أيام اتصل بي، كانت الأرضُ لاتزال على حالها، لكن ما من حياة فيها. وقفَ لساعاتٍ ينظرُ إلى الأرض المترامية الأطراف، شعر أنَّ روحهُ عادت لتسكن جسده من جديد، خلعَ كنزته، كان جسده لا يزال قوياً، وعضلاته مفتولة، حملَ معوله، وركض في الأرض يحفر، ويزيل الأعشابَ إلى أن تعب، فركضَ إلى بركة الماء التي ملأتها مياه الأمطار، هذه البركةُ التي يحفظُ أحجارها عن غيب، فهو من رصفها فوق بعضها حجراً حجراً. شرب من الماء المشوب بالغبار، وغطسَ برأسه في الماء وعندما أخرج وجهه شعر بطعمٍ مالحٍ للماء على فمه، لكنه مسح الماء عن وجهه، ومسح معه ذكرى ما حدث، بدأت قصة حبهِ للأرض تشتعل من جديد.

كنتُ أنتظر خبر خروجه من السجن بخوفٍ ووجل، فقد هربتُ ولم أحاول أن أقفَ إلى جانبه طوال تلك السنوات التي مرّت فأنا بحاجةٍ إلى من يقف إلى جانبي، ولم يستطع عزيز أن يفعل ذلك، لا أعرف حتّى الآن لمَ لديَّ مشكلةٌ مع الأخوّة، كان والدي يتحدّث عن رغبته في إنجاب أولادٍ كثر إلّا أنَّ الله لم يرزقه سوى باثنين، لكن لا أعرف ما هذا الشعور الغريب الذي يربط الإخوة، ويفرقهم في آنٍ... يوم احتُجزَ عزيز شعرتُ بألمٍ شديد في صدري، ولايزال الألم حتى الآن رابضاً على شكل عتمةٍ خانقةٍ عفنة، وباردة، في الحقيقة...خفت إن زرت عزيز في سجنه أن تزداد العتمة في داخلي، وأن يتفشَّى الألم، فأسقطُ باكياً، وخفتُ أيضاً أن لا أستطيع الكلام معه، فلم يكن بيننا ما يُحكى، فقد كنتُ أستمع إليه دائماً، ولم أستطع أن أحدّثه عن شيء، لكن شعوراً بالذنب يلاحقني في غربتي، فما الذي يضيرني لو ذهبتُ إليه، واستمعتُ له كالسابق، ولو كنتُ لا أسمعه أبداً، ولو كنتُ أفكر بحياة أثناء محاولتي التركيز على حديثه المتناقض... كان يجب أن أستمع إليه فقط.

لم يكن عزيز يجيد الكلام لكنهُ يحب أن يتكلّم، إلّا أنّه يجيدُ العمل كثيراً لذلك كنتُ أحبُّ رؤيته، وهو يعمل بكمال.

عندما سمعتُ صوته غار قلبي ليصبحَ في أحشائي، ثمَّ صعدَ بسرعةٍ مفاجئةٍ ليستقرَ في مكانه، ولتبدأ ضرباته بالتصارع، ضربةٌ قوية وأخرى من دون أثر، وأنا أتخبطُ فيما بينها، وبين صوت عزيز...

- كيف حالك يا ولد؟

- حمداً لله على سلامتك يا أخي.

- ألا تستحي على وجهكَ يا ولد؟! كلُّ هذه السنين مضت، دون أن تسأل عني.

- كنتُ أسأل كلّ يوم.

- واضح.

- أنا سعيدٌ بخروجك من السجن، سآتي لزيارتك قريباً، سأحاول أن آخذ إجازة من عملي وآتي.

- ألستَ في هذه الدنيا؟ لا تأتِ، اطمئنيتُ عليك، لا أريد أن أرى وجهك هنا.

- لكني أريدُ ذلك.

- إذن سأحدِّثك على (الماسنجر) ما رأيك هههههه.... صحيح كنتُ في الحبس، لكنني أواكب التطورات.

- حمداً لله على سلامتك.

- شد حالك يا ولد... يكفي همهمة كالنساء... أراك بخير... وداعاً الآن.

أغلق الخط، وجلس على أرض المصطبة أمام الدار، يتأمّلُ مشهد الطريق التي أصبحت إسفلتية، وازدادت الأشجار كثافةً على حافتيها، وكثرت عليها آثار عجلات السيارات، وأصبحت المنازل قريبةً من بعضها، لكن هناك في المدى باتجاه طريق الكنيسة، وبالقرب من سورِ كرمِ العنب طيفُ فتاةٍ يظهرُ ويغيب، تبتسم تارةً، وتنظر إليه مودعةً إياه بحزنٍ تارةً

أخرى، لكنّهُ عاهد النسيان رفيقاً. لماذا على الذاكرة أن تهاجم صموده الآن؟ ما كان منه إلّا أن رمى بذكرياته جانباً، وذهب يهيم في الحقول عسى أن تندمل الفجواتُ السوداءُ التي تركها في قلبه حظّهُ العاثر.

أمّا أنا فالفجوة في قلبي كبيرة، واتساع الكرةِ الأرضية كلّه لا يستطيع أن يردمها.

ما كان بي إلّا أن اتصلتُ بحياة، وأخبرتها بخروج عزيز، فقالت لي إنها تعرف أنّهُ خرج من السجن.

- كيفَ عرفتِ؟

- عرفتُ، فقط عرفت.

- من أخبركِ؟

- لا أحد.

- ألن تحبيني يا حياة؟

- أجل سأحبّك ولمَ لا؟

قلتُ متهكماً:

- لأنّكِ زوجة جفن.

- وما علاقة الزواج بالحب؟ وهل يموت القلب بعد الزواج؟

- لا.... ولكن....

- أحبّكَ لكن ليسَ بقدرِ حُبّكَ لي!

- يكفيني مقدارُ ذرة من حب.

- هي لك.

في ذلك العام كانت الحرب السوريّة لا تزال طريّة، والأمل بقربِ نهايتها لايزال قوياً والمحللون السياسيون يفرّخون التوقعات بسرعة قياسية، أمّا أنا فكنتُ أنتظر حياة التي وعدتني أنها ستأتي، ثمَّ خلفت وعدها، وقالت: إنها لا تحب النزوح، ستبقى في أرضِ القرية هناك في المكان الذي كنّا نسير على طرقاته وننظر في الأرض لنجد لقيةً ما فنفرح، لكن أنّى لي أن أفرح بغير وجودك يا حياة، فالتنفس هنا عسيرٌ للغاية، إذ

إنَّ السواد يغطي الوجوه، واللواط يحفر عميقاً في الرغبات، أتصدقين؟ أشعر بالخوف بعيداً عنكِ!

- لا تخف، أنت لستَ بعيداً أبداً.

- أشعرُ بالاطمئنان إن طلبتِ مني أن لا أخاف، ربمّا أحبُّ أن أمتثلَ لأمركِ.

- بدأ عزيز بحراثة الأرض.

- هذا جيد.... لكن متى أستطيع حراثة أرضي؟

قلتُ ذلك متخابثاً... لأن رغبتي تجاهها تزداد كلّما شعرتُ ببعد المسافة، أتذكرُ أني عندما كنتُ في القرية. لم تكن الرغبة هي ما يقربني منها، وإنمّا شيءٌ مختلف، شعورٌ ما يشبه التعلّق الفطري بالحياة!

- الأرض لمن يعملُ بها.

- أنتِ منعتني من العمل... ألا تذكرين؟

- لا أذكر إلّا أنك تصدّق كلّ ما تسمع!

- وهل كنتِ تكذبين بشأن جفن؟

- ربمّا، لكن ما كان عليك أن تصدّق إلّا ما تريدُ أن تصدِّقهُ، فالحقيقة هي ما تريده، وما تستطيع أن تراه، وإن لم تستطع أن ترى سوى حقيقة حبي لجفن، فلأن هذه هي الحقيقة بنظرك.

تلاشت رغبتي داخل بطني، واستحالت الحرارة إلى حباتٍ من العرق بللت جسدي، وشعرتُ برغبةٍ في الاندثار داخل عدمٍ ما....

القرية ٢٠\٢\١٩٨٩

استيقظ يحيى مبكراً هذا الصباح، بقي لدقائق ساهماً في السقف، ثمَّ عاد ودسّ رأسه تحت الغطاء، قد يظن من يراه أنّه أغمض عينيه على العتمة وعادَ يغفو، إلّا أنّ يحيى يريدُ لصورة سنا التي رافقته في الحلم ألّا تخرج من عينيه لذلك أطبق أجفانه، وترك لشفتيه حريّة الابتسام، والحلم، وعادَ إليه وجه الفتاة نضراً متورداً، قالت له إنها لا تحبُ قراءة الكتب

- ماذا تحبين إذن؟

- أحبُّ الجنون.

- أي جنون؟

- أحبُّ أن أنام لفتراتٍ طويلة، وأقطف أحلامي أثناء النوم... أحب ارتكاب أي حماقةٍ تخطر في بالي....

- ما الذي تقصدينه بالحماقات؟

نظرت إليه بعينين بنيتين متقدتين، ومالت نحوه ببطء، وقبّلته على شفتيه بهدوءٍ استطاع معه أن يتذوق ريقها، وأن يشعر باستعارِ أنفاسها التي أشعلت ثورةً في جسده لم يعرف كيف يخمدها إلّا بعد ابتعاد الفتاة وغيابها في الفراغ....

مرر يديه على ثيابه وشعره ليعيد ترتيبهما، ثمّ نظر حوله، ونهض يسير متعثراً بقدميه.

في هذا الصباح خرج يحيى يتمشى في القرية التي أوفد للعمل في مدرستها كمدير للمدرسة، وذلك بعد تخرجه من الجامعة. هو من اختار المكان الذي سيعمل فيه، فاختار قريةً يقطنها البدو، لم يكونوا من البدو الرّحل، وإنما يقيمون في القرية شتاءً، ويهجرونها في الربيع بحثاً عن المراعي لقطعانهم، لم يعرف يحيى أننا مثلما يمكن لنا في الحياة أن نختار المكان الذي نحيا فيه، أيضاً يمكنُ لنا في الحياة أن نختار المكان الذي

سنموت فيه.

كمديرٍ شابٍ مقيم في القرية ينام في غرفةِ الإدارة، فقد وضع سريراً ومشجباً، وبعض مطربانات المونة في نمليّةٍ على هيئة فاترينة قديمة، ربمّا كانت تستخدم كرفوفٍ لوضع أضابير التلاميذ، لكنه يعاني مشكلةً كبيرة، إذ إنه لم يجد مكاناً يضع كتبه فيه، لذلك تركها داخل صندوقٍ من الكرتون ودفعها تحت سريره الحديدي، أمّا مشكلته الثانية، فهي أنّه لم يكن يجد مكاناً يستضيف فيه رفاقه الذين كانوا يقومون بزيارته كلَّ فترة، أحياناً ينامون على الأرض، وتحتهم بطانية أو قطعةٌ من قماشٍ قديم، بقي يحيى يعاني هذه المشكلة إلى يومٍ دخل عليه الأستاذ جاسم في الغرفة، ووجد الأصدقاء مستلقين على الأرض في برد الشتاء.

فما كان من الاستاذ جاسم، وهو ابن شيخ القبيلة إلّا أن دعاهم إلى منزله، وعندما رفضوا ذهب مسرعاً وأحضر لهم لحفاً ووسائدَ وفرشاً، وأصبح بعد ذلك يلازمهم في جلساتِ النقاش التي يعقدونها ليلاً، إلّا أن جاسم كان يجلس منصتاً، دون أن يتحدّث، ويبدو عليه أنّهُ لا يفهم كثيراً مما يقولونه، وفي إحدى الجلسات نطق جاسم أخيراً:

- هل تعني يا أستاذ يحيى أنَّ الشيوعيين لا يؤمنونَ بوجود الله؟!

ابتسم يحيى بهدوءٍ كعادته إلّا أنَّ أحد أفراد المجموعة ردَّ بسرعة:

- أجل هذا ما نعنيه.

إلّا أنّ يحيى حاول جاهداً أن يبقى محتفظاً بالهدوء وعاد ليبتسم وقال:

- قبل أن تبدأ الثورة الشيوعية في روسيا كان الشعب الروسي يعيشُ في حالٍ من البؤس والفقر الشديدين، لكنّ الروس على الرغم من بؤسهم كانوا يمجدون قياصرتهم، ويعبدونهم ذلك أنّ القياصرة ينفذون مشيئة الرّب، ويتمثلون روحه إلى أن بدأ بعضُ الناس يفكرون في طريقةٍ للثورة على القياصرة، فما كان منهم إلّا أن ألغوا صفة الألوهية عن القيصر، ولكنّ بعض الناس أو غالبيتهم ممن لم يتعمقوا في الأمر

اعتقدوا كما تعتقد يا جاسم.

فردَّ جاسم وقد بدأت عيناه تنظران باتجاهين مختلفين، وكأنه في حالةِ حيرته يصبح أحولاً.

- يعني أنتَ مؤمن أليس كذلك يا أستاذ يحيى؟

- بالطبع أنا كذلك.

ونظر يحيى إلى رفيقه الذي بدا مضطرباً وممتعضاً من التفسير الذي أدلى به يحيى للتو، إلّا أنه بقي صامتاً.

أمّا يحيى فبعد أن كان يعشق الشتاء، أصبحت مشاعره باهتةً تجاهه، إذ أصبح الشتاء مصدر حزنهِ، فهو يبتعد عن القرية ليلتحق بعمله، ومن ناحيةٍ أخرى، أصبح المطر يوقظ في داخله ذاكرةً أقوى تجاه كلِّ شيء بعيد المنال، فأصبحَ يدفئ بردهُ برسالتين وصلتاه من سنا.

الرسالة الأولى مليئة بعناوين لأغانٍ عاطفية كانت سائدة في ذلك الوقت، والرسالة الثانية تتحدث فيها عن مشاعرها، لكن الغريب في تلك الرسالة هو أنَّ يحيى لم يفهم فحواها مع أنّهُ كان يستطيع أن يفهم أصعب الكتب ويقوم أيضاً بتبسيطها وشرحها لرفاقهِ وهذا ما جعله يصبحُ مؤهلاً ليكون مشروع قائد التنظيم فيما بعد.

لكنّهُ في تلك الليلة بالذات شَعَرَ أنَّ ناراً ما بدأت تخبو في داخله ليحلَّ مكان دفئها وجع من نوعٍ جديد لم يعهده من قبل.

في تلك الأثناء كنتُ أعيش في القرية وأعاني رهاب انتحار حياة التي كانت تحبُ ممارسته كلما سنحت لها الفرصة بذلك.

سعادتي بوجود حياة تشبه عاهةً تخلق مع الإنسان، وتشبه هاجساً يشترك كلّ البشر فيه، كانت تشبه خوف الموت الذي مهما قطفت، وجمعت في أكياسك من الفرح لمواجهته يبقَ مختبئاً في أشدّ زوايا روحك خفاءً وظلمةً ليواجهك على غفلةٍ منكَ بوجوده في داخلك.

وهي تعلمُ كلَّ هذا إلّا أنها لم تكن تأبه بي أنا من كنتُ متشبثاً بها حتى الموت...

أسيرُ خلفها على طريق المدرسة وأذهب إلى بيتها لأكتبَ عنها واجباتها المدرسيّة، وأسرقُ مجسماتٍ صغيرة مما يصنعه عزيز ظناً مني أنني سأنال إعجابها، أكذبُ على أمي وأمها وعليها وعلى الناس جميعاً، وكلّ ذلك لأجل أن أبقى معها، لكنّها تختارلي أنواعاً من العذاب تشبه حواجز القفز كلّما نجحتُ في تخطي واحدٍ، زادت من ارتفاع الذي يليه أما أنا فأحتمل و أزداد تعلقاً بها فأبتعدُ عن رفاقي وألاحقها.

سمعتُ (عزيز) في أحد الأيام يتحدثُ مع أصدقائه عن الكهوف الموجودة في القرية، وعن محاولات التنقيب عن الآثار التي يفكرون في القيام بها، فقريتنا مليئةٌ بالكهوف والمقابر التي كانت تُحفَرُ على شكلِ غُرَفٍ تحت الأرض، ويقال إنَّ القدماء كانوا يدفنون مجوهرات الموتى مع الجثث نفسها داخل التوابيت، وسمعنا كثيراً عن أناسٍ أصبحوا أغنياء وغادروا القرية بعد ذلك حاملين معهم أموالاً لا تأكلها النيران لذلك قررَّ عزيز أن يذهب مع أحدِ أصدقائِهِ لينقبا عن الذهب في المغاور، أمّا أنا فقررتُ أن أمارس تلك الدهشة برفقة حياة، لن أقول لبرهان على الرغم من أنّ والده بخيلٌ جداً وعلى الرغم من حاجته الماسة للنقود، قررت الذهاب مع حياة، وإن وجدتُ أحدَ الكنوز سأتقاسمه وبرهان وشاهر لأننا أصبحنا أصدقاء الآن وبعدَ أن كبرنا وأصبحنا شباناً، يتوجبُ عليَّ أن أثبت لهم أنني أتعاملُ برجولة لأنّ الرجل لا يخون أصدقاءه، وإذا كنتُ أحب رفقة حياة أكثر من أيّ شيء آخر في هذا العالم، فهذا لا يعني أنني سأحرم رفاقي من حقهم.

ذهبتُ إليها مبتهجاً.

- حياة هل تذهبين معي إلى المغارة؟

كانت جالسة على الأرض خلف طاولةٍ منخفضة، تنظرُ في أحد كتبها، وقد انسكبت جديلتها إلى الأمام. رفعت رأسها ببطء، فامتلأت عيناي ببريق عينيها.

- أجل أذهب.

ورمت دفاترها وبعض الأوراق خلفها فتناثرت الأوراق على شكل ذراتٍ من الضوء بقيت تحوم فوق رأسِ حياة طيلة ذلك النهار, كانت تركضُ أمامي بسرعةٍ، تريد الوصول إلى المغارة، أما أنا ألاحقُ الضوءَ الذي ملأ عيني وأنساني لهاثي والعطش الذي شعرت به.

- حياة انتظري أنا متعب... هل لديك ماء؟

- وأنتَ معي لا تقل إنك متعب... خذ إليك ماء.

كان الماءُ منعشاً بدأ يملأ عروقي بسرعة وأنا أشربه التقط أنفي رائحة الزيت والزعتر، كانت حياة تأكلُ « عروسة زعتر»:

- ألم تحسبي حسابي يا حياة؟

- أجل، إليكَ واحدة.

وأنا أمضغ الخبز المتبل بالزيت والزعتر شعرتُ بلذةٍ غريبةٍ لم أستطع تحديدها، ربما كانت ناتجة عن امتزاج الريق بهذه النكهات من الحبوب المختلفةِ الطعم والمحمصة بعناية ومقدار الملح المناسب مع السمّاق، وفكرت للحظة تُرى من اكتشف الزعتر؟

كانت تخطر في بالي هذه الأسئلة دوماً فيما يتعلق بالطعام، فعندما أشعر بلذته أفكرُ في الشخص الذي استطاع اكتشاف تلك اللذة لأوّل مرة، تُرى كيف كان ليشعر؟

- أغلبُ الاكتشافات المتعلقة بالأطعمة عبارة عن مصادفات.

- إييه حياة... ماهي المصادفة التي تجعل شخصاً يحمص القمح والحمص، والذرة،.....

ويضع فوقها أنواعاً من البهارات ثم يطحنها وبعدَ ذلك يدهن الخبز بالزيت وينثرها فوقه... أظنّ أنّ الزعتر كان نتيجة بحث وتجارب.

- حتى البحث والتجربة لا تعدو عن كونها مصادفات.

- كيف ذلك؟

- لا أعرف؟ أحاول فقط أن أجادلكَ

- آه.... حياة.

وتابعت الركض في الأرض المنبسطة، كان الهواءُ بارداً، لكني أشعرُ بحرارةٍ في وجهي، فاستمتعتُ بالركض إلى أن بدأ العرق يبلل ثيابي.

شعرتُ أن جسدي ثقيلٌ منهك، فهبطتُ على الأرض، واستلقيتُ على الزرع الذي يعاندُ البرد وينبت. شمسُ شباط ساطعةَ الضياء إلّا أنّ أشعتها تبدو مغسولة من الدفء، استلقيتُ لأشعر بالخدر يمر من ظهري ليستقرَّ برؤوس أصابعي، شعرتُ بعجزٍ عن الحركة، فصمتُ وأخذتُ أتأملُ السماء، شعرت للحظةٍ أنَّ السماء اقتربت مني كثيراً وكأنها لحافٌ أزرق بدأ يغطيني ويلفني ليخرجَ مني كلَّ هذا البرد، بدأت نعومة الزرقة تلامسُ وجهي، فأشعر بغبطةٍ لأغمض عيني، وأترك لجسدي حريّةَ الولوج بين السماء والعشب القصير المبلل بمطرٍ لا أعرف في أي وقتٍ قد يفاجئني، إلا أن المطر جاء ناعماً يتقطر من أصابع حياة التي بدأت تنقر بها فوق جبيني، فتحتُ عيني، وكانت زرقة السماء لا تزال طاغيةً في عينيها...

- ما بك استيقظ؟

- هل نمت؟!

- لا أعرف لكنكَ سقطت فجأةً وأغمضت عينيك.

أمسكت يدي وبدأت تجرني وأنا أحاول أن أجرّر أطرافي التي أصبحت رخوةً وثقيلةً كعباءةٍ مبللةٍ.

كانت تعرف طريق المغارة فانطلقت أمامي تُزيلُ الصخور لتفتح المدخل، وعند دخولي إلى هناك وجدتُ حياة واقفةً في منتصف المغارة ساكنة تماماً. الرائحة لطيفة في الداخل، خليطٌ لموادٍ عضوية وكلس وتراب.

امتزجت تلك العناصر بجوّ الرطوبة والظلام لينتج ذلك العطر المميز الذي يشبه رائحة بشرتها وشعرها، رائحةٌ تنتج اللّذة، تُشعرُك برغبةٍ في استراق الأنفاس أكثر فأكثر ليمتلئ رأسك لذة، تشعرُ برغبةٍ في احتكار الهواء وتجميعه في حاستكَ لتتلذذَ قدرَ المستطاع.

نظرتُ إليها.... إلى صمتها وسكونها إلّا أنها لم تتحرك، بدت كدميةٍ

في فاترينة بجديلتها الطويلتين بلونهما البرتقالي، ومعطفها المصنوع من الفرو الناعم، وسروالها الجوخ وحذائها الأحمر اللامع، بدأتُ أقترب، وأقتربُ شيئاً فشيئاً، وأكثر فأكثر إلى أن لامس جسدي جسدها، إلّا أنها لم تبدِ حراكاً، ظننتُ أنها سترتبك وتتراجع إلّا أنها بقيت مكانها محدقةً إلي، وكأنني أقفُ على بعد مسافةٍ منها، أمّا أنا فبدأتْ أنفاسي تتسارع كلّما التصقتُ بها أكثر.

- أنا حزينةٌ.

- لماذا؟

- أمي نسيتني منذ زمن.

- منذ متى؟

- منذ أن ولدت رامي.

بدأت تبكي وألقت برأسها على صدري المضرب وقالت:

- قبلني.

كان ذلك أصعب ما يمكن أن أفعله في ذلك الوقت، إذ إنني لم أفكر في هذه الفكرة من قبل، كنتُ أشاهد القبلات في الأفلام العربية، لا أنكر أنني كنتُ أشعر بلذّةٍ في جسدي، لكنّ تلك اللذة تبدو غريبة علي، وكأنني أشاهد فيلماً بلغةٍ أجنبية أستطيع فهم بعضٍ منه، لكن تعوزني الترجمة بدقة.

قبلتها على وجنتها وابتعدتُ خطوةً للوراء، ظناً أنَّني أنهيت المعركة بأقلِّ الخسائر إلّا أنها حاصرتني بنظراتها، وكأنها تريدُ أن تقول: يا لخيبة الأمل!

فاستجمعتُ نفسي التي تبعثرت لدقائق وعدت إليها وكلّي عزيمة اقتربت منها وهبطتُ بسرعةٍ وأطبقتُ على شفتيها، حاولت مضغهما بلطف، حاولت أن أشعر بطعمهما الذي يشبه سقوط المطر الأوّل على وجهك بعدَ صيفٍ جاف.

- هل أصبحتُ عاهرةً الآن؟

- حياة... أرجوكِ!

- سمعتُ أمي تتحدث عن العاهرات، وقالت بأنهن يمارسن البذاءة مع أشخاصٍ ليسوا أزواجهن.

- حياة حيااااة أرجوكِ توقفي لا تكملي :

- لا... لم أكن أريدُ أن أصبح عاهرة.

- لم تصبحي عاهرة، لن أخبر أحداً اطمئني.

- هل سيكرهني جفن لو عرف بفعلتي؟

- جفن يكرهكِ دون أن تفعلي شيئاً... هه!

خرجتْ من المغارة وتركتني واقفاً هناك لا أعرف ماذا أفعل، وأنا هنا في مغارة تائه بين طفولتي التي هربت مني، وشباب لم أستطع الإمساك به بعد.

نظرتُ حولي في جدران الكهف، حاولتُ أن أجد أثراً ما، كتابة أو ما شابه، تدّل على إنسان مرَّهنا من قبل إلّا أن الظلمة كانت تعمُّ المكان، وبدأتُ أشعر بثقلِ الهواء، شعرتُ بالخيبة،

إذ على ما يبدو لست بارعاً في التنقيب على الكنوز، وربما لستُ بارعاً في القبلِ أيضاً.

- كيف تقول ذلك! لقد قبلتها للتو.

- لكنها لم تقل شيئاً.

- أجل لم تقل إن القبلة لم تعجبها.

- لكنها ستحاول الانتحار من جديد، ويستحيل عليَّ اللحاق بها الآن، وأنا على هذه الحال من التعب والاضطراب، حاولتُ جاهداً أن أسرع، لكن على ما يبدو أنني تأخرت إذ وجدتها معلقةً بحبلٍ مربوطٍ بشجرة التوت الضخمة، شعرتُ برعبٍ جعلني أطير إليها، لم أعد أشعر بقدمي شعرتُ أنني غدوتُ قطعةً من جليد تصهرها نارٌحارقةٌ، اقتربتُ من جسدها المتدلي، كانت قدماها تتحركان ببطءٍ على شكل نبضات متعبة تتحركان ثم تسكنان، ويداها على الحبل تحاولان نزعهُ عن رقبتها؛ ركضتُ

بسرعة، واقتربت منها لأسمع صفير أنفاسها حملتها بين ذراعي، ورفعتها للأعلى بيدٍ، وحاولتُ حلَّ الحبل عن رقبتها باليدِ الأخرى، لم أعرف إن كنتُ استطعتُ فعل ذلك أم لا، لكنني وجدتُ نفسي بعد ذلك في مشفى المدينة هامداً، وأشعرُ بثقلِ جسدي، وضوء قوي يحجب عني الرؤية إلّا أنني سمعتُ صوتَ أمي ونحيبها، وبعد ذلك قالت: الحمد لله لقد تحرّك.... إنّه يستيقظ.

القرية ٢٠١٢

كان عزيز يتفقّد الكروم كلَّ صباح، وبقي فترةً يعملُ بمفرده يخرجُ صباحاً، ولا يعود إلّا ليلاً لكن الغريب على عزيز أنّه أصبحَ يخرج، وبيده كتابٌ ما، حين يعود في الصباح التالي غالباً ما يحضر كتاباً جديداً، يديرُ الماء ويطالع بعض الصفحات، وهكذا.

سنوات السجن الطويلة والوقت الفارغ حتّى من انتظار، جعلاه يفكرُ مليّاً، فبعد أن سمع الحكم، شعر أن شيئاً ما في داخله يُرْدَم، نوعٌ من الكبرياء الذي يرافق الشباب، نوعٌ من الرفض والتشبث بالرأي دون قناعةٍ راسخةٍ ومحدّدة، لذلك قرر أن يعرف خبايا الحياة وهو محجوبٌ عنها وراء جدرانٍ تحجب الشمس ورائحة التراب التي يعشقها، وتذكر أنّ يحيى كان يتحدث عن عالمٍ جميلٍ تأخذه إليه كتبه، وأنّه قد يتخلى عن أي شيء لكنّهُ لا يفرّط في كتبه أبداً.

بقيت كلماتُ يحيى تحفرُ نفسها داخل رأسه الذي بقي صاحياً لأيامٍ ولياليٍ، تتنازعُ فيه الأفكار والصور والكوابيس. في الأسابيع الأولى صارَ يصحو على أصوات صراخٍ ونحيب، وتخرج أشباح لأناسٍ يعرفهم وآخرين لا يعرفهم، تخرجُ وتتمطط أمام عينيه وتقتربُ وتبتعد لتقرّب أفواهها الكبيرة وتقضم بعضاً من وجهه، وبعدَ ذلك يستيقظُ منهكاً، وعلى غير إرادةٍ منه تسيل دموعه حُرةً، لكن يغطيها الظلام.

وفي أحد الصباحات خرجَ إلى المكتبةِ، وبدأ يطالع العناوين، وبعد وقتٍ من النظر والشرود اختار أن يبدأ القراءة من زاويةٍ في الأعلى أقصى اليمين، تتخصص في الدراسات الجغرافيّة، قررَّ ذلك لأنّه كان متعلقاً جداً بالأرض، وفكرَّ أنّه من الأفضل أن يعرف عنها أكثر، ومنذ ذلك اليوم بدأت علاقته مع القراءة.

أمّا سكانُ القرية فقد ابتعدوا عنه تماماً، ربمّا ليس لسببٍ محدّدٍ سوى أنهم قد نسوا وجوده، ذلك أنَّ الحرب كانت تبدأ عامها الثاني

وتزحف من الأرياف متجهةً إلى المدن بسرعةٍ وضراوة، أمّا تلك القرية لا تزال على حالها ما عدا بعض التطورات الطبيعية فقد وضع السكان على مداخل القرية حواجز لحمايتها، وكانوا يتناوبون السهر عند الحواجز ظانين أنهم يستطيعون الوقوف في وجه سيل الحمم الذي قد يتدفق حارقاً إياهم في أيّ وقت، وربمّا في وضحِ النهار.

فالعين لا تقاوم المخرز و هم كانوا رجالاً – والحق يقال – لكنّهم رجالٌ عُزَّل تقريباً، فالأسلحة التي بحوزتهم مجرد أسلحةٍ تقليديةٍ لن تقف في وجه أكثر أنواع الأسلحةِ تطوراً والتي بدأت المحطاتُ الفضائية الحديثَ عنها بالتفصيل الممل.

إلّا أنَّ (عزيز) كان مشغولاً بأمرٍ آخر تماماً، فعلى الرغم من اهتمامه بالقراءة، إلّا أنه كان منهمكاً بمشكلةِ الأرض التي بدت له في البداية أنها على حالها، غير أنَّ حالها تدهور كثيراً فالتربةُ بدأت تتملّحُ، والمياه في الآبار أخذت تجف، وما من حلٍّ سوى البحث عن طرق سقاية جديدة، وعن زراعة محاصيل مقاومة للتملّح، وعندما حدّد الهدف، وضع خطّة، وبدأ يسير عليها، وبدأت الأرض تستجيب لحبّهِ لها فقد كان هائماً في حبها تماماً، غدت هي والكتب عائلتهُ.

ها هو اليوم، وقد نضج موسم البطاطا، تذكر عزيز شخصاً كان والده يستأجره وحصانه لقطع البطاطا. إنهُ أسعد ذلك الشاب الذي يشبهه حصانه إلى حدٍّ بعيد، كان والحصان متفاهمين تماماً، يتناقشان ويتجادلان، ويتخاصمان أيضاً، كان هزيلاً أشعث كحصانه التي برزت معظم عظامه، حتى ليكادُ المرء يظن أنّهُ جثة متحركة، لكن أنّى لعزيز بعد كلِّ هذه السنوات التي مضت أن يجد « أسعد»؟ لم يكن عزيز قد نسي أيّ بيتٍ من بيوت القرية القديمة، لكن هنالك منازلٌ جديدة فقد تزوج الشبان، وبنوا بيوتاً، وأنجبوا أطفالاً، وفي الحقيقة كان عزيز يتحرّج من أن يطرق الباب الخطأ، لكنّه قرر أن يذهب، ومهما كانت العواقب.

تجوَّل بين المنازل، وبدأت قدماه تتحسس الطرقات والذاكرة

تلامس ما اختبأ فيها من حكايا...

هناك تحت شجرة التين الأسود التقيا في أوّل موعدِ حب، بعد أن كتبت له عدّةَ رسائل، لم يعرف عزيز لمَ لم يستطع الرفض ربمّا كان جمالها آسراً لدرجةٍ أفقدته القدرة على اتخاذ القرار الصائب، أو ربما كان السبب قدرتها على مغازلته بجرأة بعيداً عن الخجل وقوانين العيب والحرام، كانت تغازل جسده المتناسق بأصابعها وشفتيها وهو لا يزال شاباً جديداً على مثل هذه التجارب، ولم يكن يعرف حينها أنّ هذه التجربة ستكون تجربته الأولى والأخيرة.

استيقظ من تأملاته ليجد نفسه أمام بيت أسعد الذي لا يزال كما كان لكن كلّ ما حولهِ قد تغير، طرق على الباب المنخفض ففتحت نافذةٌ صغيرةٌ وسط الباب، وخرجَ رأسٌ أشعث بشعرٍ أبيض مستفهماً:

- من؟

- أنا عزيز يا أسعد.

- من عزيز؟

و حكَّ شعره بيدهِ السمراء الجافة المتشققة، ثمَّ استدركَ بعد قليل.....

- عزيز... عزيز ما غيرو؟

- أجل... عزيز ما غيرو.

أهلاً وسهلاً، حمداً لله على سلامتك... متى خرجت من السجن؟

- منذ فترة... المهم.... أريدُ أن تذهب معي لقلعِ البطاطا... ألا زلتَ تعمل؟

- بلى... لعيونك يا عزيز.

دخلَ أسعد منزلهُ وخرج بعد أن لبسَ رداءه القديم الذي عهده به عزيز. استغرب أن يكون ذلك الرداء لا يزال حيّاً بعد كلّ تلك السنين، إلّا أنّه ما لبث أن أزال الفكرة من رأسه، إذ لا بدّ أن أسعد يتصرّف بالطريقة نفسها، ويكرر شراء نوعية وقصّات الثياب نفسها، فهو لا يزال يخطئ

فيتحدّثُ إلى حصانه بدلاً من أن يتحدث مع الشخص الذي يرافقه، وهذه كانت عادته منذ زمن.

سار الثلاثة بمحاذاة بعضهم... عزيز وأسعد و الحصان، وأخذ أسعد يحدِّثُ الحصان، ويشجعهُ على العمل بنشاط، لأنه لو عمل بجد سيطعمه قطعاً من الحلويات يحبّها ذلك الحصان، لكنّ الغريب في الأمر أن الحصان كان يستجيب لكلامه، ويظهر همهمات تبدو كردٍّ على حديثِ أسعد الذي لا ينقطع.

لقد عرف عزيز أناساً كُثراً في القرية، وخارجها، لكن لم يعرف إنساناً كأسعد يتعامل مع حيوانٍ على هذا القدر من الإنسانية، وعلى هذا القدر من الصداقة، فلم تكن نبرةُ صوت أسعد

ترتفع عندما يخذله حصانه، وإنما كان صوته خافتاً، يقترب من الحصان ويتكلّم ويناقشهُ بهدوء والحصان يستمع، وبعدَ ذلك يتصرّف بشكلٍ صحيح.

بعد أن أنهوا عملهم بعدَ أذان المغربِ من ذلك اليوم... أخرج أسعد من كيسٍ كان يحملهُ، قطعاً من الحلويات، وأطعمها للحصان الذي بدا سعيداً بذلك.

ابتسم عزيز، و عادَ إلى البيت ليسهر برفقةِ أحد الكتب، وبعض من الذكريات كان قد نسي أنّه قرر أن ينساها، فالسنين التي قضاها في السجن جعلت منهُ رجلاً هادئاً عقلانيّاً، إذ حاول خلال تلك الأعوام أن يتقبّل حكم القدر بأقلِ ما يمكن من الألم.

على كلِّ حال ما عادت القرية كما كانت عليه في السابق فالكثير من الصور اقتلعت من ذاكرة الطرقات والجدران، القرية كلها بدت مختلفة، بمن فيها، حتى ملابسهم، أصبحت ضمن خطوط الموضة... حتى إنَّ زيَّ طلاب المدارس تغيّرَ من العسكري، إلى زيٍّ رمادي ليس له دلالة.

فبدت الغربة جليةً أمام عينيه وفي داخله، انزوى في رحابةِ أرضه، وراح يدفنُ حُزنه تحت الأشجار ويذرف دموعه في السواقي علّهُ يسلو ما

كان.

وكان الوقت عصراً يوم التقى بجفن. في البداية لم يستطع أن يميّزه، لقد صارَ رجلاً ناضجاً، لكنّهُ استطاع أن يخمّن هويته بسبب ملامحه الأجنبية، فكرَّ عزيز في أن يهرع، ويسلّم عليه، شعر أن في داخله حنيناً لتلك الأيام التي كان فيها جفن يلعبُ في دارهم بالقرب من المدجنة ٬ إلّا أن نظرات جفن استطاعت أن تلجم الحنين، وتعيد ما كان من ذكرى أليمةٍ بينهما فعندما رأى جفن ابتسامةَ عزيز الحانية أخرج مسدساً كان مثبتاً على خصره وصوّب إلى رأس عزيز الذي بقي واقفاً مكانه وشعرَ أنّ دمهُ قد هرب متدفقاً إلى قدميه فقط، أمّا جفن بقي واقفاً كذلك لعدة دقائق شعرَ خلالها أنّه فتح مدينةً بعد حصار، ثم مسح بيده على شاربيه ولحيته الطويلة الشقراء، أعادَ المسدس إلى مكانه، وسارَ في طريقه، وكأن شيئاً لم يكن.

وتساءل عزيز: تُرى أين المرأة الروسيّة أمُّ جفن؟ وما الذي حلَّ بهذه العائلة؟ وما الذي يفعله جفن بهذا المسدّس؟ ربما أصبح عسكريّاً، لكن لا يبدو ذلك على هيئته.... ربما هي الموضة أيضاً، فقد لاحظ عزيز أن غالبية الشبان والرجال يطلقون لحاهم وشواربهم بشكلٍ عبثي.

حاول عزيز أن يترك التفكير بأمر جفن وعائلته وأن يترك القرية وشأنها، هذه القرية التي كان أهله يعيشون، وكأنهم في بيتٍ واحدٍ، يسهرون معاً ويأكلون معاً ويخرجون للحصاد برفقة الأولاد والزوجات معاً، ما كان شيء ليفرقهم، إلّا أنها الشهوات الخبيثة، والمكائد التي يحوكها البشر مع قليلٍ من الحظّ العاثر للمحبّة هي التي تجعل من الكراهية والحقد حالةً عامة. صمتَ عزيز قليلاً ليفرز أفكاره وتساءل:

- تُرى هل كرهتُ أحداً في يوم؟

- لا أذكر ذلك.

ربما شعرتُ بالغيرة أجل لم أشعر بها فقط وإنما احترقت... كنتُ يافعاً في ذلك الوقت، لم أكن أعي من الحياة ما يدور خارج جسدي

ورغباتي، كان يكفي أن أسمع صوتها ينادي باسمي لأشعر أنني قادرٌ على صنع المعجزات، كان يكفي أن تنام على صدري بعد رعشتها لأعرف أنني ملّكت العالم برحابته....

كلُّ ذلك لم يره أحدٌ في داخل عزيز، ما رآه الناس مجرَّد قاتلٍ حقود فرّق العشاق والمحبين.

السعودية ٢٠١٣

عندما وصلتُ إلى مكتبي هذا الصباح، وكان برهان قد سبقني إلى هناك، إذ وجدته جالساً خلف طاولته، وضع يده على خدّهِ وبدت على ملامحه أماراتُ الاستياء، نظرتُ إليه مستفهماً، فردَّ عليَّ بأن رفع كتفيه وأنزلهما مع انطباعاتِ ملامح تقول : ما باليد حيلة.

- ماذا هناك يا برهان؟.... ما الذي حدث؟

- من اليوم فصاعداً سنتقاضى نصف رواتبنا.

- لماذا؟

- لأننا سوريون (ببساطة) وعلينا أن نتقبل الأمر، وكأن شيئاً لم يكن.

جلستُ على الكرسي شاردَ الذهن، تائهاً فيما يحدث، في المناظر التي أشاهدها كلَّ يومٍ على شاشات التلفزة... في البشر تلفظهم مياه البحار التي التجؤوا إليها مرغمين، في الأطفال، والنساء، في خوفهم في الذعر يتربص بنومهم وصار مكانه على الأرصفة، وتحت الجسور.... إلى أين تذهبُ الحياة بسورية وأهلها، لم يكن المال يعنيني وأنا أعملُ في هذا البلد الذي لم يعرف يوماً أن يقْتلَ غربتي بل كان يحاول أن ينبشها كلَّ يوم، كان يحاول أن يتشفى بها وأن يستعرضها عاريةً أمام مجموعةٍ من أصدقائه، فيبادلهم الأنخاب، والرهانات على هزيمةِ شعبٍ ينادونه بالشقيق... ما كان يؤلمني بشدّة هو وضوح الخيبة بمعشرِ البشر، وبكلِّ المقدساتِ، والمسلماتِ، خيبة الأمل بما تربينا عليه من محبة.

كنتُ مستغرباً ومصدوماً... كيف لشعوبٍ دينها المحبّة والسلام أن تقتل وتكره وتسلّب باسم ذلك الدين، وكيف لها أن تترك إخوتها في الدين يرتمون على شواطئ أوروبا هاربين من ظلم إخوتهم لهم ونحن هنا الآن كسوريين في السعودية، ما الذي نستطيعُ فعله أمام ما يقع علينا من ظلم؟

- لا شيء، سنصمت كما صمت العالم ويصمت على الخراب الذي يحدث في بلدي... سنصمت على ألمنا، فالصراخ والعويل لن يفيدنا، بل لن يزيدهم سوى شماتة... لكن ما عاد الخوف من الشماتة أحَدَ محركات السلوك، وما عاد الحياءُ من ارتكاب الخطأ مجدياً، ما عاد الصراخ ولا العويلُ مفيداً للتعبير عن ألم هذا الشعب.

كان لا بد لهُ من وسيلةٍ أخرى للتعبير، وإلى أن يجدها عليه أن يقاتل، لكن يقاتِلَ من؟

ربما يقاتل بعضه أو يقاتل نفسه، أو يقاتل الموتَ ذاتَهُ إلى أن يموت أحدهما.

رفعت عينين قد استقرتا على خشب الطاولةِ، وسرحتا في أقصى الذرات لأرى برهان ما يزال على جلسته، وكأن قدرتهُ على إزعاجي تلاشت، كان لا يوفر فرصةً للعبث معي، لدرجةِ أنّ مشاكساتي أصبحت عادةً لدى كلينا، فعندما وجدتهُ صامتاً نظرتُ إليه أن : أنا أنتظر... إلّا أنّهُ لم يبدِ حراكاً بل بدا لي وكأنّه جثة تنتظر الإجراء التالي، لذلك عدتُ لأناكِدَ نفسي وأؤلمها بحديثي معها عسى أن نصل إلى حل، وأثناء معابثتي لأسئلتي ومعابثتها لي، قفزَ سؤالٌ من صمتي إلى العلن :

- لماذا تريدُ الراتب كلّهُ؟

تحرك برهان بسرعة واعتدل في جلسته وقال :

- لأن نصف الراتب لا يكفيني.

- وماذا لو كن يكفيك ويزيد، ماذا كنت ستفعلُ بالزيادة؟

- مهما زاد لن يكفيني... سأجدُ ما أشتريهِ به.

عدتُ لإطراقتي وبدأ صوتُ برهان يغيب عن سمعي شيئاً فشيئاً.... ماذا يجب أن نفعل الآن؟

قلي :..... أجبني.... نصفُ الراتب لن يكفي عائلتي ولديَّ أبٌ عاجزٌ وأمٌ مريضة....

فكرتُ ملياً في أصحاب المالِ والنفوذ، لكن ما استطاع عقلي أن

يصل عمق مآربهم.

تُرى... ما الذي يريدونه من الحياة؟، ربما كلّ شيء، وإن كان كلّ شيء زائل، فلماذا هذا اللهاث وراء جمع المال، ما الذي قد يستطيعون شراءه بأموالٍ لا تحصى؟

- آه يا رجل.... آه لو تعرف كم كان ينقصني من المال عندما كان الراتب كاملاً... زوجتي تبيعُ الخبزلسدِّ بعض النفقات، و.....

هل يسعون لشراء الأوطان، والسلطة، وهل يستطيعون سدّ نفقات الموت الذي استأجروه ليذهبَ بشعوبٍ أرادوا احتلال أرضها؟

وإن استطاعوا ذلك، فإلى متى؟ فالأبدُ غايةٌ لا تدرك.

- بالبلد كل واحد ملتهي بحالو... هاد يلي سافر ,... وهاد يلي منكوب، وهاد يلي خايف....

فكرتُ في العائلاتِ المتنفذة في سورية، والتي تعملُ تحت شعاراتٍ دينية، وتفتحُ المدارس لترسيخ أعمدة الدين، وتقويم اعوجاج التدين، وتذكرتُ أنّ الأديان كلها تدعو للمحبة والسلام، ومن الأفضل ترسيخها وتقويتها في النفوس، لكن لماذا دائماً يتخذ الناس من الأديان ذرائعَ للكراهية والحروب؟!....

ربمّا المشكلةُ في السُبلِ وليست في النتائج.

تُرى.... ما مدى جودة الإنسانية في قلوب الأجيال المتخرجة من تلك المعاهد؟ وكم مدّة صلاحية المحبّة والتآخي التي دعاهم إليها دينهم، ولماذا لا نرى آثارهم في مجتمعنا وبالأخص في سورية، خلال هذه الأزمة، هل لوثت إنسانيتهم الشهوات؟

لستُ متأكداً من ذلك إلّا أنّ ما يبدو أمامي هو أنَّ النساء يعلمن أفضل طرق لوضع الحجاب، وستر العورات، وتعلّم الرجال والنساء طرق الصلاة الصحيحة، وفرّقوا بين الحلال والحرام..... لكنهم بالتأكيد لم يتعلموا طرقاً لدفع لعنة اللجوء عن أبناء وطنهم.... عن أشقائهم الذين هتكت لحمهم الشواطئ الغريبة....

ما المشكلة؟.... لا أدري ما المشكلة.... إذ لا أجد ضيراً في ممارسة طقوس الدين واحترامها، بل وتقديسها، لكن من جميع جوانبها.....

تُرى كيف أصبحت العائلات المتنفذة متنفذة؟... أعتقد أن الوسيلة هي المال، المال الذي يفوق حاجة إنسانٍ بسيط، لكن ماذا سيفعلون بكلِّ هذا المال؟ هل سيجمعون الكنوز والأموال والتبرعات لبناء دورِ العبادة؟

والإنسانُ البسيط يعيش في بيوتٍ من صفيح، الإنسان البسيط يمارسُ الرذيلة أمام عدسات المصورين ليؤَمِنَ لقمة عيش، أمّا الذهب والأحجار الكريمة تبقى كريمة، وتسكنُ قصراً مسوّراً...

- ما الذي سيحدث لأفراد عائلتي؟ والله سينهشهم الجوع.... وسيعيشون كالكلاب... يا رجل، أجار البيت وحدَهُ يأخذُ نصف الراتب... أنت تعلم يا صديقي، فعلى الرغم من بخل أبي، لم يترك لي شيئاً... ألا تذكر... كنّا نعمل أجراء في أراضي أهل القرية، وليسَ لديَّ الآن سوى الشهادة التي أعمل بها.

كم من الناس في هذا البلد يعوزهم النظر، ربمّا عمي الوطن كلّهُ، فهم لا يرون فِعلَ الصهاينة بنفوذ المال، فعائلةُ روتشيلد وحدها تعملُ لصالح قوميتها، لأجل دولةِ إسرائيل بمن فيها، تشتري السلاح، والسلطة، تشتري رؤساء الدولِ الكبرى، تدفع ثمن الكراسي، تختارُلها دمىً تجلسُ عليها، إلى أن أصبحت تتحكم في العالم، وما يحدث... يحدث لأنها تريد، والذي تريدهُ لبناءِ دور العبادة الفخمة من مساجدِ وكنائس مذَهَبَة، وما زلنا نختلفُ حول صحّةِ طرق العبادة، نتقاتلُ أينا أفضل...

دون أن نعلم أن معركتنا الحقيقيّة مع أنفسنا، وفي دواخلنا، وليست مع إخواننا...

- والله الحياة في هذا الوطن ما عادت تُطاق.... انظر إليّ يا رجل لماذا أنتَ شاردٌ هكذا؟.... هيه هيه.... وأخذ يمرر يده أمام عيني إلّا أنني بقيتُ سارحاً، ولا تزالُ صورٌ لنازحين ماتوا برداً وجوعاً تدقُّ مساميرها في

ألمي... صورٌ لبشرٍ يشربون ماء المجارير، وتكرشهم البلدان الشقيقة من بلدٍ إلى آخر، كما لو أنهم قطعانٌ لا فائدة منها. قطعانٌ فسد لحمها (فما عاد صالحاً للنهش)! فقررت دولُ أوروبا أن تستثمرهم على أنهم سمادٌ عضويٌّ لأرضها... هناك في تلك البلدان يعرفون قيمة الأرض، يعترفون بقيمة أرضنا أكثر منا... أرضنا لم تلفظنا، لكن هناك من لوّثَ المادة الأولية التي أنتجتنا... وإلى أن نكتشفه علينا البحثُ عن هدفِ الوجود، لكن هل من جدوى؟

فاللهاثُ خلفَ المال يجعَلُ من كلّ ما عداه مجرّد حصى ندوسُ عليها حتى نصل، قد نتألم قليلاً، قد تخزنا الإنسانية في داخلنا، لكننا ننتزعها وندوس.

- أليسَ كذلك يا حياة؟

رميتُ كلَّ تساؤلاتي في جعبتها على (الواتس أب)، وصمتُّ.... صمتُ حتى بيني، وبين نفسي، فقد كنتُ أريد أن أبكي مجدداً، وأن أقول لها: أحبُّكِ يا حياة أحبّكِ، لكن كيف أستطيع أن أحبَّ حياة، وأنا محاطٌ بكلّ هذا الموت؟!

كان برهان لا يزالُ مصراً على الحديث الذي أغلقتهُ، بيني وبين نفسي إلّا أن صوته المستفز بدأ يزعجني، وأخذتُ أضيقُ ذرعاً بتدخينه وسعالهِ المستمرين، فهممتُ بالخروج من المكتب متصنعاً أنني تلقيتُ اتصالاً مهمّاً، لكنني قلتُ لهُ وأنا واقفٌ في الباب، مديراً ظهري للداخل، وإحدى قدمي أصبحت في الممر:

- من اليوم فصاعداً نصفُ راتبي سيذهبُ لعائلتك يا برهان.

- ماذا تقول؟!...لا لا أقبل.

- لم أطلب منك أن تقبل... هذا سيحدث وانتهى الأمر. أنت لا تفرق عن أخي عزيز. لا تنسَ أننا من قريةٍ واحدةٍ، ومن ترابٍ واحدٍ يا برهان... أرجوك لا تنس ذلك يوماً.

القرية ١٩٩٠

عدتُ من المدرسة مرهقاً بعدَ أنّ تبعتُ حياة إلى منزلها لأطمئن على وصولها هناك، ولأضمن عَدَمَ قيامها بحماقةٍ ما، ففي الخريف رمت نفسها في خزان الماء العميق فوقَ التلّة ظانّةً أنّ جفن سيلتفت لها محاولاً إنقاذها، غير أنّهُ بقي شارداً في الساقية التي تجري لتسقي مساكب الباذنجان، وقد امتلأت المسكبة وما زال واقفاً كالأهبل ينظرُ إليها، فأنّى له أن ينتبه إليكِ يا حياة؟!

قلت لها ذلك عندما انتشلتها، قد بدأت تبتلع الماءَ وتغيب داخل الخزان، لكنني عندما ضغطت صدرها محاولاً إخراج الماءِ معه، تفاجأت أنَّ بعضاً من فراشاتٍ بدأت تخرجُ من فمها غير مبللةٍ ولا مبالية بالماء، وأخذت تطيرُ فوقَ رأسينا ثمَّ غابت في الأفق الشفقي...

أمّا حياة، فقد فتحت عينيها ليظهر لونٌ يضاهي صفاء السماء زرقةً:

- لقد خبأتُ الفراشات من أجله
- وهل يحبُّ الفراشات؟
- لستُ أدري... إلّا أنني أفعل كلَّ شيء من أجله.
- وأنا يا حياة؟
- وأنت...
- أنا ماذا؟
- أنت كل شيء.

واستلقت على الكلس الذي تجمّع حولَ خزان المياه لتفوح رائحة الحوارة المنعشة التي اختلطت برائحةِ حياة، فكانت النتيجة شذىً عميق الوصول.... هناك هناك في أقصى مكانٍ في النشوة حيث استطاع ملامستها لتستيقظ.

صحيح أنا كل شيء! صارَ الجواب أغنيةً على لساني أنشدها كلَّ

يومٍ عند خروجي من المنزل وعند عودتي، أنشدها في قلبي في حال اجتمعتُ بأصدقائي وأخبئها تحت وسادتي قبل أن أنام.

كانت أمي تحفر ثمار الكوسا والباذنجان وعندما رأتني نظرت إليّ بمودةٍ وقالت :

- سنودع المحاشي اليوم، هذا آخر الموسم.

على أساس أنها لم تجف الخضار المحفورة مسبقاً في الشمس من أجل أكلةِ المحاشي التي تعشقها، ويعشقها سكان القرية بمن فيهم ويقيمون المآدب، وأكلة الشرف هي « المحاشي ».

- أميّ ألا تلاحظين أن كرشكِ أصبح كبيراً أكثر من اللازم؟

قلتُ ذلك متخابثاً على غير عادتي، فقد لاحظتُ في الآونة الأخيرة أن أمي بدأت تهتم بالطعام أكثر من اهتمامها بأيّ شيء آخر، حتى أكثر من اهتمامها بأبي الذي بدوره أهمل كل شيء، وانصرف إلى قراءة كتب تعلّم الروسيّة من غير معلّم، ونسي أمرَ المدجنة والأرض منصرفاً إلى محاولة نطق بعض الكلمات بالروسيّة وسط سخط والدتي وابتسامات ميروشا عندما تأتي لتعطيني دروس اللغة الروسيّة، كنتُ ألمح في والدي رغبةً في الجلوس معنا ومناقشتها فيما استطاع تعلّمته، وفيما ساعدته عليه ثقافته الحسيرة، إلّا أنّه يتردد قليلاً، ثم يطرق الباب المفتوح... ويتراجع، ثم يحاول أن يسأل بالروسيّة إن كانت المعلّمة تحبَّ أن تشرب الشاي، إلّا أنه يتلعثم بلسانه ويتنحنح ويقول :

- هل تودين شرب الشاي يا حضرة المعلمة؟

- لا شكراً يا أبا عزيز....

بعد قليل يعودُ أدراجه، ويجلس تحت شجرة التوت الشامي، وقد وضع كرسيّاً قديماً من الخيزران وطاولةً من صنع يدي عزيز المبدعتين، ويبدأ النظر إلى الكتاب، وربمّا لم يكن ينظر في الكتاب، وإنمّا ينظر في انتظار حدثٍ ما....

خرجت المعلمة ميروشا بعد أن أنهت الدرس دونَ أن تتذوق

فنجان الشاي، خرجت هادئة قليلة الكلام كعادتها وودّعت أمي قائلةً : السلام عليكم يا أم عزيز.

وقفتُ أنظر مستغرباً إلى هذه المرأة التي ترتدي بنطلوناً وقميصاً فضفاضاً، وتترك شعرها الأشقر الطويل حرّاً يتطاير في الهواء دون أن تعلم أن بعض القلوب تطيروتهبط حسب حركاته، وتتعاملُ بدماثةٍ وسطَ هذا المجتمع الصغير الذي عرفت كيف تصنعُ لها وجوداً قسرياً حفرته في منتصف رفضه لها.

بعدَ أن أصبحت ميروشا معلّمة، أصبحت مثالاً يحتذى لدى الفتيات، فأصبحن يقلدنها في طريقة نطقها الرقيقة للحروف، وفي أسلوب لباسها البسيط، وأصبحن يصبغن شعورهنَّ الداكنة بالأشقر الفاتح. لكنَّ ميروشا كانت تبدو غير آبهةٍ بكلِّ ما يحدث من حولها، وربمّا أيضاً لم تنتبه لذلك، فقد كانت مشغولة بإعطاء الدروس، وتربيةِ أطفالها الثلاثة، والاهتمام بحسن ومستقبله، إذ إنَّ دراسته أخذت الكثير من الوقت والجهد، فقد أصبح اهتمامه بالعملِ قليلاً... مما جعلها تضاعف عدد الدروس التي تعطيها خصوصاً أن الإقبال على دروسها في ازديادٍ مستمر، كما اهتمام الناس بحضورها، وجفن يقضي معظم وقته مع أخويه، لحين عودةِ أمّه من العمل الذي يمقته، لكنّهُ لا يعرف لماذا يكره أن تعمل والدته هذا العمل مع أنه عمل محترم للغاية.

إلا أن جفن يحتفظُ في داخلهِ بتحفظٍ ما لهُ علاقة بالحدسِ أو ما شابه لم يستطع التخلصَ منه، ولم تستطع سعادتهُ بشراء ميروشا دراجةً هوائيةً له أن تنتزعَ ذلك التخوف من داخلهِ، فبقيَ متحفزاً منتظراً أن يصدقَ حدسهُ، وعندها.....

دخلَ والدي الغرفة بعدَ خروج المعلمة فيها، كانت عيناه زائغتين، وقد نسيَّ أن يخلع حذاءَهُ خارجاً، جلسَ على كرسيّ المعلمة الذي لا يزال دافئاً، ونظر بحزنٍ إلى كوب الشاي الذي لم تمسّهُ شفتاها، ولم تتذوق طعم القرفة التي حرصَ على أن يحفظ مقدارها مقابل كمية الشاي

بحيث تكون النكهة في أقصى لذتها. يجلسُ قليلاً من الوقت شارداً ثمَّ ينهضُ مسرعاً:

- يا أم عزيز.... يا أم عزيز.

- نعم.

تقولها أمي بتثاقل، وهي قادمةٌ من المطبخ، وبيدها عظمةٌ يتقطّر منها الماء بعدَ أن غسلتها استعداداً لوضعها تحت الخضار المحشية لحماً و أرزاً.

- أنا ذاهبٌ لبيت أبي يحيى.

- لا تتأخر.... تعالَ قبل أن يجهز الغداء.

- حسنٌ.

مسحَ شاربيه بيده وحكَّ أنفه الكبير ذا المسام الواسعة، وحاول أن يبتسم، لكنّهُ اكتفى باهتزازة بسيطةٍ لشاربيه، تنمُ عن شعوره بإحباطٍ، أودى به إلى الغثيان، فخرج مبتعداً عن رائحة المداجن والطبخ، وعن صوتِ أمي وعن كلّ شيء يتعلقُ، ولا يتعلّقُ بميروشا، لكنهُ لم يستطع أن يبتعد عن قلبه، وأن ينتزع قلبهُ ونبضاته التي تعلقت بها فذهبَ بهم إلى الحقول... في كرمِ العنب بقايا لبعض العناقيد والزنابير تحطُ عليها لتمتصَّ ما بداخل حباتِ العنب ثمَّ تطيرُ مبتعدةً، فكرَّ في أن يلاحق هذه الحشرات إلى أن يعرف وكرها، فيقضي عليها داخل وكرها بأن يضرم النار بقطعةِ قماشٍ صغيرة مغموسة بالنفط ويضعها داخلَ الوكر ثمَّ يغلقه بالطين، كعادتهِ - فقد كان يعتبر هذا العمل واحدة من أفضل الرياضات – إلّا أنه عدَل عن الفكرة، فليس لديه جلدٌ لذاك، مشى، مشى، ومشى، وجلس على كدرات التراب الأحمر التي تفتتت تحت ثقل جسدهِ الضخم إلّا أنه غير آبه بأيّ شيء في هذا اليوم، يستطيع أن يأكل التراب وقطعاً من مخلفات الدجاج مقابل أن تنظر إليه ميروشا بعينِ الإعجاب مرةً واحدةً إلّا أنَّ هذا لم يحدث.

لكنَّ ما حدث كان أكثر هولاً وأكثر قسوة من أكل التراب ومخلفات

الدجاج، كانَ فوق توقعات أبي عزيز....

كان يحيى يفكر أنَّ المرات التي التقى فيها سنا قليلةٌ جداً - إذا ما وضع الأحلام جانباً - لذلك قرر أن يذهب في إجازةٍ، ففي العطلة الصيفية الماضية، لم يستطع أن ينفرد بها، وكانت لقاءاتهما تتم تحت أنظار أفراد عائلتهما، بالإضافة إلى أنه كان منشغلاً في إرسال دعائم التنظيم (الشيوعي) الذي كان رُشِحَ لقيادته، وهذا العمل يتطلّب التزاماً، وحكمة، وتفرغاً إذ لم يكن لقصص القلب والعواطف مكانٌ هناك، لكنّه لا يلبث يشعر بالشوق لها، لرؤيتها، لوداعها، لقبلتها على الخد، على الشفتين، للمسةِ يده لخصرها، لنهدها، لوركها، فيشتعل، وينطفئ، ويفرغ ويمتلئ، وينام ليحلم. فمنذ عرف هذه الفتاة، تغيّر هدفه من النوم، إذ كان ينام ليرتاح، ليشحذ همته من أجل عَمَلِ التنظيم الثوري، الحوارات والنقاشات، والدراسات المتعلقة بحشدِ الصفوف لذلك... أما الآن فأصبح يحيى ينام لأجل أن يحلم بها، وفي أحد الأحلام حدثَ أن رآها قادمةً إليه بثوبٍ نصفه أحمر ونصفه أسود مقسومٌ على شكلٍ طولاني، ورأى نفسه فجأة عادَ طفلاً، وبدأ قلبه يخفق بشدة، ووقف خائفاً تحت شجرة التين التي بدأت تزداد ضخامةُ وارتفاعاً باتجاه السماء القاتمة اللون، وظلّ يصغر، ويصغر إلى أن عادَ طفلاً وليداً عارياً بدأ يصرخ، ويصرخ و.....

لكن.. لكن لم يكن في الأفق غير سنا التي حملتهُ بين ذراعيها، فهتفَ قلبه فرحاً، إلّا أنها ألقت به في هاويةٍ سحيقةٍ لا متناهية المسافة نحو الأسفل، أخذ يسقط في المسافات هابطاً إلى لا مكان ولا نهاية، واستيقظ وهو يردد عبارةً كان يقولها من دون صوت، ومن دون أن يسمع نفسه، هذا هو الموت؟ إنهُ سهلٌ جداً!

استيقظ، وقد بلل العرقُ جبينه وتحتَ إبطيه وأسفلَ ظهره، البابُ يُطرق لكنهُ بقي لثوانٍ جالساً في الفراش غير قادرٍ على إبداءِ أي ردةِ فعلٍ.... إلى أن عادت له نفسه، فنهضَ، وفتح الباب....

كان الطارقُ القائد العام للتنظيم، دخلَ الرجلُ بجثته الضخمة،

وحذائهِ المشقوق، انتبه يحيى أنّ كعبي قدمي القائد متشققتان، وأنهما لربما تبدآن النزف عن قريب، وهذا المنظر زاد من انقباضات قلبه التي لازمتهُ ذلك اليوم.

- تفضل يا رفيق، اجلس وارتح.

وهرعَ يحيى يبحثُ عن دهنِ اللوز.

أين هو... أين هو يا يحيى.....؟

- عن ماذا تبحث يا رفيق؟

- عن دهن اللوز

- هههههه.... ولماذا تريده الآن؟

- ألم تنظر إلى كعبيك أبداً يا رفيق؟

- أنا أنظر إلى الخلاص...إلى العدالة والاشتراكية... وهذا ينسيني النظر إلى كعبي... انسَ أمرَدهنِ اللوز، وقل لي.... ما لكَ مضطربٌ هكذا...و رمق الرسالتين اللتين وضعهما يحيى على الوسادة وقد نسي أن يخفيهما قبل أن يفتح الباب، ثمَّ نظر إلى يحيى لبضع ثوانٍ بدا فيها ليحيى أن قائده اخترق دماغه وقلبه وعرفَ كلَّ ما خبأه فيهما، فأجاب بنفسه على السؤال الذي سأل يحيى إياه توّاً :

- النساء تضعف العقل والقلب، وبالتالي الهزيمة، وما أحوجنا إلى عزيمتك يا يحيى، لا تنسَ مكانتك والمهام الملقاة على عاتقك، أنت من القلّة المثقفين الذين نعتمد عليهم في عملنا...

كان يحيى مؤمناً بهذا الكلام تمامَ الإيمان إلّا أنَّ كلمات قائده تترك في قلبه فجواتٍ تمتلئ بمزيجٍ من المرارة والدهشة والضعف والامتزاج الغريب لكلِّ المشاعر المحبطة التي قد يشعرها إنسان، هو يعلم أنهم عملوا كلَّ تلك السنوات، لأجل حشدِ مجموعاتٍ للحزب في جميع المحافظات وصار لهم مراكز في عددٍ لا بأس به من القرى، وأنَّ هذه النتائج تعتبر ممتازة، وغير متوقعة، وذلك بقياس الفترة الزمنيّة، فقد كانت الإنجازات كبيرة، خلال فترة زمنية قصيرة.

- أريد أن آخذ إجازة.

قال ذلك كأنّهُ لم يكن يسمع رفيقه، ولم يفكر فيما قال.

- يحيى!

- هنالك بعض الأمور العالقة عليَّ تسويتها..

وبدا وقد حسمَ أمره تماماً،

- حسنٌ يحيى، لستُ في مكانةِ من يسمح، ومن يمنع.... افعل ما شئت، وخرجَ صافقاً الباب خلفهُ، وبقي يحيى يسمع صوت حذاءِ القائد إذ يجره على الأرضِ جراً.

القرية ٢٠١٣

كان عزيز جالساً في الغرفة برفقةِ طيف والدته التي توفيت دون أن يستطيع وداعها، ماتت أثناء فترةِ سجنهِ قهراً عليه، وحسرةً على عمرها الذي ضاع سدىً كما كانت تقول عندما يكتنفها الجزع أمام تصرّفات ولديها وزوجها أو ربمّا كانت نادمة على حدثٍ ما لم يحدث....

لكنَّ عزيز في هذا المساء الشتوي يشتاقها كثيراً، وكأنه عادَ طفلاً من جديد... يذهبُ إلى الملعب مع أقرانه، وفي وسط اللعبة بالكرةِ التي صنعوها من جوارب قديمة، وبعدَ أن يسدّدَ هدف الفوز، يشعرُ بعطشٍ شديدٍ و رغبةٍ في الارتماء في حضنِ أمَّهِ، والنظر إلى عينيها، وهي تقول : يا روح إمك يا عزوز الغالي.... هيك، وسخت تيابك يا إمي ؟!....

لم يرَ عزيز في عمره عتاباً أكثر مودّة من عتاب أمه لهُ، لكن عتابها يذبحه طيلة فترة سجنه، فلم يستطع أن ينسى نظراتها عندما دخلَ العسكرُ البيت واقتادوه مقيداً من معصميهِ، و زجّوه في سيّارة الجيب، نظر إليها وهو يبتعد، لكن نظراتها كانت تلاحقه، تحتضنه، لتقول لهُ :

- أنا أعرفُ كلَّ شيء، لكنّ قلبي مكسور، ويدي عاجزةٌ يا عزيز.... يدي عاجزةٌ يا إمي.

بقيت بعد ذلك عدةَ سنواتٍ تمضغ ألمها، ثمَّ تبصقهُ، لكنه يبقى عالقاً على أرضية البيت، على جدرانه، في ثمار الأشجار، وفي الطعام، يبقى عالقاً في روحها، تمضغهُ وتبصقهُ، وتعتني بزوجها الضرير، إلى أن جاءَ صباحٌ لم يوقظها فيه صوتُ زوجها، وصراخه، ونقّهُ لم توقظها كوابيسها وأحلامها، هامت روحها أخيراً لتذهب أينما شاءت، بعدَ أن رأت ولديها يجلسانِ على ركبتيها وهي تداعبُ شعرهما برفقٍ وتغني أغنيةً قديمةً، نسيت معظم كلماتها، لكنَّ اللحن بقيَّ في ذاكرتها، كان لحناً مرحاً، حملها بعيداً إلى مكانٍ آمن، دون ألمٍ وخزي، دون جزعٍ وخوف، مكان مشتهى، تستطيعُ أن تذهب من خلاله حيثُ شاءَتْ، دون طرقٍ على الأبواب، ولا

وسائل نقلٍ، دون تعبٍ، وها هي اليوم تزورُ عزيز، تحتضنهُ، فيطمرُ رأسه في صدرها الدافئ، ويغفو على مهل.... يوقظهُ طرقٌ على الباب، فيستيقظُ وحضور أم عزيز لا يزالُ عالقاً بحواسهِ.

كان الطرقُ على الباب هادئاً وعلى الأصح خجولاً، فمنذُ اليوم الذي خرجَ فيه عزيز من السجن، وهو يعيشُ منبوذاً في دارِ والدهِ، ولم يُطْرَق بابُهُ حتّى اليوم. يبدو أن من يطرق الباب شخصٌ ينتظرُ ألّا يفتح عزيزٌ الباب، فيغادر، ويكون بذلك قد فعل ما عليه وانتهى الأمر.... إلّا أنَّ الأمر لم ينتهِ، إذ نهض عزيز، وفتح الباب بوجهه المحبب، وكان الزائرُ أسعد ومعهُ إبراهيم الذي يعملُ عندَ العم إيليا بائع الخمور، لم يتعرّف عزيز إلى إبراهيم من قبل، لأن ابراهيم جاءَ القرية، بعدَ اعتقال عزيز، وبذلك تكون المرة الأولى التي يلتقيان فيها....

تعلقت عيون أسعد وإبراهيم بالمكتبةِ الضخمةِ المنسقةِ التي غطتْ جدارين من الغرفة.

- منذُ متى يا عزيز؟

سأل أسعد غامزاً.

- لا أحد يبقى على حالهِ يا أسعد.

- أنا على حالي يا عزيز ألم تلحظ ذلك؟

قال ذلك أسعد وسرحت عيناه في الفراغ، وكأنَّ فكرتهُ فاجأتهُ.... فعلاً لا يزالُ على حاله، لم يتغيّر، عدا عن لون شعرهِ.... كيف ذلك! هل هناك أحدٌ يبقى على حاله إلى هذا الحد!؟

تُرى هل لأنه راضٍ عن حالهِ تمام الرضا بحيث لم يحاول تغييرها،أم لأنهُ يخاف تغيير حاله، أم لأنه كسول وقد لحظَ ضرورة التغيير، لكنّ تعوزهُ الهمّةُ لذلك؟

بعد أن أنهى أسعد أسئلتهُ لذاته، نظر إلى إبراهيم، وقال بفخرِ الفاتحين:

- هل تعلم يا ابراهيم من صنع هذه المكتبة، وعندما هزَّ إبراهيم

رأسهُ نافياً، أشارَ أسعد برأسهِ باتجاه عزيز.

- إنهُ عزيز، صاحب اليدين العبقريتين، فما إن يمسكَ شيئاً بين يديه حتّى يحيلهُ إلى إبداع.

- أخجلتني يا أسعد... ليس لهذهِ الدرجةِ...

يتحدثان وسط تململ إبراهيم الذي يبدو أنّهُ ضاق ذرعاً بمجاملتهما فقد جاءَ لأمرٍ ما، ولم يستطع حتّى الآن أن يتم ما جاء من أجلهِ، ولا أن يتحدثَ عنهُ حتّى، فتنحنحَ، إلّا أنهما لا يزالان يتحدثانِ عن إنجازات عزيز، وعن براعتهِ في صقل الخشب مع أنهُ ليس إنجازاً، ولم يتعلّم النجارة حتّى....

تنحنحَ ثانيةً....

- صحة.

قال عزيز.

- شكراً أخي عزيز...في الحقيقة جئنا إليك في أمرٍ ما... أليس كذلك يا أسعد؟

- صحيح.. صحيح.

قال أسعد وهو يحكُّ شعرهُ المشعث.

وقفَ عزيز أمامهما محتاراً، فما الذي قد يحتاجانهِ من شخصٍ منفي منذُ سنواتٍ مثله؟

فإن سلّمَ على أحدٍ في القرية ؛ ردَّ السلام... وأدارَ ظهرهُ... منذُ وقتٍ بعيد لم يسألهُ أحدٌ عن حالهِ، فقد حكموا عليهِ بموتين، ولم يسألوه ما الذي حدثَ في ذلك الربيعِ المشؤوم.

- ألم تسمع يا أخ عزيز عن جماعةِ « الضبع «؟

- لا والله يا ابراهيم لم أسمع شيئاً سوى الأخبار على القنوات الفضائية.

أنا من البيت إلى الحقل ومن الحقل إلى البيت والمكتبة.

- هذه الجماعة لحماية القرية وأهلها من الاعتداءات التي قد

تحصل في مثل هذا الوضع، لكنَّ رأس الجماعةِ لا أحد يعرفهُ حتّى الآن... لا أحد يراه سوى أتباعه.

قلنا لماذا لا نخبرك وتنضم إليهم، فمثلك يجب أن يدافعَ عن أرضهِ، وأنت ما شاء الله منذُ صغركَ مشهودٌ لكَ بقوةِ جسدكَ و.....

تلعثم أسعد... ربمّا لأنه فكرَ في أن ما يفعلهُ مجرد حماقة إذ كيف يدافعُ منفيٌّ عن أرضه وأرض من قاموا بنفيه؟!.... تململَ في مكانهِ وصمتَ وأخذَ يحاولُ أن يهرب من عيني عزيز اللتين بدتا مزدحمتين بأسئلةٍ متداخلة كأحجية تعجيزية.

لكنَّ عزيز تداركَ الأمر، ونهضَ بسرعة وأسعف الموقف قائلاً:

- ألا زلت تحبُّ الشاي « الخمير»؟

- هههههه إي والله يا عزيز ما شاء الله على ذاكرتك!

عندما خرجا لم يكن وجه ابراهيم مبتهجاً، فقد اضطر لزيارةِ قاتلٍ دون أن يحقق هدفهُ من الزيارة، فلم يوافق عزيز على الانضمام للجماعة... وما زال أفرادها قليلي العدد، لكنَّ رجلاً بقوةِ عزيز التي سمع عنها ابراهيم كثيراً والتي قيل له إنها تعادِلُ قوّةَ عشرة رجال كانت لتعطي دفعاً كبيراً للجماعة التي تذود عن حدود القرية.... وما زاد من اضطراب إبراهيم أنّهُ سمع أنَّ الإرهابيين يدخلون المدن عن طريقِ القرى المحيطةِ بها، بعد احتلالها وتدميرها، وذلك أثناء نوم أهلها ليلاً، يذبحون الأطفال والنساء أثناء حلمٍ ما أو أمنيةٍ بنهارٍ أفضل من الذي قد سبقه. وقد يضرمون النار في المنازل خلال الليل أيضاً، قيل له أيضاً: أن جثة أمٍ وجدت محترقةً وملتصقةً بجثةِ رضيعها في إحدى القرى التي طالتها أيديهم الآثمة، فماذا يفعلُ إبراهيم، وهو مسيحي، ويعملُ عند إيليا صاحب الخمارة؟!...

ارتجفَ جسده للفكرة، وهزَّ رأسهُ كأنّهُ يريد أن ينفض عنه مخاوفه، ومشى إلى جانب أسعد صامتاً تماماً.

أما عزيز فقد ألقى بجسدهِ على الأرض، وفجأةً تجمع الحزنُ في قلبه وأخذَ يتكاثر ويمتزج مع ألمٍ قديم، وما لبثا أن تحولا إلى غصةٍ

استقرّت في حلّقهِ، وبدأت تخنقهُ، إلى أن انفضّت عيناه عن دموعٍ غزيرة، ومن خلالها بدا كلّ شيء واضحاً أمامه، بدا لهُ أنَّ الناس غدوا بشعين إلى حدٍّ يجب أن ينأى بإنسانيته عنهم...

الآن أصبح حصان السباق الرابح! الآن وبعدَ عامين من العزلة القسرية، يراهنون على قوة جسده!

هو الذي نُعِتَ مع عائلته بكلِّ ما أوتيت اللغةُ من صفاتٍ قذرةٍ، دون أن يعلموا سبباً لذلك!

ماذا يفعل الآن؟ هل يذهب إلى « الضبع « ويرمي نفسهُ في أحضانه، فالوطن وطن.

ما الوطن... ما الوطن يا عزيز؟ قُلّي.

هل هو الأرض التي نعيش عليها؟ التراب... الحجارة والمطر والأشجار؟.... هل هذا هو الوطن؟

أم الناس والمحبة، الرأفة، الرحمة، الغفران، العدل... الأصوات والجينات، اللهجة يا أخي... اللهجة التي يتحدث بها أهل الوطن... قد تعدُ وطناً بحدِّ ذاتها.

- أنا ضائعٌ بين الوطن وبينه، بينه وبيني، بيني وبيني.... لا أعرف... أنا ضائعٌ فحسب، أشعرُ بأني لو قرأتُ مكتبات العالم لما استطاعت أن تهدني، قلبي فقط هو كتاب وطنيتي... وسأترك له القرار... لكن ليس الآن.

نهضَ عزيز متثاقلاً، ونظر إلى المرآة المثبتة على الجدار والتي تُظهرُ الجسد كاملاً،.... تأمل جسدهُ للحظات، وقد أصبح يغطيه الآن بكنزةٍ من الصوف الخشن، مقعرة عند المرفقين، لطولِ فترة استخدامها، وقد أصبحت أكمامها قصيرةً ومهترئةً بعض الشيء، مما أثار الشفقة في نفس عزيز على نفسه... تفقدَ عضلات صدره، وساعديه، وزنديه... لا تزال على حالها، لكنَّ شعره بدا خفيفاً من الجانبين.

اكتنفه الضحك عندما لاحظ أنه يشبه « بروس ولس « قليلاً خصوصاً بعدَ أن قام البارحة بحلق شاربيه وذقنهِ، وقال في سّرهِ : إطلالةٌ

مبشرة بمستقبل مفعم بالمغامرات والأكشن يا عزوز...

لا تحزن أرجوك... لا تحزن يا عزيز، كنتَ جميلاً، والآن أصبحتَ أجمل... أنتَ ضائعٌ فقط... هذه هي المشكلة، لكن ما هو أهم من حلِّ كلِّ المشاكل ؛ هو أنّكَ تعرف نفسك جيداً... أنت جميلٌ فابتهجْ.

القرية ١\٣\١٩٩٠

وقفت سنا أمام النافذة ترقب هطول مطرٍ غزير، وطال بها الوقت أمامَ النافذة، ولربما طال الطريق الذي قد تسلكه لتلتقي حبيبها، فمن اليوم فصاعداً، قد تضطر إلى السير في طرقٍ لا متناهية البعد طرقٍ سماويةٍ مثلاً، فضائية أو فراغيةً حتى.... إلى أن تصل إلى أحضانه قد تمتطي غيمةً باردة، وقد تتحول إلى حبةِ مطرٍ تسقط فوق شفتيه فتزيدهما عذوبة، أو قد تتحول بعد أن يذيبها فيه إلى حبةِ عرقٍ على صدره، فتغفو هناك وهي تحلم بأبدٍ من نقاء....

- سنا جهزي نفسك سنذهب إلى بيت أبي يحيى.
- لماذا يا عمتي؟ ألم نذهب الأسبوع الماضي؟!
- وسنذهب اليوم أيضاً.... يحيى في القرية منذ يومين.
- حسنٌ.

لم تعد الفتاة بصحبة النافذةِ الآن، وإنما أدارت لها ظهرها، وأسدلت الستائر، وبدأت تخلع ثيابها، نظرت إلى جسدها قليلاً، وهي نصفُ عاريةٍ، وما لبثت أن حررتهُ تماماً، وأخذت تحدّقُ في المرآة... وتتأمل معالِم جسدها فتشتعل للذكرى. صدرها العاري المتناسق الحجم، فبين خطِ الهالة والحلمة مسافةَ قبلة لا أكثر، كان يشعلها بها عندما يلثمها، وينتقل إلى بطنها، فسُرتها، ثمَّ يجمعُ جسدها يعصرهُ بيديه، بشفتيه... طعمٌ لا ينسى لاجتماعهما معاً، لكنّ لقسوةِ القدر طعم مرارةٍ يفوقُ اللّذة يسحقها... يبددها...

ألقت على جسدها معطفاً سميكاً من الجوخ الأحمر، دون أن تنظر إلى تسريحةِ شعرها، ودون أن تعودَ عدة مراتٍ لتعدّل حمالة صدرها وبلوزتها، وتنورتها وخرجت برفقةِ عمتها...

إلى بيتِ أمَّ يحيى... تلكَ المرأة الطيبة...

لم تعرف سنا لماذا دائماً تفكر بهذه المرأة أكثر مما تفكرَّ بابنها

يحيى، ربما لأنها غريبةُ الأطوار.... فأم يحيى غالباً ما رآها أهل القرية تحدّثُ نفسها، ولكنَّ غرابة طبعها لا تتعارض مع دماثتها ولطفها، وحضور الحنان في ملامحها.

أو ربمّا كان سبب تفكيرها بها ناتجاً عن شعورها بالخسّةِ التي تستخدمها عمتها تجاه هذه العائلة، وذلك لكي تزوّجها من يحيى، الذي وجدت فيه العمة العريسَ المناسب لابنةِ أخيها اليتيمة التي تركها والداها أمانةً في عنقها، وارتحلا إلى رحمته تعالى، منذ أن كان عمرُ الفتاة ثماني سنوات، صحيح أن العمّةَ قامت بتربية سنا ودافعت عنها كثيراً عندما كان زوجها يتأففُ من وجودها معهما... إلّا أن العمة كانت تقف في وجهه، وتقول له :

- هذه نعمةٌ من الله، فلا ترفضها، نحن لم نرزق بأولاد، لكنَّ الله لم ينسنا، احمد الله على نعمتهِ.

ومع ذلك كانت العمة لا تترك فرصةً للتخلص من ابنةِ أخيها، منذ أن بلغت الخامسةَ عشرة، وبدأت براعم أنوثتها تتفتح.

والآن وبعدَ أن أصبحت في الثانية والعشرين ولم تتزوج، فما كان من العمةِ إلّا أن تدقَّ النفير وتدفع بالفتاة للإيقاع بيحيى، مستخدمةً جمالها كطعمٍ لم يستطع يحيى أن يقاومه.

لكنَّ ما لم تعرفه العمة أنَّ يحيى لم يكن يفكر بالزواج، أو ربما لم تخطر في باله الفكرة بعد... فلربما يفكرّ لاحقاً، كان مشتتاً فقط، لا يعرف ماذا يريد، لكن لا بدَّ من أنَّ سنا تستحق أكثر من حالة الاشتهاء المجنونة التي يشعر بها تجاهها فعلى الرغم عنه أفردَ لها مكاناً واسعاً ضمن أعزَّ أحلامه وما لبثت أن استولت على المساحةِ كلها... بالإضافةِ إلى ذلك، بدأ يحيى يبحث عنها في كلّ مكانٍ يرتاده، بدأ يشعر بجمال الأشياء والأماكن.

لذلك، ترك كلَّ شيء... الاجتماعات – النقاشات – الأوامر وأعطى لنفسه إجازة من ذلك كلّه، إجازة... مجرّد إجازة؛ هذا ما كان يعتقده يحيى يوم جاء مفعماً بالأماني، مكبلاً بالحب، حبه الذي بدأ يجرجره

خلفه بوعي أو بلا وعي لا يهم... المهم أنه يريد لقاءها.

- ما الذي تفعلهُ بنفسك يا يحيى... لماذا كلّ هذا الجنون؟!

فكرَّ بينه وبين نفسه، وهو يشرب كأس النبيذ الذي ادعى إيليا أنهُ معتّق لكنَّ مذاقهُ اللزج جعل يحيى يبصقهُ، ويبصق على إيليا.

- ألن تترك الغش يا إيليا؟! لا عجبَ أن لقبك..(أبو خرطة) وابتسم بينهُ وبين نفسه، وضحكَ عندما خطرت في باله فكرةُ أنَّ النبيذ قد فعل فعلهُ بعقلهِ. وعاد يسأل نفسه عن جنونه، وانقبض قلبه فجأةً، وكأنهُ صحا على صوت صاعقة.

أتعلم يا يحيى : كلّ ما تفعله جنون بجنون... إيمانك كفرك... بعدك قربك، غيابك، حياتك كلها جنون بجنون... لماذا لا تموت إذن؟

وأطرق ناظراً إلى الأسفل ما بين قدميه المرتاحتين على الأرض المفروشةِ بساطاً من الصوف القديم، لونه أحمر قانٍ، كانت أمه قد ورثته عن والدتها، ولا تزال تفرده على أرضِ الغرفةِ كلَّ شتاءٍ، وتتأكد بلمساتٍ من يديها، وهي راكعةٌ فوقه، أنّهُ لا يزال في حالةٍ جيدةٍ.

بقي واقفاً أمام الباب الذي ولجته سنا وقد انحنت لخلع حذائها، وسارع يحيى لمساعدتها، لم تمنعهُ، إلّا أنها أشاحت بعينيها بعيداً عن عينيه، وكأنّها تتحاشى لقاءهما، فلربما يكون فيهما ما لا ترغب في إعلانه.

جلست العمةُ إلى أم يحيى، وفتحت معها الكثير من الأحاديث، وأم يحيى تهزّرأسها بالإيجاب طوال الوقت، ربما تحاولُ العمةُ إشغال أم يحيى عن سنا ويحيى، فهي تريدُ لهما أن يختليا ببعضهما، وبذلك يزداد يحيى تعلقاً بالفتاة وبالتالي يتقدمُ لطلب يدها للزواج.

أما أم يحيى فلم تفكر على هذا النحو... بلّ تتصرفُ بشكلٍ طبيعي، فلو حدث وطلب يحيى من أمّهِ أن تذهب وتطلب يد سنا لهُ، لوافقت من غير تردد، ولو لم يطلب....

- ألا ترغبين في تزويج يحيى يا أمُّ يحيى، ألا تريدين أن تري أولاده؟

- أرغب، ولمَ لا؟

- ألم تجدي له الفتاة المناسبة؟

- يحيى لا يترك لأحدٍ أن يفعل شيئاً بالنيابة عنه، وإن أرادَ لنفسه فتاةً، تحدث إليها بنفسهِ، هذا يحيى منذ أن كان طفلاً، وإلى الآن , فقد ترك له والدهُ حريّة الاختيار ووثق به. والتفتت إلى الجهةِ اليمنى ثمَّ إلى الخلف : خلص يا ماما اهدئي قليلاً.

صمتت العمةُ، وضغطت أسنانها محاولةً كتم سخطها الذي فجرتهُ هذه المرأة البليدة الغبية، هل من المعقول أنها لم تفهم بعد ما يجب عليها فعلهُ؟!

في الزاوية الأخرى وقف يحيى وسنا إلى جانبه ساهمةً لم تسمع نصف حديثهِ أو أغلبهُ فقد كان واقفاً أمام المكتبةِ المتواضعةِ المعلّقة على الجدار، ويستعرض عليها عناوين الكتب التي يمتلكها والمناسبات التي اشتراها فيها أو أُهديت إليه.

آهٍ يحيى.... ليتني أستطيع أن أشعر بك.. أن أحبك، أن أشتهيك.... أنا أحبك، ولكن....

كانت تنظر إلى عينيه اللتين تدرسان تفاصيل ملامحها وجسدها، وإلى شفتيه اللتين تطبقانِ على السيجارة بتوترٍ، ثم تتركانها، وقد بدأت تتضاءل، كما رغبتها التي بدأت بلا وآلت إلى العدم.

- يحيى شابٌ لطيف، لكنني... لا أستطيع... لا أستطيع أن أفكر في رجولته... لا يثير غبطتي... ربما لأنني مجبرة على محاولة الإيقاع به.

- لا... لا ليس هذا هو السبب.... أنا فقط عاشقة لآخر.

السعودية ٢٠١٤

- أهلاً حياة... أخيراً أتيتِ.

- كيفَ حالكَ؟

- لستُ أدري كيف حالي، ولا أينَ حالي، وإن كانَ لديَّ حالٌ أصلاً... عزيزتي أنا هنا... أجل هنا... بين الصحوة، والسكرة، في هذه المنطقة بالذات.

- أين؟

- في المساحة الزمنية التي تأخذكِ فيها إغفاءةٌ قصيرةٌ إلى حلمٍ عميقٍ.

أنا هنا معكِ يا حياة. فلا الفيض يرويني، ولا الشحُّ يقتلني عطشاً. أنا في المسافة بيني وبينكِ، وبيني وبينكِ المسافة، مسافةٌ من نوعٍ مختلفٍ للمسافاتِ، كالبعد الفاضح بين اللقاء والوداع، أنا هنا هذا الزمن الحبيس بينهما، المكبّلُ بأحداثٍ حدثت، وأخرى حدثت بشكلٍ آخر للحدوث، في عتمةِ الغفلة مثلاً، أو في ضبابيةٍ للزمن والرغبة. الرغبة منكِ وفيكِ.....

يا لهذه الممرضة... تعرقلُ غزلي، و تتحرك في غرفتي، وكأنها غرفةُ نومها، وكأنني غير موجود، مع أنَّ رائحة دمي أثقلت الهواء على أشجار النخيل في الحديقةِ خارجاً!

- أرجوكِ يا آنسة اخرجي لبعضَ الوقت... أعطني بعض الوقت.

- ما من وقتٍ يا سيد.

- لا أرغبُ عنايتكِ بي.

- عنايتي بك ليست ضمن حدود رغبتي أو رغبتك.

ردّت عليَّ بلهجةٍ مصريةٍ، وخرجت ممتعضة بعد أن نزعت أنبوباً ووضعت آخر مكانه، كانت تحملُ بيديها صينيةً بيضاء لم أعرف محتوياتها لأنني دون مستوى سطحها، وحياتي محكومةٌ بالاستلقاء.

لم أرد لكِ أن تريني هكذا يا حياة، فأنا الآن خارج الأحداث التي حدثتكِ عنها... تلك الأحداث التي قد تغيّر حياة أحدهم في لحظة... في جزءٍ لا متناهي الصغر من الثانية، الأحداث الصغيرة، والهائلة، كانتشار ذرات الضوء. ذرةٌ واحدةٌ قد تحدِث المعجزات، فلربما تغيّر الرؤية، أو قد تخطف بصرَ أحدنا.

تعالي اجلسي بقربي.

ما زلت غريباً عني وعنكِ في بعدي، واقترابك، في خيبتي، وآمالك... بماذا تأملين؟

أنا عاجزٌ تماماً، منذ أيامٍ أو أشهرٍ لم أكلّف نفسي عدَّ وحداتِ وقتها...

تخيلي أني لا أستطيع عناقكِ!، انظري إليَّ خاوي القدرةِ، واهن الذاكرة...

ألفُ نفسي بهذه الشراشف، وأعيش، أو لا أعيش... ربمّا... لا أعرف، فأنا في مساحةٍ ما للوجود، طريحُ الفراش، وصدري ممزقٌ بالمشارط وبالرغبةِ باحتضانكِ، ومقطبٌ بخيوطٍ ثخينةٍ... الأنابيبُ موصولةٌ بي، أبدو كضرعِ بقرةٍ مقلوب، أو كأي شيءٍ مقلوبٍ على خارجه... أنا أبدو من الداخل الآن... الآن تستطيعين أن تري نفسكِ داخلي.

لا تنظري إليكِ هكذا بهذه القسوة والحدّةِ التي ينظر بها البشر؛ كوني رحيمةً بوجودك.

فأنا معبأٌ بكِ، ببعدكِ، بقربكِ، بحضوركِ وغيابكِ، ممتلئٌ حدَّ التمزّق، ولا أريد لكِ أن تخرجي مني أبداً.

- أبداً؟!

- أجل أبداً... كما سمعتِ، فأنا كجميع البشر أتوق إلى المستحيل فأستخدم كلماتٍ مستحيلة... لا ليست مستحيلة، فلربما للبشر مكانٌ ما في الأبد، مقعدٌ صغير في حديقةٍ في اللاذقية، تحت شجرةٍ ضخمة، لم أميز نوعها؛ لأنني كنتُ أنظرُ إليكِ، إلى أصابعكِ البيضاء الذاهلة بملمسِ

الوجود، هناك في تلك الحديقة التي يقص فيها الصباح نورهُ على مقاس إطلالتك، وحيث يتراقص الطلُّ على شفتيكِ، فأنسى أنني خرجتُ من القرية هارباً، وأنسى ما كان لي هناك. في الحقيقة لم يكن لي غيرك، وقريتي حيثُ تكونين.

- أتصدقين يا حياة أنّي نسيتُ كلّ ما كنتُ أذكرهُ قبل أن أراكِ!

- أصدّق

- لكنّكِ كنتِ تهربين مني دائماً.

- لم أهرب منك يوماً... كنتُ أهربُ من نفسي

- أتذكرين يومَ ابتلعتِ جميع العقاقير والأدوية الموجودة في صيدليةِ منزلكم؟

لستُ أذكر على وجه التحديد، لماذا وجدت نفسي هناك، أقحمُ إصبعي في حلقكِ، فتتقيئين علي، كان قيئُكِ برائحةِ الكحول أو الكلور... المهم أنهُ كان حارقاً... لماذا فعلتِ ذلك؟

ضحكت حياة يومها على ذلك المقعد وضحكتُ معها وبدأ المارّةُ في الحديقة ينظرون إلينا بدهشةِ من ينظر إلى عملٍ جنوني، لكننا كنا سعيدين. حياة لم تجب يومها على سؤالي... أجابت بضحكتها... تُرى هل تضحك عليَّ، لأنني بعدَ أن خلصتها مما ابتلعتهُ من أدوية، سقطتُ مغمى عليَّ لشدةِ الفزع... كم أنتِ قاسيةٌ يا حياة.... أنتِ أكثرُ من يعرف أن قلبي لا يحتمل. لكن لماذا أتذكر هروبها اليوم لأتذكر ما هو أفضل علّي أنسى ألم التقطيع الذي حظيتُ به في صدري... في قلبي... في مكانٍ ما مني....

بقيت تنظر إليَّ بعضاً من الوقت ثمَّ خرجت، وبقيتُ وحيداً في الغرفة، أستخدم ما بقي صامداً من حواسي بعد العملية التي أُجريت لي. أتسلّى بأصوات الأقدام ذاهبة وعائدة في الممر، وببعض الهمساتِ، وأحياناً التأوهات التي تعلو فتصلني من الغرف المجاورة، أحاولُ الإحساس بها... أحاول نسجَ قصصٍ حول أصحابها... تُرى كم من الألم ما تحتملُ سماعه الجدران؟!

كان جهاز التحكم بالتلفزيون بجانبي إلّا أنني فكرتُ ملياً قبل أن أضغط زر (الباور)، فمنذ أربع سنوات كلّما قمتُ بتشغيل ذلك الجهاز، وكأنني أقوم بإشعال جنوني. تظهرُ المذيعةُ ببرودٍ سافر ونظرةٍ محايدة لتعلن عن أفظع الأخبار وأكثرها قسوة... أنظر إلى الشاشة ولا أصدّق ما أرى.. دماءُ البشر ولحومهم، حتى أمانهم قد استباحتهُ نيران الحروب، تلك النارُ التي نشبت في كلِّ مكانٍ من هذا البلد وبدأت ألسنتها تلعق كلَّ شيء لتمحو معالمَ وجودنا، حتّى الجدران التي كتبَ عليها طلاب المدارس ذكرياتهم، وصلت ألسنتها هناك، ولم تنجُ الذكريات... صورُ الخراب ملأت عيونَ الناس في كلِّ بلدٍ على هذه الأرض، لكن هل جميع العيون تعلمت البكاء، أم أنّ ثقافته حكرٌ علينا؟

نحن من يبكي على غيره.... على بعضه... المهم أن يبكي، مع ذلك لم أتمالك نفسي عن البكاء، لدى مشاهدة لحم الأطفال الطري المقطع بأسلحةٍ متطورة تمزق القادِم منّا إلى الحياة، وتنشب مخالبها لتحفر جراحاً عميقة من ألمٍ وفقدٍ في وجدان ذاكرتنا، لم أستطع... وكيف لي أن أعيش... ولمَ أنا هنا أصارع الموت في هذا المشفى اللعين؟... لماذا لا أصارع الموت هناك.... الموت الذي يجتث قلوب أبناء وطني... لماذا هربت؟... لماذا؟... لماذا؟...

بدأ جسدي يرتج، وشاشة الجهاز الموصولة بي بدأت تطلق صفيراً مضطرباً... سمعتُ أصواتَ أقدامٍ تقتربُ مسرعةً، دخلَ الطبيب عبد الله بوجهه اللطيف، لكنّ ملامحه بدت مشدودة والممرضة خلفه، وأخذا يتحدثان بسرعة... وأنا أغيب... وأغيب، لكنّ سؤالاً في داخلي بقيَّ مسيطراً في وعيي ولا وعيي أقرؤه على نفسي في أحلامي، وأستيقظ لأجدهُ متربعاً وسط تفكيري ويتراقص على شفتي باستهزاءٍ مني أو ربمّا من نفسهِ، تُرى هل جميع البشر من تركيبةٍ واحدةٍ؟! هل جميعهم من لحمٍ ودم، وجملةٍ عصبية وهل ترى عيونهم، وتسمع آذانهم مثل بعضهم؟... لا أظن ذلك.

- لا يزالُ الضوء ساطعاً... أرجوكِ يا آنسة أطفئيه قليلاً.

- لكنهُ مطفأ!

- إذن لماذا لا أستطيعُ رؤية أي شيء سوى سطوع لضوءٍ ما....؟

- أغمض عينيكَ قليلاً، حاول أن ترتاح... لا تزال حرارتك مرتفعة... سيمرُّبكَ الطبيب بعدَ قليل... بالمناسبة جاءَ صديقك لزيارتك.

- برهان؟

- برهان.

كنتُ خائفاً من رؤية برهان... وربمّا كنتُ خجلاً أيضاً. فبعدَ أن احتلت الجماعاتُ المسلحة الحيَّ الذي كانت عائلتهُ تعيش فيه ؛ وجدَ نفسهُ في مهبِ العاصفة أعزل من عزيمة، تلاطمه الأمواج، وهو لا يزال يعيشُ سكرةً ما.... لكي يعيش...

كيف لي أن أنظر في عينين طافحتين بالألم والحزن؟ بالأسئلة التعجيزيّة؟ ما عساي أقولُ لهُ؟

كيف أواسيه؟ بعدَ أن احترق والده وجزء من زوجته بعدَ أن حاولت حَمْلَ عمّها العاجز على ظهرها في محاولةٍ خائبةٍ لإنقاذه من النار التي أُضرمت في منازل الحي كلّه، في رغبةٍ من الغزاة لرؤية محرقةٍ جماعيةٍ أو حفلةِ شواء يسكرهم منظرها، ويسيل لعابهم لرائحتها؛ أستغربُ كيف يأتي لمواساتي، وأنا أحتاجُ دهراً كي أواسي حيرتهُ التي لم تفارقه منذ ذلك اليوم الذي اختطف فيه ابنه البكر ابن الثانية عشرة، ولم يعرف له سبيلاً، ومنذ أن سكنت عائلته المخيمات لا أعرف يومَ أتاني وعلى وجهه ابتسامةٌ مبهمة المغزى، إن كان جادّاً فيما يقوله أم أنه بدأ يسخر من كلِّ شيء حتى نفسهُ من شدّةِ الألم.

- هل تعلم أن الكثير من الدول والمجموعات الخيرية يهتمون بأمور السوريين في المخيمات؟

- لا.... لا أعلم.

- انظر الصور... يوزعون السكر والرز والمواد الغذائية بأنواعها... انظر... زوجتي تقفُ هنا في الطابور... تمدُّ يديها... انظر يا أخي تمدُّ يديها

للحصول على معونة درجة رابعة

- وماذا يعني ذلك يا برهان؟... ما الذي تقصدهُ؟

- أقصد أنَّ الدول التي ترسلُ المعونات... دولٌ رحيمة... ترأف بحالنا... لا تريدُ لعائلاتنا أن تموت... تموت بكرامة... ماذا عليَّ أن أفعل قل لي؟

- لا تستطيع وحدكَ أن تفعل شيئاً.

- رحمة الله سأنتظر، لكني أخافُ أن أفرغ من الانتظار.

- الحياة كلها انتظار... انتظارٌ لحدثٍ ما، ربما يأتي وربما لا.

- فلننتظر...

جلسَ يحدّق في الجدران، ويهزُّ ركبته، دون أن ينطق.

نظرتُ إلى وجهه الذي بدا وجه عجوز داستهُ عجلات الزمن، وتركت آثار أوجاعها عليه.

وضع رأسهُ بين راحتيه دون أن يصدرَ صوتاً، غير أني عرفتُ أنه يبكي، فبقيتُ صامتاً لا أريد أن أوقف نوبته، أردت له أن يرتاح، إلّا أن أنينه بدأ يتصاعدُ إلى أن صارَ نحيباً، وبدأ يشدُّ شعره ويخبط الأرض بقدميه... وأنا صامتٌ تماماً، أما هو فبدأ يصرخُ مستغيثاً :

- لماذا يا الله... لماذا يا الله.....؟

ما من إجابةٍ سوى الصمت.

لكنَّ برهان لم يأبه للصمت، ولم يترك لصمت العالم أن يحتجزه خلفه، ولم يقف وراء حدودِ الانتظار منتظراً أن تحمِلَ له حمامةٌ بيضاء خبراً عن ابنه الغائب، أو عن موتِ أحد أطفاله جوعاً في المخيمات.

بقي يسأل، ويتصل بهذا وذاك،.... إلى أن جاءهُ خبرٌ في أحد الأيام التي كان فيها منتظراً، وأعصابه ترتجف، فقد ترك التدخين منذ مدّة، وحلَفَ أن لا يدخن سيجارةً إلّا بعدَ لقائِهِ ابنه الغائب.

- ما دخلُ التدخين بذلك يا برهان؟

أجابني بعينين تكادان تتقيحان من كثرة البكاء في الآونةِ الماضية :

- وتريدني أن أعيش « على كيفي » أن أدخّن وأشرب الشاي وآكل وأستمتع بالحياة وأنا لا أعرف أين ابني، وأنا لا أعرف على أي قدرٍ من الحيرةِ والخوف والعذاب ينام!.. روحي تحترق... ألا تشعر بي؟

كنتُ جالساً قرب النافذة في المكتب عندما جاءَهُ خبرٌ من شخصٍ يُدعى حذيفة، وقد دعاهُ للقائِه لأمرٍ مهم يتعلّقُ بابن برهان الغائب.

خرج برهان مسرعاً وضربَ فخذه بالطاولة، غير أنه لم يشعر بألم، مع أنَّ زاوية الطاولة الحادّة قد انغرزت في فخذه إلّا أنه خرج في ذلك اليوم، ولم أره ثانيةً إلّا بعدَ عدّةِ أعوام.

القرية صيف ١٩٨٣

خرجَ أبو يحيى في الساعة السادسةِ صباحاً إلى بستان الخضراوات، إذ حان وقت قطافها، نظرَ إلى يحيى فوجدهُ نائماً فأعاد الغطاء الرقيق فوقَ وجهه، وأيقظ أم يحيى لتسلق له بيضتين كالعادة، فهو يحب أن يأكلهما مع البندورة الطازجة التي سيقطفها بعد قليل.

ذهبَ في طريقهِ إلى هناك، كان قد جهز الصناديق الخشبية البارحة، لذلك وجدَ فرصةً للشرود.

بدأ يقطفُ ثمار الباذنجان، ويعطس بسبب الزغب المزعج الذي يتطاير من شجيراتها، وبشرتهُ أخذت تستحكه مع أنّهُ أحكم تغطيتها، حتى وجهه قد لفّهُ بكوفيةٍ، ولم يظهر منه سوى عينيه، ومع ذلك بقي الزغب يتطاير ويزعجهُ، إلّا أن استجابة جسد أبي يحيى فاجأتهُ، إذ إنّ الحكة بعثت في جسده حرارةً من نوعٍ مختلفٍ عمّا عهدهُ من قبل، بدأت تهيجُ رغبتهُ، فيتذكر هيفاء، ليجن قلبهُ ويهتز كيانهُ بأكملهِ.

تركَ الباذنجان، وانتقل إلى شتلات البندورة المشعشعةِ الثمار، قطفَ ثمرةً ممتلئة مسحها براحةِ كفهِ، أزال عقبها فانبعثت رائحتها المنعشة في أنفه، فزادت من انتشائهِ.

عضَّ الثمرةَ المستسلمة في يده فخرج السائلُ ذو الحموضةِ العذبة من حافتي فمه، أغمض عينيه وسرحَ في مكانٍ ما ليس بالبعيد، استلقى على ترابِ البستان وأغمضَ عينيه تحت الشمس... بين الرطوبة واجتماع أنواعٍ فريدة للشذى، اتقدت ذكرياتُ الرجل من جديد، بقي على حالهِ بضع دقائق، وطيفُ هيفاء يتراقص أمامه، بضحكةٍ غنجةٍ وحجابٍ لثوبٍ طويل، يترك العنان لخياله حولَ جسدها المكتنز وساقيها الطويلتين، لتكوراتِ صدرها، واستدارةِ بطنها، لكلّ شيءٍ فيها.

- آهٍ هيفاء كيف تطلبين مني نسيانك، وأنا مفتونٌ بكِ إلى ما بعد الذاكرة!

- ما من أملٍ لحبنا يا مخائيل. أرجوك دعني وشأني.
- أتركُ كلَّ شيءٍ لأجلكِ، وافقي، واتركي الباقي علي.
- لا... لا أرجوك لا أريد لك أن تترك دينك لأجلي، فأنا لا أحتملُ مثل هذه التضحية.
- ألا تفعلين الشيء نفسه لأجلي؟
- لا
- شكراً.... وصلني حقي.
- لا تحزن... ربما لا أستطيع شرح الأمر... الأمرُ ليس له علاقة بالناس أو بما سيقولونهُ عنّي، أو إذا أهلي سيقتلونني...
- إذن؟
- الأمرُ متعلقٌ بعلاقتي بالله... لا أريدُ أن تشوبها شائبة.
- وهل في حبنا ما يشوب إيمانكِ؟!
- أجل فيه كلّ ما يشوبُ إيماني... أنا لا أنام يا مخائيل... لا أنام، أرى أحلاماً غريبة ومزعجة، أرى نفسي أحترق إلى أن أغدو رماداً، أخاف، فأبكي....

أنتَ لا تحسُّ بي.

- أشعرُ بأكثر مما تشعرين... أكثر بكثير...

ودمعت عيناه للذكرى والحسرة، فنهضَ وعادَ إلى البيتِ مسرعاً، كانت زوجتهُ تعدُّ الإفطار، وقد وضعت إبريق الشاي على النار، دخلَ البيت ووقفَ أمامها دون أن يتحدّث، ودون أن يسأل عن يحيى إن استيقظ أم لا. النيران تستعر في جسدهِ، وتخرجُ من عينيه ؛ فجذب زوجته من يدها وذهب بها إلى الغرفةِ (الجوّانية) هناك حيثُ لا أحد يفكرُّ بالدخول، ولا يسمَعُ صوتُ أنين، ولا تنهدات.

عرفت أم يحيى ما الذي سيحدث، فذهبت مستسلمةً دون أن تسأل، ودون أن تفكرَ في الاغتسال أو التجمُّل.

دخلا معاً وأغلق الرجل باب الغرفةِ برجله وبقي صامتاً، وبقيت

مستسلمة.

وعندما انتهى الأمر أدارَ ظهرهُ، لتدمع عيناه. لماذا على عذابهِ أن يتجدد دائماً؟

ولماذا تجتمعُ كائناتُ الأرض، حشراتها... روائحها... كلّ موجوداتها على تعذيبهِ هكذا؟

كانَ يعتقدُ أن الأمرَ رغبةٌ وتنطفئ، لكنَّ روحهُ هي التي تنطفئ يوماً بعد يوم في هذه القرية التي تآمرت على صموده، وها هو يسقطُ أمام هيفاء أولاً وأمامَ زوجتهِ المسكينة ثانياً.

بقي وحيداً عارياً في الغرفة بعضاً من الوقت، وخرجت أم يحيى تعملُ في بيتها كالمعتاد، وهي ساهمة في مكانٍ ما، وربمّا لم تنتبه إلى أنّهُ منذ ذلك اليوم، بدأ ينمو في أحشائها كائنٌ صغير، كان ثمرةً لحزنِ زوجها وانهزامهُ، ولاستسلامها هي.

تُرى كيفَ يكون نتاجُ إلقاحِ الهزيمة للاستسلام، على الأغلب لم يفكرّ الزوجان بذلك، وربمّا لم يفكرّ أحدٌ بامتزاجِ الأمزجة، وتزاوجها وثمارها.

سيبقى الأمرُ رهيناً بالزمن، فهو سيكشفُ ما اختبأ مما كان ومما سيكون.

كان الوقتُ منتصف الليل عندما قرر الطفلُ الخروج من أحشاء أم يحيى التي حاولت أن تتدثر بشكلٍ جيد، لكن عبثاً محاولاتها، فالجوّ باردٌ جدّاً والثلج يتساقط هادئاً ويغفو، أمّا هي فكيف لها أن تغفو، وركلات الطفل تكادُ تقطّعُ أحشاءها.

ولم يخرج، بدأت أنفاسها تتباطأ، وألقت برأسها على الوسادة بلا حراك.خاف زوجها، وشعرَ بندمٍ على ذلك الصباح الذي جعلهُ يزرعُ فيها كلَّ هذا الضنى... ذهبَ بسرعةٍ إلى بيت حيّان صاحب سيّارة « التكسي « وبدأت قبضتاهُ تضربان الباب بجنون... فتحَ حيّان الباب بهيئةٍ ناعسةٍ وشعرٍ منفوش، ما بك يا أبا يحيى خير إن شاء الله؟

- زوجتي تلد... زوجتي تلد... بسرعة أريدُ السيارة بسرعة.
- انشاء الله خير خير لا تخف يا رجل.
- بسرعةٍ قلت لك لا تضيع الوقت بالكلام.
- يا الله.....

ركضَ أبو يحيى بسرعة جعلت رجله تصطدم بحجرٍ كبير في الأرض إلّا أنه لم يشعر بالألم إلّا بعد أيامٍ من ذلك، وبعد أن نسي أين صُدِعت رجله، وما سبب ذلك الألم... نسي كلَّ شيء، كل ما قاله السائق في الطريق وكلّ المشاعر المرهقة في تصارعها، احتفظت ذاكرته بوجه الطفلِ ساعةَ ولادته، حملهُ بين يديه، وأخذ يرنم في أذنه، ترنيمةً قديمة كان يسمعُ والده ينشدها دائماً. منذُ ذلك اليوم أصبح أبو يحيى كثير الابتسام، والمرح، وازداد عدد أصدقائه، وصارَ يدعوهم لجلساتِ النقاش وشربِ الشاي والنبيذ إن أمكن. لكنَّ جرحه القديم لم يندمل تماماً، وجود رامي الصغير خفف من ألمهِ ونزقهِ لكنّه لم يستطع أن يمحوه، فهناك في القلب مكانٌ للحبيب لا يستطيع حبٌّ أن يصل إليه، لا ابن، ولا أب ولا حتى أم، ومكانُ هيفاء هناك في عمق قلبه بقيَّ شاغراً يشيرُ إليه جرحٌ ينزُ اسمها ذرةً ذرة إلى أن تتشكل حروفه ليدرك الرجل أنّهُ عاشقٌ بلا منتهى.

أمّا أم يحيى فأصبحت قليلة الكلام مع نفسها، لأنَّ تربية الوليد أشغلتها، لكنّها لم تنقطع عن عادتها تماماً والوقت يمضي والطفلُ يكبر بين حنان أمّه وعنايةِ أبيه.

القرية ١٩٨٨

يركبُ عزيز دراجته الجديدة. قميصه مفتوحُ الأزرار تماماً وصدرُهُ عارٍ مكشوف لهواء الربيع. يُسرعُ قبل أن تخرج بنات « البكلوريا «، يريدُ رؤية نسرين ويريد لها أن ترى رجولتهُ الباذخة، جسدهُ المتناسق، عضلات جسدِهِ البارزة، باختصار، يطمحُ أن يرى في عينيها نظرةَ إعجابٍ، لكن قبلَ أن يصل إلى المنعطف الذي تمرُّ منه نسرين، وقبل أن تصل نسرين، وصلت إلى يد عزيز رسالةٌ معطرة، ضمن غلافٍ أحمر مغلق بإحكام.

- يا ولد يا عزيز.... أخيراً أتت النظراتُ بمفعولها

- لكن من هذه الفتاة الصغيرة التي أعطتني الرسالة؟

وحكَّ ذقنهُ مفكراً ثُمَّ هرَشَ شعر صدرهِ، في هذه اللحظة بالذات وصلت نسرين التي لم تعرهُ نظرها، مع أنّهُ كان واقفاً، وبيده الظرف المعطّر، وأخذ يلوحُ به أمامها محاولاً لفتَ نظرها إلى أنَّ الرسالة وصلتهُ، غير أنها لم تلتفت حتى.....

ركبَ درّاجتهُ غاضباً، عندما وصل البيت دخل الغرفة بسرعة، وفتحَ الظرف... في داخلهِ ورقة بيضاء عليها كلمة واحدة « أحبك «.

للحظةٍ فكرَّ أن يمزّق تلك الرسالة وأن يمزّق صورةَ صاحبتها في مخيلتهِ إلّا أنّهُ توقفَ عند كلمة « صاحبتها « وفاجأتهُ الفكرة.... أمن الممكن؟!.... هل من المعقول... لا لا إنها هي... لا لا لم تبدِ أيّ إشارةٍ على أنها هي، رائحةُ العطر لطيفة، لكنّهُ عديم الخبرة فيما يخصُ العطور.

بدأ أمر الرسالة يشغلُ عزيز، وصارَ هاجسهُ خصوصاً بعدَ أن ذهبَ إلى المكان نفسهُ عدّةَ مراتٍ، دون أن يلحظ من نسرين أي ردّة فعل أو إشارة ولا حتى نظرة، هي لا تراه أبداً، لقد أصبحَ موقناً بذلك، لكن من تكون صاحبةُ الرسالة.

- يا إلهي أكادُ أُجن!

ليسَ هنالك من إشارة أو عنوان ولا..... لك عزيز انتظر قليلاً...

الطفلة التي أوصلت الرسالة، عليك أن تبحثَ عنها، عندئذٍ ستجدُ صاحبةَ الرسالة حتماً.

وارتاحَ للفكرةِ بعدَ ثلاثة أيامٍ من التفكير والغضب والحيرة التي تملكت كيانهُ تماماً.

قرر أن يبحث عن الطفلة منذُ الصباح، تبدو في الصف الثاني أو الثالث على الأغلب لذلك سينتظر أمام المدرسة تماماً وسيتفقد وجوه الطالبات واحدةً واحدة.

بعدَ أيامٍ من البحث وكان عزيز قد فقد الأمل في إيجاد تلكَ الطفلة، وفي حين انتظارهِ لها، وحملقتهِ في وجوه الفتياتِ الصغيرات، ونظراتِ المعلمّات والمعلمين الذين استهجنوا تصرُّفَ عزيز ووقاحتهِ، في اليوم الذي قررَّ فيه عزيز أن يعدِلَ عن الفكرة أنقذتهُ الطفلةُ نفسها برسالةٍ أخرى، نظر إلى الفتاة :

- من أنتِ يا بنت؟

- ما بقلك.

ومدت لسانها وتملصت من بينِ يديه وهربت بسرعة.

- تعالي إلى هنا يا بنت.

رمى الدراجة التي يستندُ إليها في وقفتهِ وركضَ خلفَ الطفلة التي بدأت تضحك... وتضحك فما كان منهُ إلّا أن جلسَ على الأرض واحتضنها وأخذ يضحكُ معها، إلى أن دمعت عيناهُ، فمسحت الطفلةُ دموعهُ بيدها الصغيرة، عندها لمحَ عزيز في أذنيها حلقاً على شكلِ صليبٍ صغير.

أفلتها من يديه، وقال لها :

- روحي يا عمو على بيتكن.... روحي.

- ألا تريدُ أن تعرف من أكون؟!

- لا... لا أريدُ أن أعرف...

مشت الطفلةُ بارتباكٍ وأخذت تبتعدُ عنه وبعد كلّ خطوة تنظرُ إليه باستغراب لكنّهُ صمَدَ أمام نظراتها مفتعلاً عدم الاهتمام، وعندما

تأكدت من أنه لا يكترث لأمرها انطلقتْ مسرعةً باتجاهِ الحي المسيحي.

تنهّدَ عزيز وللحظةٍ فكرَّ أن يمزّقَ الرسالة... إلّا أنّهُ عدلَ عن الأمر،

- وما الذي سيحدث إنّ قرأتها؟... هل سأقعُ في حبِّ من كتبتها؟!

- لمَ أنتَ خائف إلى هذا الحد يا عزيز، أنتَ لم ترها حتى... تعشقها.

- حتى لو رأيتها، فلن أعشقها... لا أريدُ أن أمشي في طريقٍ أعرفُ نهايتها مسبقاً،

- ونهايتها وخيمة

- اتفقنا إذن.

دسَّ الرسالة في جيبهِ ومضى، دخلَ الغرفة، فتحَ الرسالة وبدأ يقرأ:

- كتبتُ الرسالة بدموعٍ أذرفها كلّما رأيتكَ لأنني لا أستطيع أن أكلمك، ولا أن أنظر إليكَ كما أشاء وما أشاؤهُ كثيرٌ يا عزيز، فوق طاقتي وطاقتكَ لذلك كان عليّ أن أكاتبك. لا أريدُ أن تردَّ علي أو أن تحبني، أريدُ لكَ أن تعرِفَ أنّهُ في هذا العالم فتاةٌ تعشقكَ حتى الموت... حتى الموت.

..... وإن كان في حياتي ما يستحقُّ أن أعيشَهُ، فهو وقتُ – مهما بلغَ من القِصَر – أعيشهُ معك، لا أريدُ أن أفكر كيف ومتى وبالمستحيل، والممكن.... أريدُ أن أكون معكَ وحسب.

قبلاتي الحارّة، عسى أن نلتقي. / سنا / لا تنسى....

بقي عزيز جالساً بضعَ دقائق يقلّبُ الورقةَ بين يديه، ويتشمم رائحتها أحياناً.....

- من هي سنا؟... لا أعرفُ فتاةً بهذا الاسم! وكيفَ لها أن تحبني دون أن أعرف...

- إييه عزيز انسَ الأمر.

- معك حق... يجب أن أنساه... أصلاً أنا لم أشعر بشيء وأنا أقرأ الرسالة.

- كاذب

- لا... لا.... لم أشعر بشيء.
- متأكد؟
- بلى. شعرتُ ببعض الإطراء.
- فقط؟
- والتعاطف و.... جذبتني رائحةُ العطر بصراحة... إنها جذابة جداً.
- على أي حال انسَ الأمر.

بعدَ فترةٍ زمنيةٍ ليست بالبعيدة التقى عزيز بسنا، أو هي التقته... لا يهم فالمهم هو ماذا حدثَ بعد لقائِهما.... الذي لم يبقَ يتيماً وإنما بدأ عزيز يتحينُ الفرص للقاء ويحاول إيجاد ملاذٍ آمن لحبهما الذي استعَرَ كنارٍ أحرقتهما وصهرتهما معاً إلى أن بدأا يشعران أنهما كيانٌ واحد.

لكن هل هناك حدثٌ يبقى كما بدأ... أو يبقى على حاله؟.... لا أعتقد، فلا بدَّ من بدايةٍ وعقدة ونهاية، تلك الكلمة المخيفة، التي بدأت توجع قلبيهما المضرجين حباً كلّما تذكراها، وبعدَ كلِّ هجمةِ حبٍ لا تزيدهما إلَّا جنوناً، يذهبُ عزيز إلى البيت مطرقاً على غير عادتهِ، وتذهبُ سنا إلى البيت مرتبكة في بعض المرّات وفي مراتٍ أخرى، تجفف دموعها قبل أن تطأ عتبة المنزل، فحالةُ الانسلاخ والتمزّق هذه التي تشعرُ بها كلّما ابتعدت عنه تتعبها كثيراً، كلما ابتعدت خطوة ازدادت رغبةُ الاقتراب، وكلما اقتربت ذابت به، برغبته، بعينين شبقتين، وصدرٍ تحترقُ باحتضانهِ، وقفت أمام عتبةِ الباب تمسحُ دموعها...

- أين كنتِ حتى الآن يا بنت؟

رسمت الفتاةُ إشارة الصليب على صدرها....

- في الجوار... ماذا بكِ يا عمتي؟
- لا شيء لقد تأخرتِ.
- رأيتُ جورجيت في الطريق وتحدثنا قليلاً.
- ادخلي إذن وساعديني... أنا أعملُ منذُ الصباح وأنتِ تتسكعين مع الست جورجيت.

دخلت سنا إلى المنزل وجلست خلف ماكينة التريكو، وبدأت تعمل.

بقي العاشقان مدّةَ عامٍ تقريباً يلتقيان خلسةً عن الجميع يعيشان في الحبّ كلّ ما يمكن أن يعاش... كانا جريئين كطفلين كبيرين لم يعرفا بعد معنى الخوف، لكنَّ سنا كثيرةُ التساؤل، فيما لو اكتشف قصتهما أحد.

- ماذا سيحدث يا ترى؟

- لا تفكري كثيراً.

- أتصدّق يا عزيز، أحياناً أفكر جدياً في إخبار عمتي، وليكن ما يكون.

- اصبري بعض الوقت... لا تستعجلي النهاية.

قال ذلك وهو يداعب شعرها وقد وضعت رأسها فوق صدره

- قد تكون بداية...

رفعت رأسها ونظرت في عينيه تبحثُ عن أملٍ لربما اختبأ في إحداهما...

- لا أعرف، في داخلي جنونٌ يتقد، أرغب في الصراخ وإخبار الجميع... أرغبُ في الحديث عنكَ دائماً.... لا أطيقُ الكتمان....

ترى هل كان أحدٌ يراقبهما؟

ربما....أو غالباً ففي الأوقات التي نعتقدُ أن ما من أحدٍ يراقبنا أو يرانا، ما من أحدٍ يعرفُ سرّنا، سنكتشفُ ما هو مغايرٌ لذلك كليّاً مهما كنّا حذرين، ومهما بدت لنا استحالة الأمر جليّة تماماً إلّا أنَّ حدوث هذه الأمور غالبٌ بالتأكيد.

صحيح أنّ العشاق يتوقون إلى العلن مع أنهم يلفلفون الأسرار داخلهم وقد توجعهم في حينِ أنها تسعدهم مع ذلك توقُ البشرِ للوصول إلى نهايةٍ ما قد يدفعهم لارتكابِ حماقاتٍ تجعلهم يدركون ختام قصتهم، فذلك أفضل من عذابِ التأرجح داخل متنها...

وذلك كما حدث مع أبي. أبو عزيز العاشق الذي حفظ خطّ سير معشوقتهِ ميروشا ولم يستطع أن يحفظ بضع كلماتٍ بالروسيّة.

وقفَ أبي خلفَ شجرةِ « الديس « قبل موعدِ مرورها من هناك، اختبأ، وبقي ساكناً كقطٍ يتحين فرصة انقضاضهِ على عصفورٍ غافل... كنتُ خلفَ أعواد القصب أجلسُ كعادتي في منتصف الطريق بين منزلنا ومنزل حياة أنظرُ الغيم وأجمع الفطر الذي أعشق رائحتهُ ومذاقهُ، لكن الغريب أني رأيتُ والدي يختبئ هناك إلّا أنني لم أقترب منهُ أو أكلمهُ، شيءٌ ما منعني عن الاقتراب منهُ، عن مناداتهِ، عن النظر في عينيه، وعن رؤيته لي لآخر مرة قبل أن يفقد بصرهُ في ذلك اليوم.

بقيتُ هادئاً في مكاني، لم أتدخل في حتمية القدر.

أطّلت ميروشا من بعيد بثيابها السوداء وشعرها الأشقر، فرفع أبي رأسهُ، ينظر إليها من بعيد كواحدٍ من الرعايا يطالعُ إطلالة ملكتهِ فيحتارُ بين التمتع بمحياها والخفر أمام جمالها، وعندما صارت قريبةً من مخبئه خرجَ إليها مسرعاً متلعثماً.

ميروشا... أحُبكِ، أرجوكِ اشعري بي... وأخذ يضرب صدرَهُ مكان القلب ويقول :

- هنا قلبٌ وليسَ حجر... أرجوكِ قولي إنكِ تشعرين بي...

وسطَ ذهولِ المرأة ومحاولاتها التملص من يديه، رأيتُ جفن ينطلقُ كالسهم يحملُ حجراً كبيراً ويضرب أبي على رأسهِ من الخلف، فيسقط أبي على الأرض، ليبصق جفن فوقَ جسده الهامد.

جذب الفتى والدتهُ من يدها وأخذها بسرعة آمراً إياها أن تذهب إلى البيت.. بكت المرأة، كانت هلعةً جداً وكادت تولول إلّا أنَّ الصبي أطبق يده على فمها وجرّها باتجاه منزلهم ؛ أمّا أنا فشعرتُ بقشعريرةٍ تسري في جسدي وتصيبُ قفا جمجمتي، ركضتُ متعثراً بقدميَّ، وتفحصتُ أبي فوجدتُ بقعةً كبيرةً من الدم حول رأسهِ، لكنهُ يتنفس.

بدأتُ أصرخ، لكن ما من مجيب سوى جفن الذي انطلقَ محاولاً

مساعدتي!..

- ما الذي حدثَ لوالدك... من ضربهُ هكذا... قلي ما الذي حدث؟

-.....

بقيتُ صامتاً أنظرُإليه بدهشة، غير أنه وقف في منتصف الطريق أمام سيارة وناشدُ سائقها أن يقلّنا لإسعاف والدي...!!!

بعدَ ذلك اليوم... اختفت ميروشا تقريباً، وانتهت موضة دروس اللغة الروسيّة، سمعتُ أنها بقيت حبيسة منزلها منذُ ذلك الوقت، ومنذ ذلك الوقت فقد أبي بصرهُ وتحوّل إلى شخصٍ آخر، يصمتُ طويلاً، وإن تكلم يصرخ ويشتم، ثمَّ يصمت، ويتحدّثُ ثانيةً ليطلب من أمي طلباتٍ تعجيزية، كأن تطبخ له « الكبّة « بالحليب بدلَ اللبن... الخ. وأظنُ أنه ما عاد يرى في روسيا قوّةً عظمى، دونها يؤول حال سورية إلى خراب. لأنهُ يوم جاء أبو يحيى لزيارةِ والدي بعد تلك الحادثة، صمتَ والدي عندما فتّحَ الشباب سيرة انهيار الاتحاد السوفييتي الوشيك وتبعاتِ ذلك على العالم بما في ذلك سورية.

السعودية ٢٠١٥

على مدى ثلاثةِ أيام تنافست القنواتُ الفضائية على عرضِ مقطع فيديو مصوّر، لرجلٍ أسمر، يقسمُ خط النار أرضهُ إلى قسمين، كانت الجهة الشرقية من أرضهِ للجيش السوري والغربية للجماعات المسلحة.

لم يفهم الرجل لمَ عليه أن يترك أرضهُ لتصبح ساحةً للمعركةِ، وأن يغدو أمانه مأوىً للحرب والدمار، ولماذا عليه أن يرمي ذكرياتِ طفولته وشبابهِ جانباً أو تحت جنازير الدباباتِ، أو لتقتنصها طلقاتُ القاذفاتِ، وتقتلَ كلَّ ما تبقى من روحٍ داخلهُ عندما تحرقُ الأشجار التي زرعها شجرةً شجرة وجلسَ في فيئها، وكتبَ على جذوعها اسم حبيبته، ولا تزال تحملهُ، مع أنه نسي أنه في غمرةِ الحب حفرَ حروف اسميهما في معظم جذوع أشجار كرم اللوز.

إنها الأرض التي دمغت جسده بلونها ورائحتها، هي روحهُ، فكيفَ له أن يعيش بلا روح؟!

سكانُ القرى المجاورةِ بدؤوا بإخلاء منازلهم. وموتٌ بأشكالٍ كثيرةٍ أصبحَ وشيكاً.

الحياةُ تخسر مهزومة أمامَ حذقٍ للعبثِ فريدٍ من نوعهِ.جنون السطوة اغتصبَ الأرض التي تعبق بأرواحِ من تركوها.

- اترك كل شيء وهاجر.

- لماذا؟

- سيحرقون الأرض بمن فيها.

- فلنحترق معاً إذن، لن أختبئ وأتركها تموت أمامي أو خلفي، لن أديرلها ظهري، سأموت وأنا أحتضنها.

- كفاك وطنيات، ما الذي أخذتهُ من الوطن سوى الظلم والمهانة؟

- وما الذي أخذه مني؟ ما الذي استطعت أن أقدّمهُ له، الآن وقد جاءت الفرصة لن أهرب أبداً.... سأبقى في منزلي، وليكن ما يكون.

- غبي.
- جبان.

وبقي عزيز في منزلهِ حين خلت القرية من سكانها تقريباً، يسمعُ كلَّ يومٍ عن حالات اختطاف للأطفال والنساء والرجال أيضاً، ويسمع أيضاً أصوات آلات الحرب التي لم تتوقف لا ليلاً ولا نهاراً، بدأت القذائفُ ترتطمُ بالقرب من بيت التبن (بيت الذكريات) إلى أن طالتهُ واحدة في المنتصف، وبدأ التبن يتطايرُ على شكلِ زوبعة حركت كلّ ما كان قد رماهُ عزيز في ظلمة ذكرياته، لم يستطع أن يتفادى الذكرى ولا أن يكتم أنينهُ ودمعهُ وأسئلتهُ التي اختصرها في سؤالٍ واحدٍ...

خرجَ متجهاً نحو الغروب الداكن المختلط دخاناً وغباراً ودماً، لم تكن في ذهنهِ أي أفكارٍ واضحةٍ، كل ما كان يريدهُ هو لقاءٌ حتى وإن كان أخيراً مع أرضه، مع كلّ شيءٍ فيها.

كنتُ أنظرُ إلى الفيديو، ولا أصدق ما أرى، كان يمشي في الأرضِ أعزل والرصاص ينهمر من حولهِ، يسيرُ برجلين حافيتين يتلمس التراب بهما، تعلو وجههُ ابتسامةُ انتصارٍ ربمّا على الموت أو الحرب....

أو أيّاً يكن، المهم أنّهُ يشعرُ بذلك، ربمّا لأولِ مرةٍ بعد خيباته المتوالية منذُ خمسةٍ وعشرين عاماً إلى اليوم.

جميعُ من شاهدوا الفيديو ظنوا أنّ عزيز مخمور أو أنه تحت تأثير جرعةٍ عاليةٍ من المواد المخدّرة ليفعل ما فعل، ليمشي هكذا في عاصفةِ القذائفِ تلك ؛ إلّا أنني عرفتُ أنه لم يكن مخموراً، بل في كاملِ وعيهِ، عرفتُ أنّهُ سعيدٌ لأنني أكثر من يقرأُ عينيه.

حدّثني قبل يومين على « المسنجر» بقيتُ أنظر إلى وجهه وأتحسس ملامحه، كنتُ مشتاقاً إليهِ، لم أسمع معظم أحاديثه كعادتي، لكنني قرأتُ في عينيه اكتشافاً جديداً، قد توصل إليه، إنها النظرة نفسها التي تسبقُ أعمالاً اعتقدنا أنها جنونية له لكن غالباً ما كان ينتجُ عن جنونهِ ما يدهشُ الجميع بعظمتهِ، لا يزالُ كما هو يومَ كان شاباً مغروراً جامحاً

مرغوباً، تلاحقهً عيون النساء وغيرةُ الرجال منه.

تحدّث عنه الجميع... العالمُ كله يتحدّث عنك الآن يا عزيز وأنتَ مستلقٍ في دفء دمكَ المختلط بترابك، بجسدكَ، بذكرياتك..... بسعادتك.

وصلَ عزيز إلى المنتصف تماماً ووقف فارداً ذراعيه، حاولَ أفرادُ الجيش إخراجهُ من هناك لكن عبثاً.

إلّا أن جندياً استفزَّهُ المنظر، فقام بتصويره ليحصدَ جائزة أفضل مقطعٍ مصوَّر لهذا العام.

صرخ عزيز ليسمعهُ الجميع.... الجمييييع :

أنا هنا.... في أرضي عشتُ وسأموت، الأرضُ تعرفُ أبناءها وهي ستحسم أمر المعركة.

يوماً ما ستلفظ من ليسوا منها، ستخنقهم بترابها، وستغرقهم بأنهارها وبحارها.

أما أنا فمنها ولها، ولن أرحل، قولوا لها... قولوا لكم.

قال كلماتهُ الأخيرة بعدَ أن أصيبَ وبدأ الدمُ ينزف من عدّةِ أماكن في جسدهِ، وكنتُ أنزفُ دموعي وأنا أشاهدهُ.

مات عزيز، وربمّا عاش، لأن كثيراً ممن شاهدوه هتفوا : عاشَ عزيز....

لكنني بقيتُ وحيداً...

أجل وحيد... معهُ حق عزيز؛ لم أكن صديقهُ في يوم، ولم أقل له كم أفتقدهُ، وأنه كلّ ما تبقى لي... لماذا لم أنتبه أن ما من أحدٍ لي، لأنني لم أعرف كيف أكون لأحد.

فعل عزيز كلَّ ما بوسعهِ كي أفهمهُ أو على أقل تقدير كي أستمع إليه غير أني كنتُ هائماً في حياة صارّت كلّ عالمي، ولا أدري إن كانت ستبكيني إن متّ كما أبكيه أنا الآن، كما أفتقد أدق تفاصيل وجهه وصوته وعينيه اللوزيتين، اللتين أحسنتا اختيار الرفقة، فالأرض هي الوحيدة التي

احتضنته بعد خروجه من السجن، هي الوحيدة التي لم تقسُ عليه، لم تنبذه ولم تهجره، بل أينعت بين يديه، فاختار صحبتها أبداً.

أخذتُ أمشي في البيت كمجنونٍ يرتطم بالجدران، لم أستطع الحفاظ على هدوءٍ رزين أمام نفسي على الأقل.

- إهدأ أرجوك.

- حياة.... حيااااة أنا أموت، روحي تغادرني.

- لا أنت حيّ وأنا ما زلتُ موجودة.

- ماذا تقصدين؟

- دائماً تناديني: « يا روحي».

ابتسمت حياة عندما نظرت في عينيّ الحائرتين فيما يحدثُ أمامهما كل يومٍ، بما تريانهِ من ألوانِ المشاعرِ، كل شيء اختلط في كلّهِ أمامي وليسَ لي من موقف سوى الدهشة. وبالنسبة لموقف عزيز فقد حاولت الأطراف المتحاربة تجييرهُ، كلٌّ لمصلحتهِ، الجماعاتُ المسلحة استعرضتهُ على أنّهُ مواطنٌ صالح دفعت به الحكومةُ إلى أن ينتحر بنيرانها، والحكومة تحدثت عن وطنيةِ عزيز وأنّهُ أبى أن يترك أرضهُ للجماعاتِ المسلحةِ، كما فعلَ غيرهُ، وأنَّ الحرب التي افتعلتها تلك الجماعات هي من قتلت عزيز.

ولمَ لا.... فالناسُ لا يموتون فقط بنيران الحروب حينَ تنشب حربٌ في بلادهم، لكنهم قد يموتون كرهاً وحقداً، حزناً، قهراً، فضولاً...

- لكن عزيز ماتَ حبّاً، وهذا ما يخفف عني يا حياة.

- وأنت؟

- أنا أعيشُ حباً.

أدرتُ ظهري للعالمِ كلّه الذي وقفَ فاغرَ الفم أمامَ موتِ أخي وعانقتُ حياة وبكيت على كتفها طويلاً من الوقت.

- لا تبكِ.

- لم؟.... دعيني أبكِ... الأميركيون يبكون لمشاهدة عزيز! الناسُ في روسيا، في إيران، في الصين.... لكن لم تسجل حالات بكاء في إسرائيل!...

أليس كذلك يا حياة؟

هل سَجلّت القنوات الفضائية حالات بكاء في إسرائيل؟

- لا.... في إسرائيل لم يتعلموا البكاء.

- لماذا؟

- لأن البكاء فعلٌ إنساني.

- إجابة مفحمة حقاً!

- تعال نخرج للتمشية في شارع الحوامل، سأضع بطناً اصطناعية وأمثلُ أني زوجتكُ... هيا لنخرج معاً.

- أفكرُ في الذهاب إلى القرية.

- اذهب إن شئت ذلك، لا تترك الرغبة عالقة في داخلك.

- حسنُ سأفعل... تعالي نخرج يا زوجتي اتكئي على ذراعي....

ضحكنا كثيراً في ذلك اليوم، كان الناس ينظرون إلينا بدهشة، ربمّا لأن الضحك سلعة مفقودة هناك، أو لأن حياة تسير متعلقةً بمرفقي وهي سافرة الوجه وشعرها يتطاير في الهواء الرطب، ضحكتها تصدح فينتعشُ البحر ويعلو الموج.

- لماذا لا نفترش البحر الليلة؟

- حيااااة.... أرجوكِ... أنا مجنون وأفعلها....

- افعلها.

ركضتْ أمامي، ألقت بشالها الوردي فوقَ الموج واستلقت،تبعتها بدوري وفعلتُ كما فعلت...

كان الموجُ يلفنا بحنو، يداعبُ وجهينا، يخلطنا معاً ويسكبنا في كأسٍ يقدمها للغروب.

سمعتُ أصواتاً تنادي : عد يا مجنون.... عرفتُ أنني المعنيُّ، لكن ليس هنالك من سبب لأعْدِلَ عن جنوني، فانطلقتُ يقودني الهوى المعتق في البحر المحايد.....

- دكتور عبد الله؟!!

- حمداً لله على سلامتك... نجوتَ بإعجوبة
- كيف وصلتُ إلى هنا؟!
- أنا أريدُ أن أسألك السؤال نفسهُ.... ألا تعرف خطورة وضعك؟ كيفَ تقدم على هذه التصرفات؟... ألا تخاف على حياتك؟
- حياتي؟!! أي والله أخاف عليها كثيراً.
- إذن انتبه لها.
- حسنٌ.

القرية ١٩٨٩

يسمعُ يحيى صوت « مارسيل خليفة» من بعيد : (وهيفاء في الدار... في لوحةٍ في الجدار.....)، يعلو الصوت وينخفض، تعبق بأنفه رائحة العرق والنبيذ المحليّ...

يشعرُ بالغثيان، يتعرق.... هيفاااا هيفا.... صوتُ أمِّهِ تبكي، فصوت أبيه يصرخ،

سنا تلوح بيدها والعشبُ شديد الخضرة، تركضُ بعيداً عنه مشيرةً بيدها : أن اتبعني، فيركضُ خلفها، يركض ويركض، ليجد نفسهُ لا يزال في مكانه، وسنا أصبحت بعيدةً... بعيدة كنقطةٍ في المدى، ثم اختفت.

استيقظَ وقد تقطعت أنفاسه، وتصاعدَ لُهاثهُ. رمى الغطاء عنه جانباً ووثب مسرعاً خارجَ الغرفةِ عندما سمعَ صوتَ شجاروالديه :

- أنتَ تشربُ ليل نهاريا مخائيل وهذا لا يجوز.
- لا تتدخلي فيما لا يعنيكِ.

وجرعَ من زجاجةِ نبيذٍ ثم ضربها على الطاولة بنزقٍ.

- وكيفَ لا يعنيني... أنا زوجتكَ أمُّ أولادك!
- يا مخلوقة... اتركيني... لماذا تستكثرين عليَّ أن أنسى؟
- تنسى؟!... وتقولها هكذا من دون خجل؟!
- إلى أين ذهبَ عقلكِ أين؟... أتحدثُ عن أمي ووفاتها...
- لو علمت أمك بحالك لغضبت عليكَ في قبرها.
- لا تقولي لها إذا هههه....أنا ذاهبٌ إلى البستان...أرسلي لي طعام الإفطار مع يحيى.

كان رامي لا يزال نائماً... نظر إليه يحيى فوجده متورد الوجنتين مبتسماً، فقرصهُ من وجنتهِ، حاول الطفلُ أن يتملص إلّا أن يحيى بدأ يدغدغه.

حرَّك الطفلُ رجليه في الهواء كمن يقود دراجة، ونهضَ بسرعة.

انقضَ على يحيى يلكمهُ على صدره وبطنه، أما يحيى فعضهُ من أنفه الذي بقيَّ محمراً لبقية النهار. وكان يحيى كلما وقعت عيناه على أنف رامي يضحكُ منتشياً، ويقول :

- أحبَّ اللون الأحمر

- شرير.

- أحبكَ يا ولد.

- كاذب.

- تسطفل لا تصدق...

ويتصنعُ الامتعاض، وينظرُإلى رامي بطرفِ عينه ليجد على ملامحهِ أمارات الندم، فيبتسم في سّرهِ، فقد حصلَ على ما يريد.

- آسف.

- اتركني.

- آسف يحيى.... آسف آسف آسف.

- أحبكَ حقاً.

- أكثر من كلِّ الناس؟

يغمض عينيه على صورتها التي لم تفارقهُ مذ رآها أولَ مرّةٍ، منذ تلك النظرة، وهوواقفٌ في الحبِّ، عالق مكانهُ.

- أجل أكثر من كلِّ الناس.

- يعني أكثر من عشرة؟

- أكثر بكثير!

- اثنا عشر أم ثلاثة عشر؟

- مليون؟

- ماذا يعني المليون؟

- رامي اسأل أمي...أنا ذاهبٌ إلى البستان، هل تذهب معي؟

فكرَّالطفلُ قليلاً، لكنه بدا غيرمتحمس، إذ يريد اللعب بالدراجة، فهذا أكثر متعة.

- لا.

أم يحيى لا تزال جالسةً في المطبخ، نظرَ إليها يحيى وأشفق عليها عندما رأى عينيها المحمرتين :

- أمي، ما بكِ؟

- لا شيء يا عزيزي... ما بكَ أنت؟

- أنا؟!

- أتظنُ أني لا أشعر بك؟... أنتَ حزين أليس كذلك؟

- ليسَ كذلك... أنا حائرٌ بعض الشيء.

- فيمَ؟

- أمورٌ كثيرة لا أستطيع أن أحسِمَ أمري فيها...

- سنا؟

- سنا وغيرها..

- ما رأيكِ أنتِ؟

- رأيي أنكَ تُحبها.

- وماذا في ذلك؟

- لا شيء... أنت تحبها، وهذا يكفي.

- حسنٌ أمي، أعطني الزوّادة سأذهبُ إلى أبي.

قبل أن يغادر المنزل نَظَرَ إلى أمهِ وغمزها قائلاً :

- أبي طيبٌ جداً يا أمي، وحنون.

بقيتْ صامتةً وكأنها تهيمُ في عالمٍ آخر...

تابع يحيى طريقهُ وقد وجدَ في السير وحيداً فرصةً كي يخلو بنفسهِ، فهو على مفترق من كلّ شيء، وطرقهِ تتوازى ولا تتقاطع... فقط لو أنّها تتقاطع في نقطة لكن عبثاً...

- عليَّ أن أحسم أموري خلال أيام، فإمّا أن أبقى وإمّا أن أرحل. لكنَّ سنّا تتحاشى الاقتراب مني، فتتحاشى التواجد معي منفردين، أريدُ أن أعرف إن كانت تشعر بي... معي

- كلَّ ما كانت تفعلهُ في السابق يدل على أنها تحبني أو على أقل تقدير معجبةٌ بي.

- أنت قلت : في السابق

- تُرى ما الذي غيّرها...؟

- ما غيّرها هو ما غيّرك..

- العشق؟

- العشق.

مشى يحيى على مَهَلْ... على قلق... كانت السماء داكنة وما من رغبةٍ للشمس بالنهوض، كما حاله هو ؛ فمنذُ وقتٍ وهو يستثقلُ استيقاظه، يبعده، يرميه خلف حلمٍ ما أو يغطيه بذكرى يحاولُ أن يخنقهُ بالوسادة، إلّا أنه دائماً يأتي ليجدَ يحيى نفسهُ في مأزقِ الصباح في مطبّ التفكير... أصبحَ يخاف أن يكون وحيداً فالعزلة تولّدُ عواطف هو في غنىً عنها الآن، خصوصاً في هذه المرحلة، فالتنظيم في طريقهِ إلى مرحلةِ اكتمالٍ تزيدُ من مهماته كمرشحٍ لشغلُ مركزٍ مهم، لم يكن المركزُ مهمّاً بالنسبةِ لهُ، بل كانت المهمّاتُ الملقاة على عاتقهِ، فهو يخططُ منذ زمن ليغيّر ولو قليلاً في هذا العالم إلى الأفضل، يريدُ أن تكون لهُ لمسةٌ بسيطةٌ يتركها في هذا العالم، لمسةٌ لا تخلو من قناعاتهِ التي تعِبَ إلى أن رسّخها في داخلهِ.

فقد قرأ كتبَ التاريخ، كتبَ الأدب، الجغرافية، الماورائيات، الفقه الإسلامي، علوم اللاهوت....

لم يكن يقبلُ بأن يقبلَ فكرةً أو يرفضها دون أن يدخُل عمقها، إلّا أنهُ في الحبّ فقط لم يكن مخيّراً... تذكر الخطابات التي ألقاها على الأفراد الجدد، وكيفَ وقف أمامهم بكلّ حماسٍ يتحدثُ عن العزيمة،عن تحقيق المعجزات بإيمانٍ وصبر، وعن طرق التفكير الصحيحة، عن الأبطال الخارقين، وقصصهم، انتصاراتهم الخيالية.... وكيفَ يشعرُ بأن دمهُ يغلي فيه وفيهم، وتذكرَ أيضاً أنهُ يصبحُ كمنديلٍ في يدها من دون إرادة إلا منها،

فإن أرادت رمتهُ في القمامة، وإن أرادت عطرتهُ ووضعتهُ في كتابٍ عن الحب مع أنها لا تحبُ الكتب. لكنها قد تترفق بحالهِ وتضعهُ في مكانٍ يحبهُ.

- كتابٌ عن الحب؟!

- أنا قرأتُ كثيراً من الكتب ما عدا كتب الحب!

- ما من حاجةٍ لقراءتهِ.

- لماذا؟

- كل شخصٍ له كتابهُ الخاص به، هو فقط من يكتبهُ، قد يكون كتاباً سميكاً بصفحاتٍ لا تنتهي، وقد يكون مؤلفاً من بضع صفحاتٍ فقط.

فكرَّ يحيى في قصةِ حبّهِ تُرى من أي نوعٍ هي؟... يا ليتني استطعتُ أن أجِدَ في أحد الكتب ما يعلمني الغيب....

تنهدَ وتابعَ طريقهُ، كان عزيز يعملُ في الأرض، يرتدي قميصاً أزرق مفتوح الأزرار بحيث يظهر بطنهُ وصدرهُ، رآه منهمكاً في العمل، يحفرُ هنا، وينقلُ خراطيم الماء هناك، وبعد قليل ركبَ الجرّار وعندما ارتكز على مقعدهِ وقعت عيناه على يحيى فرفعَ يدهُ مسلماً بحرارة.... ابتسم يحيى وتابعَ طريقهُ رغمَ أنَّ رغبةً في داخله قد نازعتهُ أن يتحدثَ إلى عزيز عمّا يعيشهُ ؛ هو صديقهُ منذ الطفولة، وذلك على الرغم من اختلاف شخصيتهما، إلّا أنَّ مودّةً متبادلة قد جمعت بينهما ومع ذلك لم يستطع أن يتحدّث إليه، فلربما لن يفهمهُ، عزيز يفكر بطريقةٍ مختلفةٍ تماماً قد يسخر منهُ، وربمّا ينعتهُ بالمخنث إذا عرفَ بالأمر.

- هل تعرف يا أبي أنني لم أستفد شيئاً مما قرأتهُ طوال تلك السنين!

- كيفَ لا؟

- ابنكَ عاشق يا أبا يحيى وواقعٌ في الحيرة، عاشقٌ لفتاةٍ عاديّةٍ لا تأبه له ولكتبهِ، وربمّا لا يعنيها قلبهُ وما يثورُ في داخلهِ من جنون، لم تستطع العقول التي ألّفت تلك المؤلفات كلّها أن تخمد ناره بأفكارها، ولا

أن تعلمه كيف يتحكم بنفسه.

كان الأبُ يستمعُ باهتمامٍ وقد نفضَ التراب الذي علق بيديه، ثمَّ بدأ ينكشُ أظافرهُ ببعضها، ويستمع.... أنا كأي شخصٍ أميٍّ أفكرُ بها ليل نهار، وقد أنام ولا أنام إلا لأحلمَ بها، كأيّ شخصٍ غرائزي أشتعِلُ رغبةً في جسدها، وأنتشي بضحكتها، وقد تكفيني ابتسامةٌ لأعيش عمراً بها ولأموت بعدَ ذلك.

- تعتقد أنّكَ صرتَ شخصاً عاديّاً يومَ عشقت؟

- ليس بالمعنى الدقيق.... أشعرُ أنَّ طريقي في العشق تشبهُ طريقة أي شخص.

- وهل تعرفُ كلَّ طرقِ العشق التي تخصُّ الآخرين، والتي قد يختصون بها؟

- أبي، ما هذه الأسئلة؟... أنا فقط كنتُ أظن أنَّ عشقي سيكون مختلفاً بعضَ الشيء

- لماذا؟

- لأنني مختلفٌ... لدي مشروعٌ مهمٌ في الحياة، تعبتُ في البحث عن الطريق الصحيحة التي يجب أن تمضي إليها حياتي، وعندما وجدتها، تعثرت بالحب وهكذا....

- الحب كالموت يتساوى فيه الجميع.

نظرَ أبو يحيى إلى السماء وكانت أشِعةُ الشمس تحاولُ التملّص من عمقِ غيمةٍ، لكنها لم تفلح، كأحيانٍ، وقد تفلحُ أحياناً كأحيان.

لم يعرف يحيى ما السّروراء حزن أبيه وتقلّبِ مزاجه، عرفهُ حنوناً، متسامحاً وحكيماً في أمورٍ كثيرة، تعلّم منه الكثير وورثَ حبّهُ للقراءة، لكنّهُ بدأ يشعرُ أنّهُ ورثَ أكثر من ذلك، تُرى هل يكون والدي مهزوماً في معركةِ عشقٍ مثلي أم ما زال في أرضِ المعركةِ ولم يحسم النزال بعد، تُرى هل يقاتلُ نفسهُ كما أنا؟ أم يقاتلُ عثرات الحظ والزمن؟

فكرّعزيزوتساءَلَ، فيما كان يرى والده ينتقلُ من شجرةٍ إلى أخرى،

يحفرُ التراب ويقتلعُ الأعشاب الضارة، قد تسقطُ كوفيتهُ دونَ أن ينتبه إلى أن شيئاً ما سقط، وقد ينسى أن يفتح الزوادة التي اعتنت بإعدادها زوجتهُ، وكأنّهُ لم يرجعها كل يوم دون أن يمسّها، قد يزداد سعالهُ، وقد يبتعد عن أصدقائهِ الذين يحبون السَهَر معهُ ولربما يلحظُ الجميع أنّهُ يزداد تحولاً، إلّا هو قد ينسى كلامهم وأصواتهم، قد ينسى العالم كلهُ، لكنّهُ لن ينسى المكان الذي أودعَ فيه قلبه: هيفا هيفا، يردد الأغنية ويحفرُ التراب.....

السعودية ٢٠١٧

في العام الماضي، وبينما أنا في مكتبي وصلتني رسالة على الواتس أب، والرسالة من رقمٍ غريب، ويبدو أنّهُ من دولةٍ أخرى، كان جلّ اهتمام المرسل هو: إقناعي بفضائل الانضمام إلى الدولة الإسلاميَّة، واستعراض صورٍ للعذاب والمهانة التي يعيشها المواطن السوري في بلدهِ، وخارجها في ظلِّ هذه الظروف، ولفَّ المرسلُ و دارَ، تطرّق إلى الفقر والمرض، إلى انعدام الطبقة الوسطى وتسلّط رجال الدولة على موارد المال في الدولة، وسيطرة الفقر على الطبقات الشعبية، تحدّثَ عن الطوائف ومشاكلها وسيطرة طائفةٍ واحدةٍ على الدولة، بدأتُ أشعر بالدوار وأنا أقرأ كلامه الذي اجترتهُ وسائل الإعلام على مدى خمس سنواتٍ دون مللٍ منها إلى أن أصبح يعطي عكس المفعول الذي ترتجيه.

انتهت الرسالة بالسلام الشرعي، ورجاء الرد والتفكير، ومن ثمَّ القبول.

بقيتُ جالساً في مكاني، وبيدي هاتفي النقال الذي انطفأ متجاهلاً نظرة الدهشة التي ارتسمت على وجهي عندما أعدتُ قراءة الرسالة، ففي المرّة الأولى كنتُ مشغولاً بمعرفةِ مسبب إرسالِ هذه الرسالةِ لي، أمّا في المرة الثانية، عرفتُ أن هناكَ شخصاً أراد لي أنا بالذات أن أقرأها... لسببٍ أو لآخر... أجل كنتُ أجهل السبب لكنني بدأتُ أشعرُ بيقينٍ أن هذا الشخص هو برهان، أو على أقلِّ تقدير، هو شخصٌ يعرفُ برهانَ جيداً، كانت جملةً واحدةً كتبها عن النظام السوري قال : « يتبرزون خلف القصب في قراهُم ظانين أنَّ لا أحد قد رأى مؤخراتهم القذرة. هذه العبارة يرددها برهان دائماً ويضحك، عندما يرى العابرين يتوارون خلف القصب، وكان برهان يجلسُ خلف صخرةٍ كبيرةٍ تطلُّ على دريئتهم، وكان ينتشي على مشاهدتهم خلسةً، ويسقط على الأرض بفعلِ نوبةِ ضحكٍ تسببَ فيها المشهد، يصطادهم كلما سنحت لهُ الفرصةُ بذلك.

إذن هذا الشخص يريدني أنّ أعرف أنهُ يعرفني، ولولا ذلك لما ألمَّحَ بهذه العبارة، لكن لماذا يريدني أنّ أعرف، ألأثقَ بهِ! فاستجبتُ لدعوته في الانضمام إلى داعش، أم هناك هدفٌ آخر، أين برهان الآن، وكيف غفلتُ عن البحث عنهُ طيلةِ ثلاث سنوات؟

في الحقيقة بحثتُ وسألتُ كلَّ شخصٍ يعرفهُ في السعوديَّة، غير أنَّهُ اختفى، وكأن أبا حذيفةَ هذا قد وضعهُ في جيبهِ وأخذهُ إلى مجاهل الدنيا، أو أنهُ وضعه تحت إبطهِ، وحينَ أخرجهُ ووجد برهان نفسهُ وقد وجد مخبأً تحت إبطٍ ما فعاد واختفى تحتهُ، فلمن يظهر؟ ولماذا؟

قبل أن يختفي أصبحَ باهتاً تعباً حاقداً على الحياة وكلِّ ما تحملهُ من نظريات الوجود، ربما اعتبر أن وجودهُ في مكانٍ آخر قد يحملُ معنىً للوجود، فغادرَ صامتاً.

لكن لماذا يعود الآن، وما الذي يريدهُ مني؟ وإذا كان قد انضمَّ لتلكَ الجماعة فكيفَ يعتقدُ أنّي قد أفعلَ ذلك؟

كلَّ ما جاءَ في تلك الرسالةِ لا يعنيني، ما عدا حضورهُ فيها، فمع مرور الوقت أصبحتُ وحيداً لا أفعلُ شيئاً سوى الحديثِ مع حياة، والنوم، وممارسةِ الرياضة على أجهزةٍ معدنيةٍ.

صرتُ أحدثها أحياناً، عرفتُ أنّي أضفتُ إلى فقدي فقداً جديداً واشتياقاً مؤلماً إلى قائمةِ اشتياقي، وخسارةً مجانيةً إلى ما خسرتهُ في حياتي، أرادَ أن يقولَ لي أنه يختبئ في غيابٍ ما... خلفَ مجهولٍ من جدار البعد... ولكن ماذا عليّ أن أفعل، هل أرتدي انتظاري، وأتشبثُ بهاتفي الخلوي أثناءَ نومي علَّهُ يحملُ لي رسالةً جديدةً، وماذا لو كانت هذه الرسالةُ قد أُرسلت بشكلٍ عشوائي لغيري، ماذا لو لم أكن أنا المقصود بها.

قررتُ أن أنسى أمر الرسالةِ وأن أتمتّع بالحديث مع حياة بصوتها، وجسدها الذي لم أستطع رؤيتهُ إلا من خلال شاشة هاتفي، وذلك يومَ قررتْ أن تخلع ثيابها أمامي في نوبةِ شبقٍ، وقفتُ أمامها ذاهلاً، لم أستطع اختيار شكلٍ لائقٍ لاستجابتي غير الحملقة وفغر الفم الذي نسيتهُ مفتوحاً

أمام رؤيةِ أجزاء جسدها تتعرى تباعاً... ينبضُ قلبي بقوةٍ فبطء... بطء شديد، يصبح ثقيلاً وكأنهُ امتلأ ماءً أو أيّ سائلٍ لزجٍ ثقيل، النفطُ مثلاً... هذا جيدٌ يا حياة، على الأقلّ أنا أشعر بأكثر من وجودكِ، بدأتُ أشعرُبي، بضعفي أمامكِ، أمام كلّ شيءٍ تفعلينهُ بكلّ بقسوةٍ، تضحكينَ بمنتهى الرقة فتثيرينَ فيَّ العواصف، تتكلمينَ عذوبةً صرفة لا يشوبها سوى صوتِ أنفاسكِ المغمسة برغبتكِ، قبل النهاية...على وشكِ نهايتي بقليل، تتركينَ لي قليلاً منكِ، وتنفضينَ آثاري عن أصابعكِ وترحلين لتتركيني ذاهلاً موهناً، ممتهناً، غاضباً، راضياً، مبعثراً..... فهامداً حدَّ الموت، وعندما أستيقظ في صباحٍ ما، تحت ضوء الشمس أو مصباحٍ في غرفة العناية في المشفى، أتساءلُ ما لكِ يا حياة كلّما قتلتني ازددتِ حياةً؟!

وضحكتِ فوقَ جثتي الافتراضية، و لربما بصّقتِ خلسةً وركلتها كأيّ جيفةٍ تفسخت فأزعجتكِ رائحتها، ركلتها بعيداً عن منفذ الهوى، إلى نافذتكِ... إليكِ، ووقفتِ محتارةً ولربما مشفقةً على نهايتي، وكأنكِ بريئةٌ مني ومن موتي فيكِ.

وفي الصباحِ يهطلُ صوتكِ عليَّ فأنتشي وأنبتُ من جديد. هكذا يمرُ الوقت كمسبحةٍ بين يديكِ إن شئتِ مضيتِ بهِ وإن لم تشائي توقف.

- تأخرتِ أين كنتِ؟
- مشغولةٌ جداً هذه الأيام.
- مشغولةٌ عني؟
- مشغولةٌ بك.
- كفاكِ مواربة.... قولي الحقيقة.
- الحقيقة.
- شريرة.
- أهبل.
- لن أتحدث إليكِ بعد اليوم.
- هذا أفضل.

- سأتحدثُ إذن.
- عمَّ تريد أن تتحدّث؟
- عن الرسالة.
- أيّ رسالة
- نسيتِ؟ حدثتُكِ عنها.
- لم أنسَ، لكنكَ قلتَ إنكَ نسيت!
- لم أفعل... قلت: قررت أن أنسى، لكنني لم أستطع.
- وماذا بشأنها؟
- لا أعرف شيئاً... لقد حاولتُ مراراً الاتصال بصاحب الرقم إلّا أنهُ مغلق،
- سيتصل هو، انتظر لا تستعجل.
- لا أحبُ الانتظار
- لا أحد يحبه.

وانتظرتُ... انتظرتُ طويلاً، في الحقيقة انتظرتُ إلى أن اهترأ انتظاري، فخلعتهُ، ووهبتهُ لأحدِ المارَّة فصنعَ منهُ ممسحةً لشيءٍ ما، ربما يكونُ حذاءً....

غير أنَّ الرسالةَ التي نسيتُها لم تنسني.

عادت وولجت بريدي الالكتروني لأحظى بموعدٍ مع صاحبها وقد حدَّدَ الزمان والمكان، كان الوقت محدّداً بدقّةٍ محسوباً بالثانية، وذلك بعد عودتي من العمل، وكأنَّ المرسل يعرف تماماً خطَّ سيري ويعرف المطعم الذي أمرُّبهِ للحصول على وجبةِ العشاء اليومية.

فقد كانت تأتيني رسائل قصيرة تشعرني بأنّهُ يراني، أو يحفظني عن غيب، ذكر عدد زجاجات العيران التي أشتريها يوميّاً، للتخلص من الأرق، لكن عبثاً لم أستطع أن أحظى بنومٍ هانئ، كنتُ أشعرُ دائماً أنَّ هنالكَ عملاً ما... شخصٌ ما ينتظرني، أشعرُ أن الوقت قصيرٌ جداً، فكيفَ أقضيهِ نائماً؟! كنتُ واقفاً في المولِ أمام محلِ الألبسة الداخلية النسائية

« لانجري» ؛ عندما أرسل لي رسالة : «هههههه حياة «؟. أقفُ كل مساء مدةَ خمس دقائق، على مقاسِ الحلم أو الرغبة أو... لا أدري لماذا أقف هناك أطالع الجديد من وسائل الإغراءِ خاصةِ النساء، قد أكونُ محروماً بشكلٍ أو بآخر، لكن رغبتي لا تأبه بعدمِ احتمال قلبي لها.

برهان وحدهُ من يعرف سرّ الخمس دقائق،... شعرتُ باطمئنانٍ ليقيني أنني على موعدٍ مع صديق العمر، وأنني لا بدَّ افتقدهُ. لم يكن ما بيننا حميماً، لكنهُ وقتٌ أمضيناهُ معاً وشعرنا بهِ بوجودنا معاً، لنا الذكرياتُ نفسها وذات العشق لتلك القريةِ، لعصافيرِ الديسةِ، الفطر الطريّ بين القصب، للمغاورِ الرطبةِ، لأسماكِ البئرِ، ورفوف الحمام....

نحنُ شخصٌ واحدٌ له قلبانِ أحدهما عليل.

خرجتُ من المول بسرعة، ركبتُ السيارة بسرعة، كنتُ أقود بسرعة إلى أن وصلتُ إلى البيتِ، وأمام البابِ وجدتُ مغلفاً أبيض، التقطتهُ ودخلتُ البيت فتحتُ الظرفَ بجنونٍ، وقرأتُ فيه : سنؤجّل الموعدَ لظروفٍ قاهرةٍ.

تحياتي... إلى اللقاء.

القرية ٢٠١٤

ما زالت الأناشيد الوطنيّة تثيرُ الحماس في صدرِ عزيز، يجلس في غرفةِ المكتبة يقلِّب الكتب، ينفض الغبار عن بعضها، يلتقطُ واحداً» الفولاذ كيف سقيناه « يتذكّر « بافل كورتشاغين « بطل الرواية، يشعر بتعاطفٍ معهُ، أو بشيءٍ من الانسجام بين شخصيتهما، يشتاقُ قراءة الرواية، لكنهُ لا يفعل، شعورهُ بالضيق كان مسيطراً على مشاعرهِ هذا المساء.

الكهرباء مقطوعة منذ أيّام أو أشهر، ما عادَ يذكرّ تاريخ آخر مرةٍ قرأ فيها على ضوءِ المصباحِ الكهربائي، فالجماعات المسلحة فجّرت خزانات الكهرباء، وأشياء كثيرةً معها، ربمّا قناعات ما أو حقائق...أجل تفجرت الحقائق، وتناثرت، اختلطت بالدماء والركام، والبارود، فنتجَ عنهُ نوعٌ من الحيّرة تستدعي الجدّل، لكن الجدل أيضاً قاموا بتلغيمهِ ليصبح عقيماً منتهي الصلاحية ؛ فعمّت الفوضى، وضاعَ عزيز – كما ضاع أبناء البلد جميعاً -.

لكن أثناء سماعهِ للأغنيةِ الوطنية، والتي اعتقد أنها بمثابةِ إلهامٍ إلهيٍّ لهُ في ذلك المساء، تذكر زيارة أسعد وابراهيم له في تلك الليلة، وقررَ الانضمام إلى الكتيبة التي حدثاهُ عنها، راودتهُ رغبةٌ في تقديم العونِ وإن كان موتاً ليكن بشرف، لم يكن عزيز يؤمن بالحرب لاعتقادهِ أنها مفهوم بهيمي علّينا رفضها كبشر، فالحرب لم تُخلّق للإنسان رغم أنّهُ قرأ كثيراً في التاريخ وعرفَ أنّ جميع الحضارات قامت على أنقاضِ حضاراتٍ أخرى، لكن ما نفعُ الحضارةِ؟ حدّثَ عزيزٌ نفسهُ : ما نفعُ الحضارات التي تعلّم الانسان القتل؟ ؛ لماذا لا يعيش الناس بمحبةٍ على أرضٍ تكفي الجميع، حقاً الأرض تكفي الجميع!، لكنّها السياسة التي لم يستطع أنّ يفهمها عزيز، ولم يرغب في الخوض فيها، كان يعتقد أنّها مجرّد أكاذيب، يلفقها السياسيون الذين هم في الأصل مجرّد سماسِرة يتفاوضونَ أيُهم يسرق

من أيّهم بأعلى الأسعار وأقلّ الخسائِر، لماذا إذن تتحارب الشعوب، ما الذي يجعلها تسير في هذا الطريق؟ وكيف يستطيع السمسار أن يُقنِع تلك الأعداد الهائِلة من العقول، من الأفكار، أن تفكر على نحوٍ يريدهُ لها، وأنّ تقتتِل للاشيء للحرب التي ستعودُ مكاسبها للسماسِرةِ فقط.

- تُرى هل أفعل ذلك إن قاتلتُ مع تلكَ الكتيبةِ؟

- لا يا غبي أنت لا تقاتل، أنت تدافع عن وطنك.

- لستُ مقتنعاً تماماً!

- ليسَ من الضروري أن تقتنع، المهم أن تشعر بهذا الواجب، وأنتَ شعرتَ أليسَ كذلك؟

- أجل شعرت.

حَسَمَ أمرهُ أخيراً وقرَّرَ أن يذهب إلى بيتِ أسعد في الصباح ليستعلم عن الأمر.

خَرجَ من الغرفةِ إلى بيتِ التبن، أطفأ المولدّة لئلا ينفذَ البانزين، وخرجَ بسرعةٍ من هناك، فرائحة ذلك المكان ما زالت تحتفظُ بذكرياتٍ محفورةٍ على جدرانِ الشذى الذي يفوحُ من التبن الرطبِ، الأماكنُ أكثر وفاءً للذكريات من الذاكرةِ نفسها، حاوَلَ عزيز أن يتملّص من ذكرياتهِ إلّا أنّها علقت بهِ أكثر، كلّما حاولَ نفضها من رأسهِ، كلّما ازدادت التصاقاً به،

أسندَ ثقل جسدهِ على الجدار ونظرَ إلى الزاويةِ التي كانت تختبئ فيها تحتَ التبن مخافةَ أن يأتي أحدٌ غيرهُ مصادفةً، أحياناً كان يمضي الوقت وهي وحيدة قبل أن يستطيعَ التملّص من زائرٍ جاءَ على غيرِ موعدٍ. أو عملٍ كلّفهُ بهِ والدهِ، وعندما يأتي يجدُ وجهها مرهقاً وعينيها محمرتين أرهقهما الانتظار، وأبكاهما حظها العاثر الذي أقحم في قلبها حبّاً مستحيلاً.

من الصعب عليه أن يفهم، أن يشعر كيفيّة حبها لهُ، بداخله شعورٌ غريب محيّر.

وإذا كان لا يستطيع أن يفهم من أحاسيسه سوى الرغبةِ في

رؤيتها، عناقها، سماعِ صوتها، ضحكتها، تنهيداتها، فولوجها.

ترى كيفَ كانت تشعر معهُ... بهِ، وهل تشعر النساءُ تماماً كما الرجال، بهذا الجنون الوله؟

- يبدو ذلك.

- لكنني لستُ متأكداً فخبرتي في النساء لا تتعدّى المرّة الواحدة المرأة الواحدة، كانت قصة حبّي الأولى، والأخيرة.

- وهل متَّ يا عزيز لتكون الأخيرة؟

- ربمّا... ربمّا ماتَ قلبي، أو ربما متَّ في حبّها.

ابتسمَ عزيز للفكرة، وتذكرَّ حبيبتهِ يوم كانا معاً، نظرت إليه طويلاً ووضعت راحةَ كفها على خدِّه تحسستهُ بلطفٍ، ثم هبطت بيدها إلى صدره ووضعتها مكان القلب تماماً، نسيت نظرتها الحريرية على ملامحهِ وقالت:

- بموت فيك يا عزيز... أنا ميتة فيك... بتعرف شو يعني؟

- بعيد الشر عنّك لا تجيبي سيرة الموت.

- لم تجبني... هل تعرف ماذا يعني ذلك؟

- لا... لكنني لا أحبُّ الحديث عن الموت.

- هل يشعر الإنسانُ بعد الموت؟

- لا... لكن قد يشعر بالموتِ نفسه.

- إذن أنت موتي... وإن مت فيكَ هذا يعني أنني لن أحبَّ بعدكَ يا عزيز، لن أحبَّ أبداً، أنا لا أعيش إلّا فيك، ومن خلالك ألج الحياة.

نهضَ عزيز، وفردَ ذراعيه استعداداً لعناقٍ طويل، ودّعها وخرج، انزلقت من عينيه دمعتان رغماً عن رجولتهِ، ورغم أنفِ القسمِ الذي أقسمهُ أمام نفسهِ يومَ دخلَ السجن، كانت رائحتها تعبق بأنفاسهِ، لتنعش وجودها، وعندما جلسَ ليأكل وجدَ أن نكهةَ بشرتها لا تزال عالقةً بأصابعهِ منذ عناقهما الأخير، ولا زالت الذاكرة تقتاتُ على حضورها، مع كلِّ وجبة، تتقطر من رؤوسِ أصابعهِ كالعسل الذي كان يقطفهُ بيديه من

خلايا النحل، عسلٌ طازجٌ يضعهُ في وعاءٍ عميقٍ، ويخبئ منه الكثير لها في بيت ملاذِ الحبّ إلى أن تأتي، فيغرفُ من الشهد لترتشفهُ من يده.

أين أنتِ الآن يا سنا، وما الذي حلَّ بكِ بعد ذلك اليوم؟

- لماذا لا أبحثُ عنها، أسأل عنها أهل القرية، ما من ضير... لا لا... لا أمتلك الجرأة لفعل ذلك، قد تبحثُ هي عني في يومٍ ما...

لكن لمَ لم تفعل حتّى الآن، خرجتُ منذ زمن، تُرى ألم تعرف بذلك؟

ربما لا... أجل ربمّا لا... لكن يجبُ أن أفعل شيئاً.

نامَ عزيز، وفكرةُ البحثِ عن سنا مسيطرة على رغبته، لا يعرف متى نام، لكنهُ نام محتضناً الذكرى، واستيقظ صباحاً، شعرَ بثقلِ جسده، إلّا أنّهُ خرج قاصداً بيت أسعد.

حاوَلَ وهو يسير على الطرقات أن يبحث عن حضور معارفهِ القدامى، عن أطفالهم، آثارهم، أشياءٌ ما قد تذكرهُ بهم، كلُّ شيء تغيّر في هذه القرية ما عداها، لا تزال قريتهُ الأثيرة، قبل أن يصل رأى فتىً يركبُ دراجةً ناريةً يجعلها تسيرُ على العجلةِ الخلفيّةِ، ثمَّ يهبط بالعجلةِ الأماميةِ، فترتسمُ على وجههِ متعةُ المغامرةِ.

أوقفهُ عزيز....

- هوب هوب...

ضحكَ الفتى، ثم قهقه:

- نعم يا عم، ماذا تريد؟

- أريدُ أن أسألكَ عن أبيك.

- وهل تعرفُ أبي؟

- أعتقدُ ذلك.

- أنتَ ابن نايف فاضل، أليس كذلك؟

- أجل كذلك، كيف عرفتني، أنا لم أرَوجهك من قبل؟!

- أنتَ تشبه والدك كثيراً، كيف حال والدك؟

أطرق الفتى وكأنهُ استفاق من حلمٍ جميل ليعرف أنهُ مجرد حلم.

- لقد مات.

عرفَ عزيز من الفتى أن والده مات قهراً على أخيه الذي استشهدَ في الحرب.

قال الفتى : بقيَّ أبي صامتاً مدَّة شهر، يذوي في العتمة والصمت، إلى أن غادرَ، وقبل أن يلفظ أنفاسهُ الأخيرة حمدَ الله على أنه لم يطل في عمرهِ وأنهُ سيذهبُ لرؤيةِ أخي الشهيد.

تذكرَ عزيز والدَهُ وتساءَلَ بينهُ وبينَ نفسهِ : تُرى لماذا لم يكن حضورهُ عميقاً في حياتهِ؟

حتّى بعدَ أن أصبحَ أعمى، شَعَرَ عزيز بأسىً رقيق يشعرُ به الإنسان تجاه أيّ شخصٍ في حال أبيه، وما لبثَ أن اعتاد الأمر. لكنّهُ حتى اليوم لم يعتد غيابَ والدته، ولا تزال دموعها تمزّقُ ذاكرتهُ وتخرجُ سافرةً أمامهُ بقسوةٍ تفوقُ حدودَ الألم.

- تُرى هل اشتاقني والدي؟

- لا أعلم.

- أقصدُ بعدَ أن فَقَدَ بصرهُ؟

- الاشتياق اشتياقٌ للوجود، لموجوديتكَ لديه، وليسَ اشتياقاً للرؤية البصرية.

- أيّاً يكن... هل اشتاقني؟

- لا أعلم... كان بعيداً دائماً في كتابٍ أبى إلّا أن يقرأهُ في، تبغهِ الذي لا يلبثُ ينفثُ دخانهُ، ويبتعد، يطير معهُ إلى مكانٍ ما... فلكلِّ إنسانٍ في هذا العالم مكانٌ يحلقُ إليه... فيه، ثمَّ يعود، قد لا يعود...!

وجدَ عزيز نفسهُ وجهاً لوجه أمام فكرةٍ مهولة فيما لو تحققت. قد لا يعود!؟

لذلك يمرُ أناسٌ في حياتنا دون أن نلمح أثراً لخطواتهم، لأننا مجردُ خطوةٍ في طريقهم إلى

« المكان ما « ذاك المشتهى من الأمكنة، المختبئ في السهوةِ الهاربةِ من صحوة على حقيقةِ المكان ما السريّ في ارتعاشات القلب رغبةً، نشوةً أو خوفاً، ذلك الخوف اللذيذ، قبل لقاءٍ ما، ذلك القلق قبل السعادة، سعادة القلب المشوبةِ قلقاً. ذلك « المكان ما « في زاوية الصفح الصامت، والقسوةِ المبطنةِ، قد لا يعود... أجل بقي هناك، لذلك ما اشتاقني، بل انتظر أن نلتقي هناك في «المكان ما «حيثُ يتقاطعُ مكاننا...

بقي وحيداً في عتمةٍ لم يندم عليها، لكن عزيز شعَرَ بالندمِ على الوقتِ الذي سال، بل تدفق وغار في شقوق الماضي، دون أن يستطيع أن ينظر في عينيّ والدهِ، ويقرأهما على ضوء... وماذا يفيد الندم؟!

وكأن الجميع في هذه القرية هزموا بطريقةٍ أو بأخرى، بعضهم هزمهم الظلم وآخرون الانتظار، قد يكون الحبّ وقد يكون الندم، لربمّا هزموا من قبل أنفسِهم.... الهزيمةُ محققةٌ لا محالة، وكأننا خُلِقنا لنُهزَم.

هذا ما كان يدور في ذهنِ عزيز وهو في طريقهِ إلى بيت أسعد، فقد يحقق بذلك نصراً يفوق هزائِمَ الوجودِ تلك.

السعودية ٢٠١٧

لأني وحيد هذا المساء، ككلِّ مساء ؛ بقيتُ وحيداً، لكنني قررتُ أن أتناول طعامَ العشاء في المول، مشيتُ مئةَ مترٍ تقريباً إلى أن وصلت إلى مطعم وجباتٍ سريعة، كنتُ أتهرَّب من لذّةِ منظرها، ورائحتها، اقتربتُ دون أيِّ خوف، وكأنني لا أقدِمُ على خطأ قد يودي بي ؛ شابٌ يعتمرُ قبعةً بيضاء يختص بها الطهاة، ويلبسُ قفازين مطاطيّين بكفيه :

- صحن بطاطا مقليه (دبل) لو سمحت مع حوائِجها، ودجاج مدخن بالحمض والثوم.

- حاضر أستاذ.

لا أعرف لماذا نظرَ إليَّ مطولاً، وكأنهُ يقرأُ خوفي الذي رميتهُ ورائي، ربمّا وجدّهُ في إحدى الحاويات، واكتشفَ سرِّي، لكن لماذا يتواطأ معهُ؟.... لا يهم... المهم: أريدُ أن آكلَ طعاماً يخصُ الناس... بين الناس، أرغبُ في رؤيةِ عيونِ النساءِ ذوات النظرات المتحدّية تستفزني رغم الخمار... جلستُ على الكرسي، وقبل ذلك كنتُ أصغي لوقع حذائي على الرخام.... الرخام قلتها في سرِّي عدَّةَ مرات، كدتُ أصرخها، اشتقتُ لذلك التراب أيها الرخام، متى سيعتقني هروبي؟

تذوقتُ طعم الملحِ والثوم في المايونيز، آه هذه النكهات، تلك التوابل على أصابع البطاطا المقليّة! وألفيتُ نفسي مسكيناً محروماً من اللذائِذ، لماذا أعيشُ إذن؟

- السلامُ عليكم.

- وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

- هل تسمح لي بالجلوس؟

- بالطبع تفضلي.

امرأة تواري وجهها خلف خمارٍ، وتغلّف نظرتها بكحلٍ ثقيل. جلست صامتةً بضع دقائق ربمّا تفكر في الطريقة التي ستقول لي فيها ما

تقول، أمّا أنا فلستُ حائراً، فمن المؤكد أنَّ برهان أرسلها، فأنا ما زلتُ أنتظرُ موعداً منه، إلّا أنها عندما تحدّثت اكتسبَ صوتها عذوبةً مبهجةً، لذلك رغبتُ في أن يطولَ الحديث....

- هل أنت متزوج؟

- لا... ليس بعد.

- ولكنكَ تبدو... أقصد... اعذرني لم أقصد ما فهمت...، ولكن...

- لا تعتذري... أعرفُ أنني أبدو كبيراً في السن... لا تهتمّي أرجوكِ، قولي ما الذي جئتِ تحدثيني حولهُ؟

- ما رأيكَ في أن تتزوجني؟

-.....!

- أرى في صمتك رفضاً... لا تؤاخذني.

حاولت النهوض بسرعة بعدَ أن بعثرها صمتي فلملمتْ أطراف عباءَتِها، ونهضتْ، لكنني أمسكتها بيدها المعبأة داخل قفازٍ أسود.

- اجلسي رجاءً.

نظرت حولها، طالعت وجوه الناس التي قد تلتقطُ المشهد، ويبدو أنها اطمأنّت إلى أنَّ كلاً مشغولٌ بنفسه، فجلست. لكنني بقيتُ صامتاً أحدّقُ إليها، في الحقيقة لم أعرف سبب ردّةِ فعلي تلك، إلّا أني لم أجد ما أقولهُ، في داخلي فقط رغبة أن أشارك أحداً طعاماً، كلاماً، وحتى صمتاً ما ؛ وكانت هي:

- لن أسألكِ عن اسمك.

قلتُ ذلك بعد برهةٍ من الصمت جعلتها تتنهد بحيرة، وبعد ذلك بقلق، ثم تحوّل شعورها إلى نزق.... لكنني تكلّمت في آخر المطاف... تكلّمت، فقد أعجبُ نفسي أحياناً في مثل هذه المواقف! وقد لا أعجبُ أحداً إلّا نفسي.

- لماذا؟

- سأسميكِ نعمة، فقد أتيتِ وأنا في أمسِّ الحاجة لحضورك.

- لكنكَ لا تعرف ماذا أريد...

- لا أريدُ أن أعرف... تحدثي عن أي شيءٍ كان أو سيكون قولي ما شئتِ،غني إن أردتِ فصوتكِ جميل.

- أريدُ أن أتزوج.

- أمممم.

-اتسعت عيناها محاولةً التقاط إشارةٍ ما لإجابةٍ ما، لكنها لم تجد ما يبلُّ ظمأها، فانحسرت نظرتها وأطرقت تداعب سطح الطاولة بإصبعها الأسود

- لماذا لا تخلعينَ قفازك؟

- لماذا لم تجب عن سؤالي بعد؟

- لم تسألي! قلتِ أنّكِ ترغبين في الزواج هذا ما سمعته.

- حقاً؟...إذاً أريدُ الزواج بكَ، هل تقبل؟

- وهل تقبلينَ أنتِ؟

- عن إذنك سأذهب.

- لا تذهبي... أنا آسف، لكنَّ الأمر معقدٌ قليلاً، هناك أمور كثيرة عليَّ شرحها لكِ وهذا ما يجعلني أشكُّ في قبولكِ الزواج بي.

بقيت صامتةً مصغيةً إليَّ، عرفت مشكلتي، وأنني لستُ الزوجَ المأمول، ولا عريس اللقطة، وعلى الرغم من أني لم أبدِ أي استغرابٍ في طلبها، مع ذلك فهمتُ منها أنَّ النساء في السعودية يعانينَ من استفحال العنوسةِ، وذلك لأسبابٍ كثيرةٍ، لم ترغب في شرحها، فما كان منهنَّ إلّا أن وقعنَ اتفاقاً صامتاً يقتضي التخلص من هذه الظاهرة، فأصبحنَ يخطبنَ لأنفسهنَ في (المولات) وفي أماكن أخرى، ويساعدهنَّ في ذلك أنهنَّ منقبات.

- السلام عليكم يا أخي.

- وعليكم السلام!

غادرتْ بهدوءٍ مفاجئ بالطريقةِ نفسها التي أتت بها.

حياة تراقب المشهد من بعيد، وتنظرُ معاتبةً، إلّا أنني ابتسمتُ بخباثة، وقلتُ لها: انظري، النساءُ يتهاتفنَ عليّ! ابقي أنتِ مع جفنك ذاك.

راقبيني من بعيد، وتصرّفي وكأنكِ لم تري شيئاً، وأنا سأفعلُ الأمر ذاته، وهكذا نكونُ متعادلين.

القرية ١٩٨٨

عندما رجع جفن إلى البيت بعدَ أن قامَ بواجبهِ تجاه والدي، وجدَ أمهُ ذاهلةً متكورةً على نفسها في الزاويةِ على كرسيٍّ من الخيزران، وقفَ أمامها صامتاً، متلعثماً بلسانهِ، لا يعرف ماذا يقول :

- أميّ... إذن..... هل أنتِ سعيدة بما حدث؟

بقيت ميروشا صامتةً تماماً وفي عينيها ألف سؤالٍ وسؤال، لكنَّها لم تستطع أن تنطق، فماذا يمكن أن تقول! وابنها في الثامنة من عمرهِ، أقدمَ على ارتكابِ جريمةٍ!!!

لطالما كان جفن طفلاً مختلفاً عن أقرانهِ في نفسِ العمر، فهو لا يلبثُ صامتاً أغلبَ الوقت يراقبُ الآخرين، يصمت، وكأن روحهُ هاربةٌ مختبئةٌ في واحدٍ منهم، غير أنّهُ لا يستطيع إيجادها، فآثر الصمت والوحدة، وحَفَر التراب.

في البداية كانَ يحفرُ حُفَراً اسطوانية الشكل، لكنّها عميقة تشبهُ البئر، وعندما يفعلُ ذلك بالقرب من مجرى الينبوع، كانَ الماءُ ينبعُ من آبارهِ، فيبدو الرضا على ملامحهِ. إلّا أنّهُ بعدَ فترةٍ من الزمن تطوّرَ عملهُ إلى أن أصبحت حُفرهُ على شكلِ مستطيلاتٍ طويلةٍ، تشبهُ القبور.

لم يكن في جفن ما يميزهُ عن غيره من الأولاد سوى اسمهُ الغريب الذي أصرّت ميروشا على تسميتهِ به، وكانت تشعرُ في أعماقها أنّهُ لا بد أنهُ السبب في اختلاف شخصيةِ ولدها هذا الاختلاف الذي لم يلاحظهُ أحدٌ سواها، لأنَّ جفن قليلُ الاختلاط، وذلكَ ما جَعَلَ انتباه أهل القريةِ إليهِ يذهبُ بعيداً عنهُ.

يهبطُ جفن بجسدهِ على أرضِ الغرفة ليجلسَ في مواجهةِ والدته، وليتجنب نظراتها المعاتبةِ بإخفاضِ بصرهِ، وإرخاءِ رأسهِ على صدرهِ، هو نفسهُ يعاتب نفسه. في الحقيقة ما يشعر به يفوقُ العتبَ، إنّهُ نوعٌ من الدهشةِ أمام اكتشافٍ مخيفٍ، ويبدو أنّهُ بعيدٌ عن الحيرةِ ومغرقٌ في

اليقين.

- لماذا فعلتَ ذلك يا جفن؟

- أنتِ السبب يا أمي... تذهبين إليهم، تعلمين أولادهم، تهتمين لأمر الجميع ما عداي...

وفي النهاية يتهجمُ عليكِ ذلكَ الوغد... أمي أنا أكرههم... أكرهُ أهل القرية.

- أولئكَ هم أهلكَ يا جفن... لماذا كلُّ هذا الحقد؟!

- لأنهم... لأنهم لا يحبوننا... لا يحترمون والدي ولا يحترمونكِ... أكرههم فحسب.

- أنتَ مخطئ... أهلُ هذه القريةِ يعيشونَ على الحبِّ، فهم لا يمتلكون غيره، إنهم يموتون ولا يحملونَ معهم في قبورهم سوى الحب، لو انتظرت قليلاً... لو رميتَ كرهك جانباً... لو عرفتهم كما عرفتهم أنا لما كرهتهم أبداً، بل على العكس.

- لا أستطيع أن أحبَّهم يا أمي.

- ما الذي سنفعلهُ الآن؟

- أبو عزيز لا يزالُ حيّاً.

- حقاً؟!!!

- أجل لقد ساعدت ابنهِ على إسعافه.

- جيد.

- لا ليس جيداً... لا أريد لكلبٍ مثلهِ أن يعيش.

- لماذا ساعدت ابنه على إسعافهِ إذن؟

- لا أعرف... وجدتني أفعلُ ذلك.

- أليسَ تكفيراً عن الذنب؟

- لا يا أمي... لستُ نادماً!

- بماذا تشعرُ إذن؟

- لا أعرف.

خرجَ الصبيُّ تاركاً والدتهُ غارقةً في حيرتها، عالقةً في شباكِ خوفها من، وعلى جفن.

فكرت المرأة أنَّ جفن محقٌّ فيما قالهُ...

- لقد نسيتُ الاهتمام بأولادي في غمرةِ حصولي على الاحترام والتقدير الذي خصّني بها أهل القرية، بَعدَ عهد الاحتقار الذي منيتُ بهِ بعد زواجي بحسن، كنتُ خائفةً من الوحدة التي فرضها عليَّ أولئكَ الناس، ومن هجانة وجودي بينهم، لقد نسيتُ نفسي حقاً، ولربما أضعتني بينهم...

وبدأت الصور تتابع أمام عينيها بسرعة، زواجها الحزين... تذكرت أنها لم تكن سعيدة وهي ترى الحزن في عيني حسن... حزنت لأنها لم تستطع أن تكون سعادته، ومع ذلك آثرها على عالمهِ، فأقسمت بينها وبينَ نفسها أن تردَّ لهُ الجميل، وبدأت تسعى بكلِّ ما أوتيت من حذقٍ وقدرة وأنوثة إلى أن وصلت مبتغاها، فها هو حسن وقد أصبح محامياً تفتخر به، ويفتخر بها وهي المعلمة المحترمة المحبوبة بينَ الناس الذين رفضوها سابقاً، رفضاً لعاهرةٍ رخيصة.

لكنّها أغفلت أمر أولادها والآن هي واقفةٌ وجهاً لوجه أمام كارثةٍ موغلةٍ في خطورتها.

- لكن لماذا ألوم نفسي؟... قد تحدثُ هذه الأمور مع أولادٍ أمهم لا تفارقهم ليل نهار.

- لأن جفن ابنكِ.

- وماذا في ذلك؟

- كان يجب أن يكونَ الأفضل.

ضاعت المرأة بين أفكارها لذلك بقيت في منزلها لا تفارقه إلى أن تجدَ أجوبةً عن أسئلتها، ويبدو أنها لم تجد، لأنها بقيت في ذلك المنزل تحيكُ الكنزاتِ الصوفية صيفاً شتاءً، وتقوم بإعداد الحلويات، والأطباق العربيّة، التي لم تلقَ قبولاً لدى جفن، لكنّها أرضت أخويه الصغيرين

الذين سافرا إلى روسيا منذ عامٍ تقريباً لمواراة جثمان والدتهما الثرى، ذلك أنها توفيت وبين يديها كنزةٌ صوفيةٌ بلونِ أوراق الزيتون، قالت لجفن فيما مضى أنها حاكتها لهُ خصيصاً، فلونها يناسبهُ تماماً، إلا أنها لم تستطع إكمالها، جفن لم يفكرّ في ارتدائها،

أما أخواه، بقيا في روسيا منذ ذلك الوقت، ولم يعرف عنهما شيء إلا بعدَ مضيّ وقت...

السعودية ٢٠١٧

تردَّدَ برهان... تردّدَ كثيراً قبلَ أن يقدِم على إرسالِ رسالةٍ لي يدعوني من خلالها إلى الجهاد، وإرساءِ دعائم الإسلام، لكنّهُ في النهاية فَعَلَ ذلك، وعندما لم أجب عن الرسالة قرَّرَ أن يراني، لربمّا إن نّظَرَ في عيني، وحكى لي عن تجربتهِ التي أوصلتهُ إلى أن يصبحَ داعيةً في صفوفِ الدولةِ الاسلاميةِ، قد يقنعني، لكنّهُ يعرفُ في قرارة نفسهِ أنّهُ هو نفسه لم يكن مقتنعاً.

مع ذلك كان يسافرُ متخفيّاً بين سورية والعراق والسعودية بجوازاتِ سفرٍ مزوَّرة، وبقدراتٍ مدهشةٍ على التنكر تعلّمها في معسكراتِ التدريب خلال السنوات التي قضاها هناك باحثاً عن ابنهِ ينتظرهُ هناك، وعندما يذهبُ، يجد شخصاً آخر مع ولدٍ آخر، ويجيبونهُ : مجردُ خطأ فغنائمنا لا تُحصى وما أكثر الأولاد الذين استطعنا تجنيدهم، بقي برهان عدّةَ سنواتٍ، يركضُ ويزحفُ من مكانٍ إلى آخر، من مقرٍّ إلى آخر، من بلدٍ إلى آخر، يسعى لاهثاً خلف سرابٍ ارتسمت فيه صورةُ ابنهِ المخطوف، إلّا أنَّ الوقتَ كان كفيلاً بأن يظهر الحقيقة جليّةً أمامَ عينيهِ : لقد خُدِعْ، لكن فات الأوان.

- لا لا برهان لم يفت الأوان على شيء، طالما أنتَ على قيد الحياة، وطالما أنَّ هنالك مسافة بينك وبين النهاية ؛ تستطيع أن تبدأ من جديد ولكَ الأوان بكلّ ما فيهِ من خيارات قد تحشرها في داخلهِ إن كان ضيقاً بعض الشيء.

حشدَ برهان الصفوف تحتَ شعارِ الدولة الاسلامية، وجعلَ من نفسهِ صلةَ الوصلِ الوحيدة التي تربطهم بتلك الدولة، واتخذَ لنفسهِ معسكراً خاصاً بعد أن حَصَلَ على ثقةٍ من جندوه، استخدمَ قدرتهُ الكبيرة على الخداع، في خداعِ من خدعوه، ومزّقوا قلبهُ وحلمهُ أيضاً، لم ييأس من البحثِ عن ابنهِ فالآباءُ لا يكتنفهم الجَزع عندما يتعلق الأمرُ

بحياةِ أبنائِهم، وفوق ذلك، كان برهان موقناً أنَّ ابنه لا يزال على قيد الحياة، لكنّهُ يبحثُ عنهُ في المكان الخطأ، بدأت ذاكرتهُ تُعيدُ تخزين كلّ ما تعلّمهُ من فنونِ القتالِ واستعمال الأسلحةِ، كلّ طرقِ التعذيب التي شاركَ فيها وأشرفَ عليها فيما بعد، إلى أن أصبحَ الأمرُ أشبهُ بدهسةِ نملةٍ، بهذه البساطة يصبحُ القتلْ.

- وما الفرق بين قتلِ نملةٍ، وكائنٍ بشري؟

- في الحقيقة، لا أعرف.

- ما الذي لا تعرفهُ؟

- لا أعرف لماذا يقتلُ الإنسانُ النملةَ بهذه الطبيعية مع أن أسبابهُ لقتلِ النمل واهيةٌ تماماً.

- وبالنسبةِ لقتلِ البشر؟ هل توجدُ أسبابٌ قويّةٌ جعلتكَ تقتلُ من قتلتهم، هل كانوا يستحقون منكَ موتاً مؤلماً بعد تعذيبٍ طويل،كيف استطعت أن ترى لحمهم ينسلخ ملتصقاً بسياط الجلادين الذين فرزتهم أنتَ بقرارٍ من حضرتك للقيامِ بهذهِ المهمةِ «الجلد «؟! أجب الآن لماذا الصمت؟

فكرَ برهان، وتساءَلَ، غضِبَ، هدأَ، كرهَ الحياة، لكنَّ حبَّهُ لأولادهِ لم يتلاشَ، ولا حتى ذرة منه، بل كان يكبرُ ويتسع في داخلهِ ليصبحَ عالمهُ، وكلَّ ما خارجه هامشٌ لا لزوم لهُ.

وجوه الناس الذين عذَّبهم تلاحقهُ في صحوهِ ونومهِ، تسألهُ: كيف استطعت أن تفعل ذلك بنا! أن تقتلنا، وتقتل من أحبُّونا حزناً؟! ألا تعرف أنّكَ عندما تقتلُ روحاً يجب أن تضرب العدد واحد بملايين؟ ذلك أنَّ الروح تصِلُ بالحياة، وتبثها في أرواحٍ أخرى كثيرة، الحياة وكأنكَ تقتلعُ جذراً.

- أقتلهم للسبب نفسه الذي أقتل من أجله النملة.

- ولماذا تقتل النملة؟.... أجبني أريدُ أن أفهم أسبابك، وأشعر بك، أريدُ أن لا أكرهك....

- بسيطة... لأنها تزعجني، تقرصني، تتسللُ إلى طعامي، وتحتَ ثيابي، تطلقُ رائحتها المزعجة في أنفي...

- الناسُ يزعجونكَ إذن يا برهان؟!

- أجل يا صديقي يزعجونني، وبشدَّة... أنسيت؟ إن كنتَ فعلت، أنا لا.... لم أنسَ، أنتَ لم تجرب كونكَ موضع سخريةٍ دائم، لم يمسّكَ الشعور بالظلم.... ماذا تعرفُ عن شعورِ من خُلِقَ مضطهداً، وجِدَ في هذا العالم ليكونَ فقيراً معدماً، ابن إسكافي القريةِ وعليهِ أن يعملَ أجيراً في أراضي أهلِ زملائِهِ في الصف؟

تضخمت حنجرةُ برهان، تناولَ كأسَ الماء من أمامه، وشربَ بصعوبةٍ لأنَّ حلقَهُ مغلق بمقدار من ألمٍ يصعبُ عليه بلعَهُ، توقف عن الكلام، وتوقفتُ بدوري أتأملُ وجههُ، ألم أستطع إلّا أن أشتاقهُ، رغمَ إنكاري للحالِ التي آل إليها.

- اشتقتلك يا برهان.... اشتقتلك والله.

كان يريدُ أن يجيبني إلّا أن صوتهُ خانهُ مرَّةً أخرى، فاقتربَ وعانقني من جديد؛ شعرتُ بأنفاسهِ تهدأ شيئاً فشيئاً، بقي صامتاً، وأنا أشعرُبدموعهِ تقطرُعلى كتفي، لكنني بقيتُ صامتاً بدوري... نهضَ واقفاً، ثمَّ أعادَ ترتيب هيئتهِ، ونهضَ واقفاً، نظرَ إليَّ بثقةٍ وقال: إنَّ غداً لناظرهِ قريب.... إذا التقينا ثانيةً سأعرّفكَ بولدي وإن لم نلتقِ فاعلم أني أشكركَ دائماً، ومدينُ لكَ أيضاً، فأنتَ الوحيد الذي كنتُ أسخرُ منهُ، بينما كان الجميع يسخرون مني. وضحك... ضحك...

بقيتُ أسمعُ صوتَ ضحكتهِ في الممر إلى أن أصبحَ خارجَ البناء، ركضتُ بسرعةٍ إلى النافذة أريدُ أن أراه... ربمّا للمرّةِ الأخيرة، إلّا أنني لم أجده، ربمّا سلكَ طريقاً أخرى غير الطريق التي توقعت ذهابهِ منها... ربما....

مشى برهان وفي جوفهِ يستعرلظى نيرانٍ مختلطةٍ أشعلها الفراق، الخديعة والجزع.

يجب عليه أن يعيدَ ترتيبَ داخلهِ وبسرعة، فالوقت يمضي،

والوحش يمضي... أيُّ وحش؟!

الوحش الذي في داخلهِ بدأ يذوي متأثراً بجراحهِ، الجراحُ لا تؤثر في الوحوش إلّا إذا عبثتَ بالمقتل. وعلى ما يبدو أن يداً ما وصلت هناك.

مع مرور الزمن وتعاقبِ الأحداث قد نسيَّ يومَ أخرجوا ذلك الكائن من القفص الذي يحبسهُ داخِلَهُ، وكان المفتاح قد ضاع، أو اختفى، غير أنهم بحثوا طويلاً وعندما لم يجدوه، صنعوا واحداً على مقاس ضعفهِ، استطاعوا اختراق حدودِ وطنيتهِ الواهية. أمامَ الثغرةِ الواسعةِ التي تركها فيه فقر عائلتهِ، غيابُ ابنهِ....

- يا ناس... يا عالم بدأت ملامحهُ تضيعُ منّي، كان يكبرُ بعيداً عني... بعيداً بعيداً لا أعرفُ مدى بعدهِ... لا أعرفُ برودة أو نار بعدهِ... لا أعرف جوعَ أو شبعَ بعده، كان فقط سُمُّ غيابهِ يمتزجُ في دمي إلى أن قتلني... قتلَ آدميتي، ولم يبق سوى هذا الوحش الذي أنا عليه.

توقفَ عن السير للحظات... نظرَ إلى هيئتهِ... إلى قدميه، وكفيهِ، وراعهُ أن رأى ظلّهُ وقد أصبحَ على شكلِ مخلوقٍ مرعبٍ لم يعرفهُ، ولم يكن قد سَمِعَ عنهُ من قبل.

برهان يعلمُ أنَّ أيَّ فعلٍ يقوم بهِ الإنسان قد يحدثُ لأسبابٍ كثيرة قد تختلف من إنسانٍ لآخر، وأيضاً هو متأكدٌ من أنّه يستطيع أن يجد مبرراتٍ مقنعةٍ لما فعلهُ، وحتى أمام نفسه.

يستطيع أن يقذف أسبابهِ وبراهينهُ في وجهِ نفسهِ، يمتلك القدرة على استدرارِ شفقةِ نفسهِ على نفسه. كان طفلاً فقيراً، قصير القامة أسمرَ البشرة، يرتدي ثياباً لا تناسبهُ، فقد جاءتهم كحسنةٍ أو كأي شيءٍ تنتهي صلاحيتهُ لديك فتفضل أن تعطيه لفقيرٍ يستفيد منه بدلاً من أن تعمله كممسحة. كان يرتدي ممسحة ما إذاً. يمتلكُ مرآة... لا... لا لم تكن مرآة كانت كسِرةً من مرآةٍ وجدها في قمامةٍ ما، وأخذ يتفرَّجُ على نفسهِ، يمعن النظر إلى شكلهِ.

لم يستطع أن يرى نفسهُ جميلاً ولو لمرّة، كان دائماً مهزوماً...

حتّى عندما نجحَ في الثانويةِ العامة، ودرسَ الهندسة الزراعية ظلَّ يشعرُ بالهزيمة، لأنّهُ بقي يعمل أجيراً عندَ صاحب الكافتريا الطلابيّة.

كيف يستطيع أن يحبَّ وطناً لم يكن له فيه بيت؟! عاشَ أبوه ومات في بيتٍ مستأجر، ويبدو أنَّ نحس الأجار سيظلُّ يلاحقهُ. كان يمشي في شوارع القرية بعدَ أن يكون إيليا قد أتى وطرقَ بابَ منزلهم أو (منزله) بكلِّ ثقةٍ بعدَ العاشرةِ ليلاً ليطلبَ إليهم دفعَ ما ترتب عليهم من أجارِ الشهر، بعدَ ذلك يخرجُ برهان ليسألَ الجدران والشوارع، الأشجار الناظرة إلى الله، المصغيةِ إليهِ، بعد ذلك يسألُ الله نفسهُ « دون وساطة « :

الأرضُ فسيحة والمنازل كثيرة، المزارعُ خصبة، لكن لماذا ليسَ لي بيت؟ كلّ هذه الأرض العامرة عجزت عن أربعةِ جدرانٍ تحتوينا تكونُ لنا؟!!!

تصمتُ الجدران والطرقات، الأشجار، المزارع... ويصمتُ الله، فلربما كان يريدُ لبرهان أن يجيب عن أسئلتهِ بنفسهِ، فقد يجدُ الإجابة الصحيحة، وقد لا يجيب، فهنالك أسئلة مفتوحةٌ للمدى بما يحملهُ من إجابات.

القرية... خريف ١٩٩٠

لم تعد سنا تلتقي بعزيز كما في السابق، فبعد إصابةِ والدهِ، ازداد عبء العمل عليه وهذا الأمر يؤلمها ويحرجها أمام نفسها أولاً، وأمام زوج عمتها ثانياً.

هذا الرجل الذي تربّت في بيته معتقدةً أبوّتهُ لها، إلّا أنها اكتشفت فيما بعد أنّهُ يتحرش بها عندما كان يجلسُها على ركبته يداعبُ شعرها ومناطق أخرى من جسدها، في البداية شعرت أنها مشوشة حيال الأمر، هنالك شعورٌ في داخلها في حاستها وغريزتها يقول لها إنَّ الرائحةَ التي يفرزها جسدهُ وهي في حضنهِ ليست رائحة أبوَّة، ليست بريئة، وعندما انكشفَ الأمر، وبدأت تعرفُ ماذا تعني المداعبات، وماذا يعني وجود شيءٍ قاسٍ تحت مؤخرتها وهي في «أحضانِ حنانهِ»، قال لها: إن أخبرتِ عمتك فسأرميكِ خارجَ المنزِل لكلاب الشوارع أو في أحد الملاجئ... في أي لعنةٍ تختارينها قرري واختاري.

اختارت الصمت والهروب. كانت تتجنب اجتماعها معهُ دونَ وجود عمّتها، تقفلُ بابَ غرفتها ليلاً، وأحياناً تدعو عمتها إلى النوم بجانبها. في معظم الليالي تمتدُّ يده إلى ساقها أو صدرها محاولةً العبث، فتستيقظ سنا مرعوبة.

- ماذا حدثَ يا بنت؟

- كابوس يا عمتي... كابوس.

تجرعُ الماء فتجدهُ مرّاً لا يبردُ قلبها، ثمَّ تنام بعينٍ واحدةٍ كما اعتادت منذُ سنوات إلى أن تعرّفت بعزيز، فقد قالَ لها ذات لقاء: اطمئني أنا معكِ، وإنّ تعرّضَ لكِ ذلك القذر سأقتلهُ بيديّ هاتين سأخنقهُ، لكن قبلَ ذلك سأقطع عضوهُ وأرميهِ للكلاب.

ضحكتْ كثيراً، ضحكتْ من قلبها ثمَّ هدأت وقالت: يا ليت.

لكنَّ الأمور بدأت تسيرُ على عكس ما كانت تأمل، فقد كانت قد قررت الزواج بعزيز، وعزيز بدورهِ وعدَها بذلك، لكن ورغم كلِّ ذلك عليهما أن يحتفظا بسرِّهما صامتين إلى أن يحين الوقت المناسب، وكأنَّ سنا تجدُ في الوقت مناسبةً الآن، ففي سهرةِ البارحة طلبَ أبو يحيى يدها لابنهِ يحيى ووافقت العمّةُ وزوجها، أمّا هي فصمتت.

وعندما لم يتحدَّث أحد وقفت أمام يحيى، خلفَ بيته وكان العشب يغطي أقدامهما ويحيى تغطي قلبهُ الأماني، وهو ينظرُ في عينيها اللتين أنسيتاه ما كان عليهِ قبل رؤيتهما.

- يحيى... أنا لا أريدُ هذا الزواج.

وقفَ يحيى محتاراً مصدوماً وكأنَّ دمهُ نزف فجأة وغادرَ جسده بدايةً من رأسهِ، اعترتهُ قشعريرة، وشعرَ بتنميلِ أصابعهِ....

- لماذا لا أفهمك يا سنا؟ هل بدرَ مني ما يسيء، هل أزعجتكِ،.... كنتُ أراكِ تبتسمينَ لي من بعيد أليس كذلك؟

- كذلك أجل، لكن... لكن

- لكن ماذا؟... ما الذي كنتِ تطمحين إليهِ أكثر... لا تقبلي بالزواج، هذا شأنكِ، لستُ ممن يجبرون فتاةً على الزواج بهم، أنا فقط أريدُ أن أفهم، أتحبين شخصاً آخر؟

- لا... أجل لا

- إذن؟

- فقط لا أريدُ الزواج... أنتَ شابٌ رائع و....

- اصمتي أرجوكِ... أريدُ الحقيقةَ فقط... هل من شخصٍ آخر؟

- ماذا يعنيكِ إن كان أم لم يكن؟

- لا أعرف، ربما يعنيني أن أزيد في ألم نفسي يا سنا...

ارتجفَ صوتهُ وأشاحَ بعينيهِ جانباً لألا ترى دموعه، وقال : أنا أحبّكِ بكلِّ الاحتمالات التي تحتملها الكلمة لما قد أشعر، قد أشعر بما أدركه وقد لا أدرك ما يحدث داخلي، غير أنني أحبكِ... اذهبي يا سنا

أرجوكِ اذهبي... انتهى الأمر فنامي مطمئنَّة.

أدارَ ظهرهُ لها ونظرَ إلى فراغِ المكان ثمَّ نظرَ إلى السماء وكانَ سربُ حمامٍ يطيرُ بهدوءٍ، فعلق نظره به وقتٍ طويل وللحظةٍ شعرَ أنَّ السماء تناديه بمساحتها وشساعة زرقتها، فشعرَ برغبةٍ في النوم على إحدى القمم البعيدة وليسرقهُ العلو من أحلامهِ ليهبهُ حلماً جديداً بدلَ هذا الذي انكسر.

بعدَ أيامٍ من التفكير الأرق، جادت فيه مخيلةُ يحيى بشتى أنواعِ الألم الحزن التمزّق، لكن ما من مهربٍ من القدر فجأةً شعرَ بالخسارةِ، خسارة الزمن، خواءَهُ وانسحابهِ، انسلاخهِ من حياتهِ، لتصبحَ فارغةً تماماً لا قيمة لها لا صورَ مسطحة أو ثلاثية الأبعاد، لا يهم إنها مساحةٌ خاليةٌ من حدود الزمان والمكان، مساحةٌ في فراغٍ من فراغٍ مجرّد، لكنهُ استطاعَ أن يتخذ قراراً يحفظُ للفتاةِ خصوصيةَ شعورها ويحفظُ له ماءَ وجههِ أمام العائلتين، كان يسيرُ ليلاً والأفكار تتداخلُ تتشابك، تعتلج في رأسهِ، إلى أن سمعَ صوتَ عزيز يناديه :

- يحيى... يحيى... يحيى... لم يميز الصوت في البداية تبدّى لهُ صدىً بعيد تسلل إلى أفكارهِ، وما لبثَ أن وجدَ عزيز يقفُ أمامهُ يهزّهُ من كتفيه :

- يحيى ما لكَ يا رجل، أناديك منذُ وقتٍ، ألم تسمعني حقاً؟!!! أم أنّكَ تتجاهلني عمداً

- لا لا يا رفيقي لا أتجاهلك، لكنني حقاً لم أسمعك! كنتُ أفكرُ قليلاً.

- ما الذي يشغلكَ إلى هذا الحدّ؟

- أفكر في نهاية كتابٍ كنتُ قد قرأتهُ، ووجدت النهاية غير منصفة، لكنّها حتمية.

- لم أفهمكَ... ولكن ليت هموم الناس جميعاً كهمومك.

وسارا جنباً إلى جنب وكلّ واحداً منهما يظنّ أنّهُ يفكرّ في همٍّ يختلفُ عن همِّ صديقهِ...

- تصبح على خير يحيى...

قال ذلك عزيز وشَعَرَ برغبةٍ مفاجئةٍ في عناقِ يحيى رفيق طفولتهِ شعرَ بحنينٍ مفاجئ إلى تلك الأيام التي كانا يتشاركان فيها اللعب والضحك والقتال الطفولي، تذكر أنّهُ كان دائماً يغلبُ يحيى في النزال، لكنَّ علامات يحيى أعلى من علاماتهِ في المدرسة، مما يثير سخريةَ والدهِ الذي كان يطمحُ أن يكون ابنه كابن صديقهِ الذي ينافسهُ على شيءٍ ما لا يعرفهُ، لكنَّ بينهما نوعاً من المنافسةِ جلي.

غيرَ أنَّ عزيز لم يشعر بالمنافسةِ مع يحيى يوماً، بل إنَّ شعوره أنهما متعادلان، كان يعطيه نوعاً من الرضا والطمأنينة لتلك الصداقة.

نظرَ يحيى بشيء من الدهشةِ إلى عيني عزيز بعدَ أن عانقهُ الأخير عناقاً حاراً، وكأنهُ عناقُ وداعٍ أخير.

- ابقَ معي يا يحيى.... تعالَ معي إلى منزلي نكمل السهرة هناك.

- لا أستطيع عليَّ أن أسافر صباح الغد.

- أريدُ أن أحدّثك بأمر.

- تحدَّث يا عزيز... ولو أني مرهقٌ للغاية وقد لا أستوعب ما ستقول... هل الأمر مهم؟

- لا لا سنتحدث عندما تعود بإذن الله.

- حسنٌ... وداعاً إذن.

- إلى اللقاء يا يحيى... إلى اللقاء.

كان زوج عمة سنا واقفاً يطالع المشهد وعندما افترقا تقدَّمَ باتجاه عزيز وما أن أصبح بمواجهتهِ سألهُ :

- هل باركت لصديقكَ بمناسبةِ خطوبتهِ على سنا؟

عضَّ عزيز على شفتهِ وصعدَ الدم إلى رأسهِ وتشنجت قبضتاه...

- أنتَ كاذب هذا لم يحدث!

- هذا حدثَ منذ أيام... ألم يخبركَ أحد... ألم تخبرك العصفورة؟

شعرَ عزيز برغبةٍ جامحةٍ في أن يعود أدراجهُ إلى يحيى وأن ينهالَ

عليهِ ضرباً، لكنهُ بدلاً من أن يفعل ذلك أوسع العجوز الشاذ لكماً إلى أن أدمى وجهه، فأخذ الرجلُ يطلق الشتائم والوعيد،

وما كان ذلك يزيد عزيزاً سوى غضباً ورغبةً في ضربهِ، إلى أن تعب فتركهُ بعدَ أن ركلهُ بقدمهِ وغادر...

نهضَ العجوز وأسنانهُ تصطكُ ألماً وغضباً، جرجرَ جسده المصاب في أماكن كثيرة إلى

أن استوقفهُ مشهدٌ أنساه كلَّ الألم الذي يشعرُ به وكان سعيداً لدرجةِ أنه لم يزح نظرهُ عنه. ابتسم وضحكَ في سرهِ، كاد يغمى عليه لشدة الضحك، يمسكُ كرشه بيديه لكنَّهُ لا يقفُ عن الاهتزاز، شعرَ بسعادةٍ غامرة لشعورهِ أنَّ القدر يقفُ إلى جانبهِ، مذ أن دخلت سنا بيتهُ، وهو مفتونٌ بجمالها، كان يحاولُ أن يجد في زوجتهِ أي شيء مشترك بينها وبين ابنةِ أخيها غير أنهُ لا يجدُ. الفتاة فاخرةُ الأنوثة منذُ طفولتها. أجل مذ ذاك يحاولُ أن يمتلكها، أن يصبحَ مالكً لتلك الثروة الباهظة، إلا أنَّ الفتاة فهمت مآربّهُ بسرعة وبدأت تحبطُ مخططاتهِ.

ومما زاد في ألمهِ أنها وقعت في غرام عزيز وتركتهُ يحترق غيرة، كان يلاحقها يراقبها من بعيد، يحومُ حول مخبئهما، ينتظرُ انتهاء لقائهما، ويسترسل في الألم، الحقد، الكره لها ولهُ، شعورهُ تجاهها لم يكن واضحاً، كان أشبه بلعنةٍ تركَ نفسهُ لها دون مقاومة، لكنّها لم تترك لهُ أيّ قدرٍ من الأمل. إلى أن جاءَ ذلك الليل، وعاودَ القدر مصاحبتهُ والضحك في وجههِ.

غمزهُ القدر في تلك الليلة وفهِمَ بدورهِ أنَّ القدر لا يتواطأ دائماً مع الأخيار وقد لا يقفُ بجانبهم، لكنَّهُ يقفُ إلى جانب من يؤمنون برفقتهِ... فقد يخدم حثالةً مثلهُ قدرٌ أحمق مثلُ الذي رماهُ على ذلك الطريق في تلك الليلة.

وقفَ يحيى مذهولاً أمامَ ثلاثةِ رجالٍ يشهرون بوجهه سكاكينهم، وقد غطوا وجوههم بعتمةِ غموضِ الموقف وبكوفياتٍ سوداء لا تظهر منها سوى عيونهم تقدَّمَ الرجلُ الأوّل وبحركةٍ سريعة طعنَ يحيى في بطنهِ لكنَّهُ

استطاع رؤيةِ عينيه الباهتتين وفيما هو يتساءل لماذا، كانت السكين الثانية تنغرِز في أحشائِهِ من جديد وتنغرس في قلبهِ الثالثة مع نظرةٍ قاسيةٍ غابَ معها سؤاله وضاعَ الجواب في ظلام الليل، وبينما كان يحيى يحومُ فوقَ جثتهِ نظرَ إلى الموت باستهزاء، وقالَ في سرهِ : أرجو أن لا يحزنَ أحدٌ، فأنا بخير، و الموت سهلٌ، لكنهُ بدأ يخمنُ هويةَ الفاعلين، وجمع في جعبتهِ ثلاثةُ احتمالات بعددهم تماماً، لكنهم اختفوا وكأن العتمة أذابتهم فيها. لا يهم... لا يهم أن أعرف غريمي، متُّ وانتهى الأمر.

رأى يحيى جثَتَهُ وقد اقتربَ منها زوجُ عمة سنا وأخذَ يتفحصّها، وعندما لم يجد أنفاساً تُرجى، جرَّها ورماها بعيداً في بئرٍ على جانب الطريق، وغادرَ مسرعاً.

في الصباحِ دخلَ الدركُ غرفةَ عزيز الذي كان نائماً على ألمهِ، وجرّوه إلى الحبس، وهناك عرفَ أنهُ قتلَ يحيى. وعرفَ العجوز الدنيء أن الفتاة أصبحت في مهبِّ هواه وسيفعل ما يشاء بعدَ أن صارت وحيدة، لا خطيب ولا حبيب ولا أحد تستند إليه. وهذا جلّ ما كان يؤلم عزيز في سجنهِ، بالإضافة إلى موتِ يحيى صديقهُ العزيز.

عندما زارتهُ والدتهُ سألها إن كان يحيى ماتَ حقاً، لم يصدق ما حدث، لا يلبث يراه يتمشى بين البساتين حاملاً مجموعة كتبٍ في يدهِ اليسرى، وسيجارةً باليمنى... يجلسُ على صخرةٍ ويغيب في أحدِ كتبهِ.

- أجل يا بني مات، لكن ليس هو وحدهُ من مات، إنَّ من قتلهُ قَتَلنا جميعاً.

ونظرت أم عزيز إلى الكدمات على وجه ابنها... ثم أشاحت بنظرها فما عادت تحتملُ كلَّ هذا الألم.

- ماذا قالَ عنّي أهل يحيى يا أمي؟

- أهل يحيى.....؟

- أنتِ تعرفين كم يعزّ عليَّ ألمهم، إنهم بمثابةِ أهل بالنسبةِ لي يا أمي، وما يحزّ في نفسي أكثر من أي شيء، هو أنهم يعتقدون أنيّ من سبب

لهم ذلك الألم.

- لا.... يا عزيز لا يظنون بكَ ذلك.

وضعت راحة كفّها على خدِّهِ وقد أدخلتها من بين القضبان وتحسست وجهه محاولةً طمأنةَ نفسها وطمأنته أن الأمور بخير، والحقيقة لا بد ستظهر في يوم.

في طريقِ عودتها إلى القريةِ، لم تفارقها صورة أبي يحيى، وهو يصرخ فوق جثةِ ابنهِ، لم يكن صراخاً، كان عويلاً يخرجُ من كائنٍ غريب، فالصوتُ الخارجُ من جوفهِ كان صوت ألمٍ لا يمكن لبشريٍّ احتمالهُ!

عندما رآها نظر إليها وكأنهُ يسألها : لماذا فعلَ عزيز هذا بي؟ كيفَ يستطيع من هوَ من دمكِ أن يريق دمي! كيف.... كيف يا هيفاء كيف؟!!!

بقيَّ أبو يحيى بعدَ ذلك عدَّةَ أشهر يرفض الطعام ويدخّن، ويقرأ... قرأ أكثر مما قرأ في كلِّ حياتهِ، حتّى بعدَ أن أصبحَ طريحَ الفراش... وضعَ كوماتٍ من الكتب بالقربِ من سرير يحيى الذي احتلّهُ إلى أن أصبحَ يتقيأ جوفهُ، أصبحَ يشربُ الماءَ ويتقيؤهُ ممزوجاً بقطعٍ ربما من معدتهِ وأمعائِهِ، بدأ جسدهُ يقتلُ نفسهُ من الداخل، لكنّهُ لم يترك القراءة، جَمَعَ كلَّ كتب يحيى التي قرأها، والتي مرَّت عيناه فوقَ كلماتها، والتي لمستها أصابعهُ، وعلقت مفرداتها وصورها في ذاكرتهِ...

تعرّفَ على أصدقاءِ ابنهِ بعدَ أن قرأَ رسائلهم إليه ورسائلهُ إليهم، شعرَ أنهُ يحبُ يحيى أكثر من أيّ وقتٍ مضى، وأخيراً وجدَ الإجابةَ عن سؤالهِ، عرفَ أن عزيز ليسَ من قَتَلَ ابنهُ، تلكَ الكتب كانت تحمل الإجابة.

اتكأَ أبو يحيى على الوسادة وأعادَ رأسهُ إلى الخلف ونظرَ إلى السقفِ وغاب.

وقفت زوجتهُ تتأملُ المشهدَ بضع دقائق ثمَّ غادرت الغرفة وهي تتحدّث، و تتحدث مع نفسها أو مع آخرين، لكنَّ الذين رأوها، قالوا : ما من أحدٍ بجانبها سوى رامي الصغير الذي كان يتعلّقُ بذيل ثوبها ويبكي معظم الوقت، وبعضهم قالوا : إنها امرأةٌ صالحة، لذلك فقدت عقلها

قبل أن يحدث ما حدث، فهي لا تستطيع أن تعي ما يدور حولها من مآسي عائلتها، وقيل الكثير حولها وحولَ زوجها إلّا أنها بقيت تعيش في بيتها وتنظفهُ وتهتمُّ لأمرِ ابنها الصغير، الذي كبرَ في القرية وتابعَ دراستهُ وتطوَّعَ في الكليَّةِ الحربيّةِ ليصبحَ ضابطاً في الجيشِ السوريّ... وذلك بعد وفاةِ أم يحيى بعامين.

أمّا أنا، فأرسلتني أميّ إلى بيتِ جدّي في اللاذقيةِ لأن تهديد أعمام يحيى وأولاد عمومتهِ كان واضحاً فيما يخصني. ذهبت أمي إليهم وتوسلت، طالبتهم بذبحها فداءً لي وثأراً ليحيى، إلّا أنهم رجموها بالحجارةِ وطردوها وأقسموا على قتلي ذبحاً أمامَ عينيها، فعشتُ عدّةَ سنواتٍ في الجبل قبل أن أنتقلَ إلى الجامعةِ هناك، لألتقي برهان الذي كان طموحاً لدرجةِ أنهُ درسَ معي الفرع نفسهُ.

وفي السنةِ الأخيرةِ حصلَ خالي على عقدِ عملٍ لي في السعودية... فجئت دون أن أودِّعَ حياة.

منطقة حدوديّة بين سورية والعراق في أحدِ مقراتِ داعش ٢٠١٥

بعد عدّةِ أشهر من الأسر، جلسَ رامي ينظرُ إلى قدميهِ المقيدتين بتلك الأصفادِ الثقيلةِ، ودمِهِ النازف منهما، كانت هذه أول مرّةٍ بعدَ الأسرِ يسمحُ له الوقت بالنظرِ إلى نفسهِ في العمق.

شعرَ أنَّهُ يختلفُ مع نفسهِ، مع قدرتهِ، كأنّهُ غدا نفسين مختلفين، هو لم يعتد هذه القدرة على الصبر، فكيفَ لا يزالُ صامداً حتّى الآن على هذا العذاب كلّه، ما الذي يدفعهُ لذلك،... يستطيعُ أن يرمي بجسدهِ من أعلى الجبل الذي يجبرونهُ والأسرى على تسلقِهِ يوميًّاً لحفرِ الأنفاقِ والكهوف فيهِ. أجل يستطيعُ ذلك، لكن لماذا لا يستطيع؟!!!

أصبحَ جسدهُ الشاب بالياً تماماً، وهو من يهتمُّ بالرياضةِ والطعامِ الصحي، ضمرت عضلاتهِ وانحنى ظهرهُ، لكنَّ شيئاً ما في داخلهِ لا يزالُ شامخاً رغم الأسرِ والشتائمِ البذيئةِ، الكفر... الخطيئة... ابن الخنزير... والعاهرة...

رغمَ كلّ ما كان يسمعهُ من بذاءات، بقي داخلهُ أبيضَ نقياً كالثلج الحنون في قريتهِ التي لم يبقَ له فيها أحد، وبقيَّ الجميعُ ما دامت ذاكرتهُ حيّةً فهم يعيشونَ فيها، ينتظرون مرورهم ببالهِ أو بالقربِ منه، يتحينون أن يتعثرَ بذكراهم، ليعرفَ أنهُ لا يزالُ على قيدِ الحياة.

فكرَ رامي في الوقتِ المتاح : تُرى لماذا يقاتل، ومن يقاتل، ففي لحظاتٍ كهذهِ تخبو العزيمة وراء ذيل الحنين للأيامِ الرخيّةِ التي يعيشها الإنسان، وجلّ همّه أن يُسمعَ حبيبتهُ أغنيةً تلفتُ انتباهها، أو أن يجمعَ مالاً ويشتري بيتاً، أن ينجحَ، يسافر..... إلخ

ففي الأيامِ الرخيّةِ كنّا نعيشُ للحياةِ نفسها، فهذه حالُ الدنيا، يولدُ الإنسان، يعيشُ، يذبلُ، يموت... أمّا الآن فهو تائهٌ وكأنَّهُ يعيشُ لشيءٍ مختلف، لمفهومٍ متناثرٍ في فضاء تعبهِ إلّا أنَّهُ يشعرُ بوجودهِ، ربما يعيشُ

لأجلِ الوطن.

- كلامك كبيرٌيا رامي... هل كبرتَ في الحربِ أم كَبُرَتْ الحربُ فيكَ؟

- لا أعرف. لكنَّ التحدّي الآن هو الحياة، ليست الحياة الحياة... الحياة يعني

- إنما؟

- أقصدُ الكرامةَ، الشرف، تحدّي الموت في هكذا مكان

- يجب أن لا تكتفي بتحدٍ للموت هنا - (وضربَ على صدرهِ) – يجبُ أن تقتُلَ الموت هنا... يجب أن تعيش، يجب أن تدوسَ الموت وتخرج حياتكَ التي ابتلعها من أحشائِهِ.

- أجل لن آمل أن يطلقوا في رأسي رصاصة رحمة، لا أريدُ رحمتهم، لأني لن أرحمهم أبداً، لو أُتيحَ لي...

- افتح الباب، أريدُ أن أتحدَّثَ للمرةِ الأخيرة مع ابن الزانيةِ هذا!

وأشارَ الرجلُ الملتحي إلى رامي الذي لا يزالُ يتحدَّثُ إلى نفسهِ...

- حاضر يا شيخ

وفُتِحَ البابُ الحديدي، وبقيَّ الحرّاسُ واقفين أمامَ الباب باستقامةٍ بدوا معها كأصنامٍ حجريةٍ.

دخلَ الرجلُ ودون أي كلمةٍ رفسَ وجه رامي الذي كتمَ أنتهُ، أو بالأصحِ اعتادَ ذلكَ المقدار من الألمِ، اعتادتهُ عظامُ وجههِ وعينيهِ، حتى صوتهُ اعتادَ أن يحذف الآه منه.

اعتدلَ في جلستهِ بعدَ أنّ سقطَ أرضاً، نظرَ إلى وجهِ الرجلِ الذي صرخَ فيه :

- انهض يا خنزير.

- لا أريدُ. لن أنهض...

جلسَ الرجلُ القرفصاءَ فأصبحَ وجههُ أمام وجه الأسيرِ تماماً، اقتربَ منهُ ونظرَ في عينيه المطرقتين، وضعَ يدهُ على ذقن رامي ورفعَ وجههُ إلى الأعلى... ليصبحَ في مواجهةِ وجههِ تماماً ولتلامسَ وجههُ المربع أنفاس

رامي الغاضبة، ولامسّت شعرات لحيتهِ المشعثة أنفَ الشاب الذي بدت على وجههِ أماراتُ القرفِ لكنَّ الشيخ ظلَّ ينظرُ إلى وجهِ الشاب وكأنهُ وجدّ فيهِ شيئاً اعتقدَ أنّهُ أضاعهُ، ربمّا كان شيئاً مهمّاً، إلّا أنهُ نسيَّ مدى أهميتهِ، شعرَ الشيخُ بسكينٍ تخزهُ في قلبهِ، وقال :

- أعطني إحداثيات مخازن الأسلحة وقواعد الجيش يا ابن القحبة.

- أمي أعظمُ امرأةٍ في هذا العالم.

- حتّى أمي كذلك، فكيفَ تكونُ أمك أعظم؟!

- لأنها أمي.

- اسكت يا ابن الخنزير وأعطني الإحداثيات.

وشدَّهُ من مقدمةِ شعرهِ إلى الخلف.

- فشرت.

قالها وقد بدأت أنفاسهُ تضيق وكأنهُ شارفَ على الاختناق لأن رأسهُ عادَ بفعلِ ضغطِ يد الرجل إلى الخلفِ أكثر من اللازم.

- من أين أنتَ يا ولد؟

- من سورية.

- بعرف من سورية.... من وين أنت ولاك!

- من سورية... أنت منين؟

- أنا من سورية وأنت رح تطلع برا يا كلب... أنت وأمثالكَ من الكفَّار، سنزيلكم كما نزيلُ الوسخَ، ستصبحُ الأرضُ نظيفةٌ من قذارتكم وكفركم.

كان رامي يصغي لصوتِ الشيخِ وطريقةِ نطقهِ للأحرف عندما ينسى أن يتحدَّثَ اللغة الفصحى... اللهجة، أجل إنها لهجةُ أهلِ القريةِ نفسها، والتي لا يمكن أن يتوه عنها.

- ألستَ من ضيعة (.....)

رنَّ الاسمُ في مسامعِ الشيخ، وشَعرَ بأن ثباتهُ الداخلي اهتزَّ فجأةً، وكادَ يقول : أجل.... أجل... أنا من تلك القرية... أحفظ طرقاتها كلها،

وبساتينها... أو ربما هي تحفظُ قياس قدمي، عدد قطراتِ دمي... أنفاسي التي تشكلّت من هوائها...أجل... أجل أنا من هناك... وسرحَ خيالُ الشيخ في البساتين وفي مجرى الينابيعِ المليء « بالجرجيرِوالقرّة «، وطعمهما الذي لا يزال عالقاً بذاكرتهِ، مع الحمضِ والثومِ...

في تلكَ القريةِ لم يكن لينام أحدٌ جائعاً، فالأرضُ مليئةٌ بالخيرِ، بالدردارِوالهندباء، عسلُ النحلِ، كرومُ العنبِ على جانبي الطريق، فيأكل منها المارّة، وتنامُ فيها العصافير... في القريةِ كلُّ شيءٍ، حتى إنسانيتهُ رماها هناك ورحل.

- لماذا تسأل؟ قال وقد خفَت حدّةُ صوتهِ.

- لأنني لا يمكن أن أتوه عن أبناءِ قريتي، مهما تخفوا وراءَ لحاهم، وثيابهم الغريبةِ، شتائمهم القذرة... أستطيع أن أعرفهم من رائحتهم، فلأبناء البلد الواحد رائحةُ دمٍ واحدةٍ لا يتوهونَ عن بعضهم.

- تريدُ أن تقولَ، إنَّ أبناء قريتكَ ناسٌ رائعون، نظيفو القلوب، يحبونَ بعضهم بعضاً دون تعصبٍ أو كرهٍ؟

قلّي يا.... أياً كان اسمكَ... أنتَ مجرد كلبٍ من كلابِ النظامِ... قلي يا كلب كم من حبّ قتلتهُ الطائفيةُ، وجعلتهُ يلد الكراهية والحقد في قريتكَ، وكم من عشقٍ دُفِنَ في قبر الدين في قريتكَ، وكم من فقيرٍ مُعْدَم قُتِلَ على يدِ تكبروعنجهية أغنياءِ قريتكَ؟ وكم؟... وكم؟... وكم....؟

لكن وهو ينظرُ في عيني الشاب تذكرَ عيني تلك المرأة « المجنونة» التي وجدَ فيها فريسةً لحلّ عقدتهِ، فهي امرأةٌ غنيةٌ، لكنها مجنونة.

- يا مجنونة... يا مجنونة... يا مجنونة.

نظرت المرأة بمودّةٍ، ابتسمت:

- سلِّم على أمّك يا خالتي وقل لها: اشتقت لها وخلينا نشوفها.

آه من تلك المرأة ماذا فعلت بقلبي، وكأنها تحارب قسوةَ الحياة معي، تحملُ حنانها سلاحاً فقط، وكان أقوى من أيّ سلاح.

- كلامك صحيح يا شيخ... وأياً كان اسمكَ أنتَ أيضاً... لكنكَ أخي...

يا أخي، كلّ ما قلتهُ موجود، وكلّ ما هو مخالفٌ له موجود، قريتُكَ عالمٌ صغيرٌ فيهِ كلّ ما في العالم.

في هذه الأثناء كان الشيخُ يهز رأسهُ ويتذكر تلك المرأة التي حاولَ السخريةَ منها في يوم من الأيام،

تجلسُ أمامَ المنزِلِ بعدَ أن تنهي أعمال منزلها وتحوكُ الصوف....

يداها لا توقفان العمل، وكأنها في مهمةٍ لصناعةِ كنزاتٍ لأبناءِ القريةِ كلهم.

ظلت تدافعُ عن نفسها أمام سخريتي وسخريةِ بقيّةِ الأطفالِ في القريةِ بابتسامةٍ هادئةٍ وتبتعد، وكأنها لا تسمعنا، بل تتحدث إلى آخرين بهدوء الغياب... إلى إحدى ليالي العيد... كانت الليلةُ الأولى ؛ طُرِقَ البابُ كالعادةِ منذُ عدّةِ سنوات، خرجت أمي لتعودَ وبيديها كيسٌ كبيرٌ، تساقطت عليهِ بعضُ ندفِ الثلج، وكانَ مملوءاً بكسوةِ العيد على مقاسي ومقاسِ إخوتي... كلُّ واحدٍ منّا وجدَ في الكيس ما يناسبهُ، ووجدتُ بدوري ما يناسبني ؛ الكنزة نفسها التي كانت تحوكها أم يحيى... صنعتها من أجلي... لكن لماذا تحضرُ في ذاكرتي بهذهِ القوة؟!!... أمن المعقول؟!! لا... لا...

- ابنُ من أنت في القريةِ... أجب فوراً.

- ابن القرية...

- أرجوك أخبرني... هل أنت ابن أبي يحيى؟

قالَ ذلك وقد تهدّج صوتهُ وشحبت ملامحهُ وسط استغرابِ رامي الذي فاجأهُ الشيخ وفاجأتهُ فراستهُ... الشيخُ فعلاً من أبناء قريتهِ كما كان يظن!

- أجل ابنهُ... ومن تكون أنت؟

-..... ابقَ هنا لا تحاول الهرب... لا تجادل أحداً... حاول أن تحافظَ على نفسكَ إلى أن أعودَ إليك.

خرجَ برهان من الزنزانةِ، وهو يحملُ على ظهرهِ كمّاً من التناقض والغرابةِ لم يستطع تحمّلهما، فبدأَ يحدّثُ نفسهُ متسائلاً عن جنونِ

الأقدار، وتطرّفها عن مباغتةِ الحدثِ لحدثٍ كادَ يحدث... فلمَ.... كانَ قادماً ليأمرَ بقتلِ هذا الشاب، مع مجموعةٍ من الأسرى، تُرى ما الذي جعلهُ يتحدّث إليه بماذا يشعر؟... ممَّ هو خائف؟... أن يكونَ لدمِهِ رائحةُ القريةِ فعلاً كما قال رامي؟!

يكادُ أن يغشى عليه، يمشي ولا يرى أمامهُ سوى ذراتٍ تشكلِّ الكون والصحراء التي يعيشُ فيها، كلَّ شيء يتناثر من حوله في انفجارٍ للمشاعرِ، الذكرى، الأحداث، الحب... أجل... الحب، فأم يحيى كانت حُبهُ الإنساني الوحيد، ولا يزال حتى اليوم يحتفظُ بتلك الكنزة التي حاكتها أصابعها... كانت الملاك الذي يشعرُ بهِ، فكيفَ يستطيعُ قتلَ ابنها اليوم!!

يا إلهي كيفَ نسيتُ أن أسألهُ عن حالها؟!

- ستكون بخير إن كان ابنها بخير يا برهان.

- سأعملُ جاهداً ليصبحَ بخير... سأعملُ جاهداً... أقسمُ على ذلك.

القرية ٢٠١٤

بعد أن نجحت خطة جفن، تلك الحبكة المحكمة التي حاكها ليتم قتل رئيس المقر واستلامهِ مكانه بالإضافة إلى مبلغٍ خياليّ من المال، جلسَ جفن يتذكر الضابط المهيب وسيرته العطرة، قيمته في القرية على الرغم من أنه ليسَ منها، لكن أهل القرية أحبوه كما لو أنهم منه، دمعت عينا جفن، وحاولَ مراراً أن يفهم تناقض الحوادث في داخلِهِ غير أنه لم يستطع، وضعَ المال أمامهُ في كيسٍ أسود من النايلون، فتحهُ بحذر، نظرَ إليه، خرجَ خوفه وغرابة لم يعهدها، خرجت دموعهُ، كثيرٌ من الدماء نزفت، بدأ الكيس يتضاءَل، ويتلاشى... اختفى.... فجأةً ظهرَ خلفَ ظهرِهِ ليصفعهُ على نقرتهِ :

- هل أستحقَ كلَّ هذا العناء يا حقير؟

- لا... لا أحد يستحق ولا شيء أيضاً يستحق.

- إذن؟

- إذن.... بعض الأحداث تحدث لمجرد حدوثها لا لسببٍ مقنع أو منطقي، ليسَ بالضرورة أن تخضع لقوانين الكون.

- إذن لم تكن بحاجةٍ للمال؟

- لست بحاجةٍ إلى شيء... ربما البكاء فقط... اخرج أريدُ أن أبقى وحيداً.

بكى جفن بكى على روحهِ الضائعة، بحثَ عنها طويلاً في هذه القرية اللعينة عبثاً حَفَرَ التراب، قطعَ الأشجار وقفَ تحت المطر، سكون الليل، زقزقة العصافير، لم يجد شيئاً انتقل بعدَ ذلك إلى الناس بدأ يقتلهم الواحد تلو الآخر، يفتش فيهم في قلوبهم جثثهم ما من فائدة....

ما فائدةُ كيس مملوءٍ بالمال؟ شعورٌ غريب ينهشهُ من الداخل بالتأكيد ليسَ الندم، ربمّا هو الضياع الصامت الثابت في عمقه المعمّر قبل الأزل إلى الأبد، الذي يأكل الكائنات التي ولدت مرهقة فزعةً من الحياة، إلى أن تهبها الحياة روحاً، فتعتدل وتجثم فوقَ الخوف إلى أن

يختنق وترسمُ لها الحياةُ درباً فتسير حتى النهاية... إلّا أنهُ حتّى الآن لم يجد درباً يسيرُ عليها إنَّهُ لا يزالُ يتخبط في شربكةِ الطرق تلك وكأنّهُ واقعٌ في هوةٍ مليئةٍ بالمخاط، بالعلكة، بمفرزاتٍ لزجةٍ لا يستطيع التخلّص منها، فيلجأ للبكاء.

في ذلك اليوم بالذات كان لجفن وعزيز لقاءٌ ثانٍ بعد خروج عزيز من السجن، مفاجأة أن يقف كلاهما في هذا المكان نفسِه، وبينهما ما كان من ذكرى، كلّ واحدٍ يذكرها على طريقتهِ.

إلّا أن جفن لم يتفاجأ كثيراً، فهو الذي عَمِلَ على استدراج عزيز إلى المقرّ الذي أصبحَ تحت إمرتهِ منذُ وقتٍ قصير.

ولجَ عزيز باب المقرّ ليجد جفن جالساً في الظلّ... المنطقة الظليلة الوحيدة في الخيمة المتجهة شرقاً ببابها الذي يمتدّ على جدار، في الزاويةِ البعيدة جلسَ جفن، بقي صامتاً ينظرُ إلى عزيز... إلى عينيهِ المتوهجتين....

عرفهُ عزيز منذ النظرة الأولى، لكنَّهُ بقي واقفاً ينظرُ حولهُ إلى الصورِ التي غطّت الجدران الثلاثة ؛ صورَ لشهداءِ الحرب وتحتَ كلّ صورةٍ اسم صاحبها، وعباراتٌ وطنية ورعة مكتوبة بخطٍ متناسقٍ مهذبٍ تتحدث عن حبِّ الوطن عن الشهادة في سبيلهِ...

- أينَ قائدُ المقرّ؟

سأل عزيز الشابّ الواقف أمامَ الباب والذي بدا لهُ أنّهُ مارس الجنس حتّى الرمقِ الأخير فأفرغ من محتوياتِ عقلهِ، ونامَ واقفاً.

أشارَ الشابُ بيده إلى الداخل، لكنَّ شاباً آخر أشهرَ سلاحهُ في وجه عزيز.

- توقف

- أنا أقفُ يا رجل... ما بكَ؟!

- إرفع يديكَ

دسَّ الجندي تحت إبطيه وبين ساقيه، على جانبيه، إلى جواربه..... بطاقتك الشخصية...

- تفضل.

حملَ البطاقة إلى جفن الذي ضحكَ وهو يقرأ الاسم، بعدَ أن ميَّعَ لفظ كلَّ حرفٍ فيه.

- أهلاً وسهلاً عزيززز، بماذا أخدمك؟

- أنا من يريد أن يخدمك والله، ألستَ في خدمةِ الوطن؟

ارتبكَ جفن وحكَّ ذقنهُ ثمَّ هبطت يدهُ إلى شعرِ صدرهِ وأخذ يحكهُ ويشدّهُ بتوتر...

- أجل في خدمتهِ طبعاً

- أريدُ أن أتطوعَ إذن.

- أنتَ محكومٌ يا عزيز... وهذا الأمر صعبٌ قليلاً، فلربما نفقد ثقة الناس إن عملتَ معنا، لكن... كرمال الأيام الخوالي... سأدعكَ تعملُ سرّاً هنا، ما رأيك.؟

لم يبالِ عزيز بغمزاتِ جفن التي حاولَ بها تسديد ضرباتٍ قاصمةٍ إلى كرامتهِ، كان لا يزال حائراً في الانطباع الذي تشكل داخله في هذا المكان... كان يذكرّه بالسجن، لم يكن يشبهه لكنّهُ يشبههُ كثيراً!

يشبههُ في اختلافه عنهُ، في تناقضهِ معه...

كان أوّل يومٍ له في السجن شبيهاً بهذا اليوم، بدأ بمطالعةِ المكان والعيون التي لم يكن بارعاً بقراءتها، لكن في السجن، كان كلّ شخصٍ هناك يترك لعينيهِ أن تتحدث كما تشاء على سجيتها، فالجميع محكومون مؤبد، لا مكان لخوفٍ أو خجلٍ، العبارات البذيئة تملأ الجدران، الصور الفاضحة... الشتائم التي تلحقُ بكلِّ شيء يعرفونهُ ولم يتسنَ لهم التعرف عليه، كلُّ شيء كان واضحاً (على المكشوف)، لذلك لم يخف عزيز حين قذفوا به داخل تلكَ الزنزانة التي التقى فيها بصديقه « علي سعيد «.

- أبحثُ عن صورة الضابط عزام، لقد سمعتُ عنهُ كثيراً...

- ليست بين الصور.

- غريب... لماذا ليست بين الصور... أليسَ شهيداً؟

- أجل... ولكنها وصيتهُ... أوصانا بعدمِ استعراضِ صورٍ لهُ وشدَّدَ على ذلك، وأيضاً أوصانا بعدم إطلاقِ الرصاص في جنازتهِ...كانت هذه وصيتهُ قبلَ أن يموت.

انسدلَ الحزن على وجهِ الشاب، فصمت، وعادَ ينظفُ سلاحهُ.

جلسَ عزيز بدورهِ أيضاً ينظفُ سلاحهُ الذي تسلّمهُ، وبين الحين والآخر كانت مسامعهُ تلتقطُ أصوات وحوشٍ ضاريةٍ، وزعيقاً يشبهُ أصواتاً لأناسٍ يعيشون أقصى حالاتِ الفزعِ، وعندما سأل عن ذلك، قالوا له :

- إنها أصواتُ وحوشِ البريّةِ.

- وكأنني لستُ من القريةِ! هذه الأصواتُ لم أسمعها من قبل... وأنا ابنُ القرية.

- لكَ أن تسمع ما تشاء، وتظنّ ما تشاء أيضاً... لكن لا تعر ظنونك اهتماماً أكثر من اللازم، فالاهتمام والوقت لليقين الآن وليسا للظنون.

- وما هو اليقين برأيك؟

قال ذلك وقد ضحكَ ضحكةً مائلة رغماً عنهُ، إذ فاجأتهُ اللغة الفلسفية التي تحدَّثَ بها العسكري الغرّ.

- الضابط جفن.

- حقاً!؟

- حقاً.

لم يستطع عزيز أن يتخلص من شكوكهِ حولَ تلك الأصوات، وبدأ الأمرُ يقلقهُ، إذ صارت تزداد يوماً بعد يوم، وبدأ الصراخ يصبحُ أكثرَ قرباً ووضوحاً، أصواتٌ لحيوانٍ مفترسٍ يهاجم إنساناً إلى أن يفترسهُ، فيخبو الصوت بعدَ أنينٍ ويهدأ الحيوان بعد أن يمتلئ.

نفضَ رأسهُ محاولاً إبعاد الفكرة.

- لا لا يا عزيز... هذا غير معقول... لا لا

لكنَّ الأصوات كانت تعود في كلّ ليلةٍ لتؤرقَ مضجعهُ، وكلّما علت تلك الأصوات كان الوقت الذي يجلسُ جفن فيه وحيداً يزداد ليخرجَ بعدَ

ذلك محمَّر العينين وكأنهُ يعاني أرقاً عمرياً يرافقهُ منذُ الولادة ثمَّ يركبُ سيّارةً جديدة.

- ما بكَ حضرةَ الضابط تبدو متعباً؟

- أجل يا عزيز أنا كذلك. أليسَ من الغريب أن تسألني ما بي، ونحنُ في هذا الجحيم!؟

أمن المعقولِ أنكَ لا تشعر ؟!

- قال لي صديقي علي قبلَ أن أخرجَ من السجن : إنَّ هذا الجحيم ضروري.

- ولمَ برأيّ السيّد علي، ما الضرورة لذلكَ يا فيلسوف عصركَ؟

- لكي ننصهر معاً، يحترق كلُّ ما فينا، فيذوب ما يذوب ويرمَّد الباقي وليذروه الزمن، و الحكايا، ثمَّ نمتزج لنخرجَ بروحٍ واحدةٍ كما كنّا ذات نعيم.

- لم نكن في يوم... اقرأ التاريخ....

- ليذهب التاريخ وقواعدهُ إلى الجحيم، لتبقى الجغرافيا فقط.

- الجغرافيا؟!

- أجل الجغرافيا، لأنها مؤنث، الأنثى المزروعة في كلِّ واحدٍ فينا مهما أذابنا الجحيم، ستعود الجغرافيا لتتشكّل من جديد على حقيقتها الأزلية، فهي الحقيقة، أمّا التاريخ فما هو إلّا رمادٌ يذرو نفسهُ بنفسه... إذن هل لا تزال متعباً؟

- لا أعرف... اخرج واتركني وحدي... هذا أمرٌ عسكري.

- حاضر سيدي.

نظرَ عزيز حولهُ قبلَ أن يخرج، وقد أخذ إدراكهُ للحالةِ يتبدى أمامهُ بشكلٍ أوضح، بدأ يفهمُ هذا الشعور بالتناقض الذي جعلهُ يتذكر السجن ووضوحه، وأن يقارنهُ بهذا المكان الذي يشبهُ بيتاً نتناً كريهَ الرائحةِ، ويحاولُ أصحابهُ إخفاؤها بالكثير من المواد المعطرةِ عبثاً قبل استقبال الضيوف.

بدأ يفهمُ مع الوقت أنَّ جفن وأعوانهِ المقربين يخفونَ أمراً ما، ويجب عليهِ اكتشافهِ، لكن اللون الناشز في اللوحةِ، أو الممثل الذي يدخل قبلَ أن يأتي دورهُ، كان واضحاً، فلماذا أقحموهُ هنا معهم، مهما كان ما يقومون به من سوء، هو واضحٌ في عيونهم، ترى هل تراود جفن رغبةٌ في إعلان أخطائِهِ، فقط لمجرّدِ الإعلان الذي ينسابُ بالإنسان إلى مكانٍ من الراحةِ، وكأنهُ رصاصةُ رحمةٍ أو هكذا شيء من الرحمةِ، تنتشلُ الإنسان الخاطئ من الصمت الذي يحبسُ صوتهُ داخلهُ، فيلاحقهُ الصوت بسكاكينهِ ليلاً إلى أن ينزفَ صوتهُ، ويهوي إلى الخوف، الرعب، الفزع من النوم ؛ فيسهر ويسكرُ حتى إعلانٍ آخر... إشعارٍ آخر.

- قلي يا وجد... وجد وجد لماذا اسمك رقيقٌ هكذا... كيفَ لم أنتبه إلى ذلك قبلاً، وضعَ كأس العرق من يده على طاولةِ الخشب، ورفعَ يدهُ ملوحاً بها أمام وجهِ الشاب الذي بقيَّ ساكناً، وكأنهُ اعتادَ أن يلتزم الصمت في نوبةِ جنون جفن الليلية هذه.

- سأغيّرُ اسمك... سأسميك : سهم.

- حاضر سيّدي.

- كنتُ أقولُ لكَ : قلّي ولم تقل لي... هاه... لماذا لم تقلْ لي؟

- ماذا أقول يا سيدي؟!

- أنتَ تعرف أنَّ الإنسان العبقري هو من يضعُ قوانين جديدةً، تبتكرها مخيلتهُ ليرقى بالحياة إلى مستوىً أفضل!

- أعرف.

- وأنا كذلك... أليسَ كذلك؟

تململَ الشابُ ومسحَ العرقَ عن جبينهِ وابتلعَ ريقهُ بصعوبةٍ....

- كذلك سيدي.

- إذن لماذا أنا حزين؟!

في أميركا كانوا يصطادون التماسيح... أتعرف كيف؟... هل رويتُ لكَ القصة؟

- لا سيدي، لم تروها.

وفكرَ وجد أنَّ الله يعاقبهُ على صمتهِ حتى الآن وعلى قبولهِ المال والسيّارة من قائدهِ وعلى بقائهِ مع جفن رغم الفظائع التي يرتكبها، أجل الله يعاقبهُ.

- كانوا يخطفون أطفال النساء الزنجيات ويستخدمونهم كطعمٍ لصيدِ التماسيح، يتركونهم على ضفةِ النهر عدّةَ ساعات وهم يبكون فيسمعُ التمساح صراخَ الطفلِ المربوط بحبلٍ ثخين، فيأتي مسرعاً ليبتلعهُ، وعندما يبتلعهُ يشدّون الحبلَ ويصطادونَ التمساح.

تُرى من يكون قد قتلَ الطفل في هذه الحالة؟!

- الأميركيون سيدي.

- لا يا غبي التمساح. التمساح من قتلهُ، هل ابتلعَ الأميركي الطفل، هل تلوثت أصابعهُ بدمهِ؟ لا لا لم يحدث، كن منطقياً يا وجد.... قلنا سهم، أليس كذلك!

- سهم سيدي.

- هل أقتلُ أحداً إذن؟

- لا يا سيدي.

- من يقتلهم إذن؟

- الضبعُ يا سيدي، الضبع من يقتلهم.

- لأجلِ هذا أحبُّ رفقتكَ يا وجد... لأنك ذكي.

- سهم سيدي.

- أجل أجل... سهم.

وبدأ صوتُ جفن يتهدج، وغادرَ المرحُ مزاجهُ، وعاودتهُ نوبتهُ الليلية تلك.

- غادِر يا وجد... على فكرة وجد أجمل من سهم، مع أنَّ كليهما يقتلان.

وبدأ يبكي ويبكي إلى أن طلعت شمسُ الصباح لتذكرّهُ أنّهُ جفن.

في تلك الليلة لم يغادر عزيز المقر، وكان يستمعُ إلى كلِّ ما حدث، فكما قلتُ سابقاً أنهُ في اللحظةِ التي تعتقدُ فيها أنك تكتم سرّاً، أو تفعلُ شيئاً في الخفاء؛ لا بُدَّ أن هناكَ من يراقبك.

السعودية ... أيار ٢٠١٨

أصبحَ عليَّ أن أدركَ أنَّ وجودَ حياة انتهى... لكن كيف انتهى ولم ينته؟

- حبيبي...

- لأوّلِ مرّةٍ تناديني حبيبي!

- ولآخر مرّة.

- لا يا حياة... أريدُ ذلك دائماً.

- أنا ذاهبة... سأغادر... سأرحل... قل ما شئت وافعل ما شئت، غير أني ذاهبة.

- لماذا؟ من أجلِ جفن؟... ستلازمينهُ في السجن؟

- لم ألازمهُ يوماً... مع أنني أتيتُ من أجله... لكنّ بابهُ كان موصداً دائماً، وعندما فتحهُ، كان الوقتُ قد نفد.

- وقتُ ماذا؟ أرجوكِ حياة... أرجوكِ

إلّا أنها غادرت، أُرسلت لي صورتها في اليوم التالي وهي ميتة، وفي القبرِ المظلم كانت عيناها جاحظتين، وبشرتها المتوردةُ بهتت... أمّا أنا فلا أزال أعيشُ هذا الهذيان المالح الذي ينسكبُ في رأسي كسُمٍّ ديموميٍّ، معتّق محسَّن، محدَّث، لا أعلم.

- أعلم أنها رحلت يا دكتور

- من هي؟

- حياة.

- حياة؟ عمَّن تتحدَّث؟

- الفتاة الصهباء، كانت ترافقني دائماً... ألا تذكرها؟! لقد عرفتُكَ إليها.

- لم تعرّفني إلى أيّ فتاة، ولا زلتُ واثقاً أن ذاكرتي فولاذية، إضافةً إلى ذلك أنا أتابعُ حالتك منذُ سنوات لأنها حالةٌ خاصة، وكل تفاصيلها لدي في سجلّكَ، كلّ المعلومات عنكَ حتى أسماء الزوّارولم تكن من بينهم

فتاة.

- حقاً؟!!

- أكيد... من هذهِ الفتاة التي تتحدثُ عنها؟

- حياة... حياة...!!!

- حسنٌ... أعطني رقمها... أتصل بها

- دكتور... قلتُ لكَ أنها ماتت... ماتت... انتحرت، ألقت نفسها من فوق ناطحةِ سحاب، وسقطت كثوبٍ حريري على الأرض، لم يكن هناك دماءٌ أو كسور، ولا حتَّى جروح،

سقطت نائمةً كطفلٍ هادئ، كثلجٍ هادئ ؛ بسلامٍ على الأرض، سقطت على الأرض لترحلَ عنها، أو لأرحلَ أنا، لا أعرف أن كلَّ محاولاتها للانتحار ما كانت سوى نوباتٍ قلبية كادت تقتلني، وأنَّ فشلها في الانتحار لم يكن إلَّا تمسكاً لي بالحياة، تلك الفتاة كانت الحياة، أهذه هي الحقيقة حقاً، هل من الممكن أن أعيشَ عمراً من الوهم، أو أعيشَ الوهم عمراً، فيصبحُ الموت... موتُ ذلك الطفل ابن الأربع سنوات، نهايتهُ الوشيكة تلك الحقيقة التي وقفَ أمامها الأطباء عاجزينَ، قتلها الوهم، هزئَ بجثتها، ومضى بي وهمي إلى الحياة التي كانت الحقيقة ستنهيها.

من المؤلم أن أعرفَ هذا الوهم , جلستُ طويلاً وفكرت أن خالتي أم يحيى بالتأكيد كانت سعيدة لأنهم كانوا يقولون عنها أنها تتحدّثُ دائماً مع أطفالها الذين ماتوا، فقد ولدت عدداً من الأطفال يموتون حالَ ولادتهم، أمّا يحيى، فلم تعرِ موتهُ اهتماماً، جلست بثيابها البسيطة، وشعرها الأسود المعقود إلى الخلف كما عهدتهُ دائماً، جلست بين الناس كأنها تعلم ولا تعلم.... تنظر حولها في الفضاء الحزين، ولا تدرك سبب الحزن، مهما كان الجواب يومها، لم تكن لتدركه، فيحيى يجلس إلى جانبها ممسكاً بيدها، ويحدثها عن حبّهِ... عشقهِ... قصص كتبهِ التي قرأها والتي سيقرؤها فيما بعد...

- أنصحك بزيارةِ الطبيب (علي سعيد)، إنهُ صديقي وطبيب مميزٌ

ناجحٌ جداً في عملهِ

- طبيب؟! هل ستتخلّى عني يا دكتور عبد الله؟

- لا... لا... يا رجل... هذا اختصاصٌ مختلف... طبيبٌ نفسي

قال ذلك مبتسماً وكأنّهُ يريدُ بابتسامته أن يقول لي : لا أريدُ أن أقول لك إنّك مجنون، الأمر طبيعي... وعادي..... إلخ

- ماذا هناك دكتور عبد الله... ماذا دهاني...هل أنا مجنون؟

- لا أعرف... أنتَ حالة خاصة بالنسبةِ لي... حتّى إن كنت مجنوناً فجنونك حالة نادرة، أريد متابعتها مع د. علي

حملت إضبارتي التي حضرها د. عبد الله، رميتها في السيّارة، وبدأ السائق يقود، وبدأ عقلي يعمل بطريقتهِ المختلطة... حياة.. أم يحيى... القرية... صور متلاحقة مختلطة... عزيز... جفن، اخرجوا من رأسي رجاءً... أكاد أنفجر، لم أعد أعرف في أيّ ملفٍّ تحتفظ ذاكرتي بالصور، ملفِّ الحقيقة أو الوهم؟

امتزجت الصفحات مع بعضها، اختلطت لتغدو كلًّا متجانساً متنافراً داخل عقلٍ مجنون، فصامي، مخروق، يدخل له ما لا يجب أن يدخل، ويسقط منهُ، ربما في الطريق أو الحديقة، في الوطن أو المنفى، عن الفرح، عن الحزن، عن الغياب عن الأصدقاء القدامى، عن قرفِ الحياة، عن أمّهِ، عن اشتهائهِ لحياة وقرفهِ من عضوٍ دون فائدة، عن الخوف، العجائبية، عن كلّ شيء ما يجب أن لا يسقط.

فتحتُ الإضبارة محاولاً الهرب من اعتلال تفكيري ؛ لأجد تشخيص الأطبّاء قبل أربعين عاماً صور شعاعية كنتُ قد أحضرتها مع عدد النوباتِ التي دخلت فيها غيبوبة، وشرحٍ مفصل عن صحوةٍ مفاجئةٍ غير مبررة في كلّ مرّةٍ كانت التواريخ مسجلّةً بالساعة، والدقيقة، ضمن بحثٍ دقيق وإشارات استفهام وتعجّب لا تحصى قام بوضعها د. عبد الله.

لكنني عندما قرأتُ التواريخ بدقة، بدأت أنفاسي تتسارع، أصبحت أشعر أنَّ قلبي يتقطع، يتمزّق، إنني مريضٌ حقاً.... اتكأتُ على

جانبي في المقعد الخلفي للسيّارة، وبدأتُ أقارنُ تواريخَ لا يمكن أن أنساها، لقد كانت محدّدة بدّقة في دفتر مذاكرتي تلك المرات التي حاولت فيها حياة الانتحار، وكانت تعودُ إلى الحياة بأعجوبة... لكن ماذا يعني ذلك، ماذا يعني؟!!!

القرية ١٩٩٠

تساقطت خصلات شعرها الطويل على الأرض في الوقت نفسه تساقطت دموعها، وتساءلت خصلات الشعر الداكن، ما الذي حدثَ لتُرمى في حاويةٍ قذرة، لكنَّ الدموع كانت تعرفُ الإجابة، لأنها نتيجةٌ للحزن الذي تشكلَّ في عينيها وقلبها، هرعت إلى الأرض لتجفَّ شيئاً فشيئاً مع الوقت الذي أخذَ بيدها مسرعاً إلى نهايةٍ ما...المهم أن ينتهي كلُّ شيء، كلُّ هذا القهر الذي تشعرُ بهِ سنا ترى ما سببهُ؟ أتراهُ حظّها العاثر؟! الذي رماها في تلك البئر العميقة، والظلام دامسٌ هناك، والهواء شحيح، ولا يزال ثِقّلُ جسدها يزداد فتغوصُ وتغوصُ في ماءِ البئر لتشعر بالاختناق، بتلكَ المياهِ المرَّة اللزجة، كمياه المجارير، أو الجحيم وقبل أن تختنق بقليل، قبل أن تموت بثوانٍ ؛ تستيقظ، لترى أنها في وسطَ الجحيم، وتسألُ الله كلَّ ليلةٍ أن يسامحها على خطيئتها، رغم أنها لم تكن نادمة، ففي الخفاء تختبئ أجمل الخطايا التي لا يزال قلبها ينبضُ بفضلها، إلا أنها تسألُ الله أن يغفرَدون ندم، تركت لقلبها أن يعشقَ ليعيش فحسب... لكنهُ مات موتاً غير شرعي...

- في الحب والحرب كلّ الموت مسموح... وأنا أموت بحبك يا عزيز.

- قلتُ لكِ أريدُ أن تعيشي، افهمي يا مجنونة.

كيف تعيشُ الآن في خراب القرية بعدَ غيابك، كيف تعيش على أنقاضِ قلب تهدَّمت جدرانه بعد حريقِ ذلك الليل الحزين ولم يبقَ سوى ركام مثير للشفقة حتَّى زوج عمتها، أصبحَ ينظرُ إلى حالتها بإشفاقٍ، هذه الفتاة الذابلة النحيلة، أصبحت عيناها مطفأتين وكأنها شبح، تقومُ بمهامها في المنزل، وتصمت، ثمَّ تبكي... بدت له كتفاحةٍ ذابلة، كعجوزٍ متعبةٍ جافة اليدين ثقيلة الحركة... وبقيت كذلك... تنتظرُ رسالةً من عزيز يقول لها فيها، أنه لم يقتل، فليقتل، لكن ليقول لها أنها ليست السبب في كلِّ هذا الذي حصل لهُ، وليقل إنها السبب، لكن ليقل إنهُ لا

يزالُ يحبها، ينتفضُ قلبها العاجز للفكرة، وكأنَّ حياةً دبت فيه من جديد، تبتسمُ شفتاها الجافتان، وتغفو على المصطبةِ أمام البيت حتى المغيب إلّا أنَّ الوقت مضى، كثيرٌ من الوقت مضى ولم تصل الرسالة، لكنَّ اليقين بعدَمِ وصولها وصل إلى سنا أخيراً وانقطعَ الأمل، فازداد الجفاف في داخلها إلى أن ماتَ شيء...أثمنُ شيء، هناك في الداخل العميق خلفَ الحسرةِ والخوف المجهولين، أعمق من ذلك بكثير...

لملمت أغراضها ذات ليل وغادرت القرية...

بعضهم قالوا إنهم رأوها تدخلُ ديراً، وبعضُهم الآخر قالوا: إنها تعملُ عاهرةً في أحد ملاهي المدينة وقيلَ الكثير، ربما سنا نفسها لم تعرف أين كانت...

غير أنَّ بعضهم قالوا إنهُم رأوها، وقد عادت قبلَ وفاة عزيز بعدّةِ أيام سلّمت عليهِ دونَ عناق، نظرت في عينيهِ مطولاً، دون أن تتكلم خوفَ أن يسمعَ حديثهما أحد، فهي تعلم أنهُ يقرأُ عينيها، لم يسمع أحد صوتهُ، لكنَّهم قرؤوا في حركةِ شفتيه كلمةَ أحبكِ... قبل أن تغادر القرية مرة ثانية، وتغيب في الليل.

تُرى هل كانت تعرف أن موتَ عزيز كان وشيكاً، هل أخبرها؟

لا أحد يعلم لماذا عادت في ذلك اليوم بثوبها الطويل ونظرتها الهائمة، وهدوءِ الرمقِ الأخير، ربمَّا لم تكن تستطيع الرحيل قبلَ أن يقول لها ما قالهُ، قبْلَ أن تعرِفَ أنها لا تزالُ تسكنُ قلباً يسكنها كلَّ هذهِ السنوات.

كلُّ ذلك الوقت الذي مضى لا أحد يعرف كم هربت من المطركي لا تراه فيه، وكم هربت من الهواء، هربت من الغرب والشرق والشمال والجنوب، من النظرِ إلى أقدامِ المارَّة، من روائح العطر، التعرُّق، الشاي، هربت من الحياة كلّها كي تتجنب وقوفها أمامَ الذاكرة التي ماتت وبقي هو الكائنُ الحيُّ الوحيد فيها وفي العالم كلِّه، أجل لذلك عادت جرعة من النظر إليهِ، كانت تكفيها حياة جديدة، ولو مات ألفَ مرةٍ بعدَ الآن سيبقى حيّاً في داخلها دائماً...

القرية ٢٠١٤/١٢/١٢

ظلامُ الليل وقسوةُ الحدث، بشاعةُ الأخبار... النهارات المكتئبة على مصاطب المنازل تنتظرُ موتاً أو حياة، تشجعُ صامتةً أن ينتهي الألمُ بموتٍ أو حياة إذ بدأت الأخبارُ المحزنةُ تصل عن المجازرِ التي ارتكبتها الجماعات المسلّحة في القرى القريبة، وعمَّ الخوف من الخراب، الأمهاتُ أصبحن ينمنَ وهنَّ يحتضنَّ أطفالهن، فالأمُ تفكر: إن كان حرقاً فلتحرَق أولاً، وإن كانَ ذبحاً وقنصاً، إن كانَ جلداً أفضل أن يحدث كلّ هذا لي قبلَ أن يحدثَ لطفلي، ورغمَ كلِّ التدابير الغريبة التي قام بها جفن وأعوانهُ فإنَّ الرعب بدأ ينتشر كانتشارِ النارِ في الهشيم.

فلم يكن خطفُ الناسِ الذين يستقلون سيّاراتٍ فارهةً يجدي نفعاً، لم يكونوا هم من يزحفونَ بأسلحةٍ ثقيلةٍ لاحتلال القرى والمدن، لم يكونوا من يشيعون الرعبَ وليسوا من يحرقُ النساءَ والأطفال بتهمةِ الكفرِ، تُرى لماذا لم يعرف جفن هذه الحقيقة؟... تساءَلَ عزيز بينهُ وبينَ نفسهِ، هو واقفٌ كحجرٍ أمام باب السجن الذي خصصهُ جفن للضحايا الذين يقومُ بتعذيبهم قبل تصفيتهم في هذا المكان.

الوحشُ ينفثُ رائحةً كريهةً في المكان، وينهشُ جثةً عليها بقايا ثيابٍ مضمخةٍ بالدماء، الجثة هامدةٌ قطعٌ من أطرافٍ وجزءٌ من رأسٍ ذي شعرٍ أسودَ فاحم.

لم يصدق عزيز ما يرى، تحجرت ملامحهُ، بدأ يشعرُ أن دمهُ يتجمد في عروقهِ، أصبحَ بارداً تماماً، وجافاً حتى النهاية، المفاجأة تطنُّ كالأجراسِ في أذنيه، وعقلهِ الذي تبلدَ، ثمَّ ما لبثَ أن انتفضَ، انتفضَ كلُّ شيءٍ فيه، بدأ الدمُ يفورُ في جسدهِ.

- يا إلهي، ما الذي يحدثُ بين البشر... يا إلهي؟!!

- لا تستغرب يا عزيز، كل شيء ممكن الحدوث في هذا العالم.

- لا لا... مثلُ هذهِ الأحداث لا تحدثُ في العالم... تحدثُ في عالمٍ

آخر، في عالمٍ أخرق مريض

- منذُ الأزل تحدثُ مثلُ هذهِ الأحداث.

- سأمحو الأزل إذن من ذاكرةِ هذا العالم، فقد يكفُّ عن إعادةِ الأحداثِ...

سمعَ عزيز أصواتاً تقتربُ فاختبأ،.... كانوا أعوان جفن وقد أحضروا ضحيةً جديدة، كانَ رجلاً معصوبَ العينين بعصابةٍ سوداء، يحاولُ التملصَ من بين أيديهم، غيرَ أنَّهُ لم يحظَ سوى بالشتائم والسباب.

يردُ عليهم بطريقتهم نفسِها، فيقومونَ بنعرهِ بأخمصِ بنادقهم، فيتأوه، ويجثو على الأرض، لكنهم يرفعونهُ، ويسيرونَ به...

لم يعرف عزيز إن كان يجب عليه أن يرى ما رآهُ في تلكَ الليلة، أم كان يجب ألا يرى، فما رآهُ فوقَ قدرة احتمالهِ، وهو بقوةِ عشرةِ رجالٍ... هذا صحيح، لكنَّ قلبهُ قلبُ طفلٍ، وهو الذي عاشَ عمرهُ في السجن، يرى الرجال المجرمين والقتلة، ومقتولي الروح والرجولة... يرى فوضاهم الداخلية ولا يتمالك نفسهُ من الألم على الرغم من هروبهِ إلى أقصى مكان، إلّا أنهُ كان يتألم، حتى على أولئكَ الذين يطلقونَ غبطتهم في الحمام كلَّ يوم كما يطلقون البول، كان عزيز خائفاً من أن يشفق على نفسهِ كما يشفقُ عليهم، لذلك حاوَلَ مراراً أن لا يترك جسدهُ على هواه، غيرَ أنهُ جسدٌ جامحٌ ما لبثَ أن خذلهُ بهولِ رغباتهِ ليصبحَ رجلاً مسجوناً في نَظَرِ السجناء الذين يتفاخرون بحلبِ أعضائهم كلَّ يوم.

كانَ عزيز حزيناً يومَ خرجَ صديقهُ الدكتور علي من السجن، لكنَّ الأخير طمأنهُ أنَّهُ رجلٌ حتى لو لم يقدم على أفعالِ الرجال.

- ما الرجولة إذن يا دكتور علي؟

- ليسَ هنالك تعريفٌ لها... يكفيكَ أن تشعرَ بها، كن رجلاً على طريقتكَ.

- إلى اللقاء يا دكتور.

- قلتُ لكَ ألفَ مرَّةٍ « لا تدكترني «... إلى اللقاء.

ولم يلتقيا إلى هذا اليوم لم يلتقيا، لكنَّ عزيز لا يستطيع أن يمنعَ نفسهُ من تذكرِهِ، ربمّا لأنَّهُ يشعرُ بالخوف من خوفهِ، اشفاقهِ، أو حتى انسانيتهِ...

رموا الرجلَ معصوبَ العينين في الغرفة المعتمة، وبدأ الحيوان يجعر، أمّا الرجل فوقفَ صامتاً بضعَ دقائق، ثمَّ بدأ يصرخ : أخرجوني يا أولاد القحبة... أخرجوني، أين وضعتموني يا حشرات يا سفلة... لابُدَ أنَّ الرائحةَ التي تخنق الهواء في الزنزانة أعطتهُ فكرةً عن «الأين « التي لا يعرف إجابةً عنها لكنَّ الفكرةَ التي أخذها لم تكن لتخطر في تفكيرِهِ، إلى أن اقتربَ الحيوان وبدأ يتشممهُ، ثمَّ يتبولُ عليه، لتبدأ الحفلة بجنونِ صخبها وفزعهِ بدمويته، لكنَّها في هذه الليلة لم تكتمل ؛

وجِدَ الحيوانُ مقتولاً بطلقٍ ناريٍّ في رأسهِ والشابُ وقد اختفى أثرهُ، وجفن بكى للاشيء هذه الليلة، ربمّا بكى على نفسهِ فالضحيةُ طارت، حلَّقت بعيداً عن الألمِ والقذارة ولم يتسنَ لجفن أن يحزن كما يجب، فالأصواتُ التي تسكرهُ اختفت، والضبعُ مات وسط ذهولهِ، خوفهِ، عجزِهِ، اختلال توازنهِ، وعقلهِ، المهمُ أنَّ الفاجعةَ التي اختلقها لنفسهِ انتهت.

- ربمّا هذا أفضل... (قال في نفسهِ)...

- لا لا... لا يا جفن ليسَ أفضل، كيفَ سأعيش الآن، كيف سأشم رائحةَ الموت، لأعرفَ أنني أعيش، كيفَ سأحزن لأعرف أنني سعيد، كيفَ سأقتلُ أعداءَ الوطن؟

- كفاكَ كذباً.. على من تكذب؟ لقد قبضتَ ثمنَ الوطن أمام عينيك... أجل عينيك هاتين.

- لم يكن هدفي هو الثمن الذي قبضتهُ، لماذا لا تفهمني؟

- ما هو هدفكَ إذن، أن تقتل عزّام مثلاً، مثال الشرف والكرامة، الذي لم يعرف أعداء الوطن لصيدهِ طريقاً غير سفالتكَ، حيَّرتهم جرأتهُ، قوتهُ، عزيمته، كرامته...

لقد حافظ على جنودهِ قبلَ أن يحافظَ على نفسهِ، وكنتَ منهم أتذكر؟

- أجل كنتُ ساعدهُ الأيمن...

- ساعدِهُ الذي قتلهُ.... هههه، لم يكن ذكياً كفاية ليحتاطَ مني، أو بالأصح لم يكن نجساً مثلي ليفهم مقاصدي...

مقاصدي... مقاصدي... أهدافي... رغباتي... حتى أنا لا أعرفها، لا أفهم نفسي، لا أعرف إن كنتُ مريضاً بحزنٍ دواءهُ الوحيد هو الحزن!

أجالَ جفن نظرهُ في المكان الذي رآه لأولِ مرةٍ وكأنهُ لم يره من قبل، وكأنَّ الحياة بدأت هنا بموتِ ذلك الوحش، وابتلاع السكون لصوتهِ، في داخل جفن... في الظلمة هناك حيثُ التاريخ المشوه، حيثُ البحثُ عن الروح التي أسدلت عليها ستائر النوم، لتغفو في مكانٍ قصيٍّ عصيٍّ العثور بعدَ بحثٍ طويل في النوم أو الصحوة في غيابٍ أو حضور، فاجأتهُ صورتهُ في المرآة وقد غدا رجلاً منتصراً مهزوماً مقتولاً وقاتلاً، بدأت دموعهُ تسيل رغماً عنهُ، ففي داخلهِ لا يزال هناك شيءٌ مفقود ربمّا بحثَ عنهُ في المكان الخطأ وربمّا وجدهُ، لكن في وقتٍ بعدَ الوقت المناسب أو قبلهُ، في حالةِ سهوٍ عن البحث والإيجاد، فوجده ولم يجده، غير أنَّ الفراغ لا يزال يتوسَّع في داخلهِ ليتعاظم شيئاً فشيئاً، ليصبح مع الوقت هوةً سحيقةً تبتلعهُ ولا يبقى منهُ سوى العينين اللتين ترقبان ما يحدث، وتذرفان دمعاً جراءَ الحدث.

جاءت قوةٌ صباحَ اليومِ التالي، واقتادت جفن الذي لم يبدِ مقاومةً تذكر إلى السجن وهناك حوكِمَ محاكمةً عسكرية، وقيلَ أن الحكم هو الإعدام، ولم يعترض جفن ولم يعترض أحدٌ على الحكم، غيرَ أنَّهُ بقيَّ في الأيام القليلةِ التي عاشها قبلَ تنفيذِ الحكم يعيشُ الشوقَ بكلِّ أشكالهِ، اشتاقَ القريةَ، الحجارة، الأشجار، اشتاقَ المنازل والجدران التي ليس له عليها ذكريات كبقيّةِ الناس، اشتاقَ أمَّهُ، إخوتهُ، اشتاقَ وجد وعزيز، حتى أبو عزيز، اشتاقَ الأحياءَ والأموات، لكنَّ أكثر ما شعرَ بالشوقِ والحنين لهُ

وكان مستمتعاً بذلك الشعور الذي شعر معهُ أن إنسانيتهُ تردُّ إليه، وأنَّ الهوّة السحيقة تقذفهُ خارجها ليتكامل مع نفسهِ روحاً وجسداً.

كان اشتياقهُ لنفسه أعظم اشتياقٍ شعَرَبهِ...

قبل أن.....

منطقة حدودية بين سورية والعراق (إحدى مقرات داعش)
٢٠١٦

منذُ ذلك الحريق كفت عن السلام بيدها، احترقَ جلدها وتجعدَ أثناء محاولةِ إنقاذها لعمها العجوز، حملتهُ على ظهرها والنارُ تشتعلُ بثيابهما... أثناء التركيز على فكرةِ النجاة بأحدهم... بنفسكَ... بالحياة... تفقدُ أدنى شعورٍ بألمٍ... بخوفٍ، لكنها الآن، وبعد فشلها في عملية الإنقاذ، إذ إنَّ ذلك العجوز لم يستطع جسده الهزيل... الفقير... المنتهِ الصلاحية أن يقاومَ، فغادرَ، وبقيت الحروق شاهداً على الحدث... حتى زوجها برهان كانت ترفض أن تمد يدها لتسلم عليه. في البداية كانت تحتضنهُ، وما لبثَ زواجهما أن آلَ إلى قطيعةٍ لم يعرفا من المسؤول عنها، ربمّا تكون هي المسؤولة، فمنذُ ذلك الحريق والتجعد الذي لحق بكفيها ومناطق أخرى من فخذيها، وساقها اليمنى، شعرت أن إنوثتها غادرت إلى غيررجعة، فقبلَ تلك المأساة كانت تشعر بالغبطةِ لمجرد النظر إلى جسدها العاري أمام المرآة، أمّا الآن فيبدو أن جسدها المشوّه ما عاد يثيرفيها إلَّا نوعاً من الأسى الذي تهرب منهُ إلى التفكير بولدها الذي لم تعرف طريقهُ حتى الآن...

وقد يكون هو المخطئ، إذ أصبحَ يضاجع السبايا، اللواتي كانوا يحصلون عليهنَ بعد غزوٍ ما، رغمَ أنَّهُ لم يشعر بمتعةٍ يأملها مع أي واحدة منهن، لكنَّ شعوره بالطمع، بأخذ حصتهُ من الغنائم ينكشهُ، يستحكهُ جلدهُ تجاه السطو على ما ليسَ لهُ، وأصبحَ بقدرةِ قادرٍ، بقدرةٍ شيطانيةٍ، بحكمةٍ إلهيةٍ، بحماقةٍ عبثيةٍ له ولأمثالهِ... لم يفهم يوماً شعورهُ تجاه الاغتصاب، وهذه الجلبة التي يحدثها في داخله ذاك الشعور، على قدرٍ كبيرٍ من البساطةِ والتعقيد في آن، رغبةٌ جامحةٌ تخرج من ظلمةِ رغباتهِ المكبوتةِ من أيامِ المدرسةِ حيثُ كان يتلصصُ على البنات في المراحيض، وبعدَ ذلك في الجامعة، إذ ينظر إلى المؤخرات تحت بناطيل الجينز الضيقةِ، وعندما يحلُّ الليل، يبارك رغباتهِ داخل أفكارهِ، فدماغهُ يسبحُ في بحيرةٍ

من العسل، إذ يخيل لهُ أنهُ يجذب الصبايا الفاتنات إلى غرفتهِ الخاليةِ من أثاثٍ ما عدا فراشٍ ضيقٍ ملقى على الأرض ويبدأ باغتصابهن واحدةً تلو الأخرى، لكنَ غبطتهُ العارمة، متعتهُ الفائضة تنطفئ قبل أن تطفئه، دون أن يبرد رماده، فيبقى معلقاً... أجل معلقاً بين الرغبةِ والفقدان، ربمّا لم يكن الاغتصاب واحدةً من رغباتهِ الحقيقية، كانَ مجرد رغبةٍ فارغةٍ أو ظلٍ لرغبة.

- هل وجدتهُ؟

- لا... لكنني سأجدهُ.

- إن شاء الله.

- معي ضيف... إخلِ المكان.

خرجت المرأة وخرجت معها نظرات برهان إذ ينظرُ إلى مؤخرةِ زوجتهِ البائدة، ويتساءل :

- كيف انتهت قصتنا هنا؟

- أنتَ انهيتها.

- ربما... كل شيء جائز... كل حالٍ جائز ما عدت أستطيع النظر إليها على أنها امرأة بشاربها الصغير الذي أطلقتهُ بعد غياب ابننا وبالشعرِ على ساقيها، بثيابها القاتمة دائماً، بحزني وحزنها، ضياعنا في المسافةِ بيننا، احتضارنا على مهل في البعد والقرب، لكن كلٌّ يتقوقعُ في وحدةٍ زمانيةٍ ومكانيةٍ شاسعةِ البعدِ عن وحدةِ الآخر... انتهى الحدث فيما بيننا وانتهى....

- تعالَ رامي.... ادخل تفضل.

كان رامي يفكرُ في الدهشةِ التي بعثتها فيهِ مشاهدةَ المنزل الفارهِ والمفروشات الفخمة، تنمُّ عن ذوقٍ رفيعٍ، يتناقض مع ملابس برهان البدائية وملابسهِ هو الآخر التي فرضها عليهِ منصبهُ الجديد كمساعدٍ للشيخ، والشعر الطويل المهمل مع لحيةٍ طويلةٍ وعمامةٍ لا يعرف متى يقذفها في الهواء أو يحرقها في النار أو يذهب بها إلى أيّ لعنةٍ، لكنها إحدى

الوسائل الدفاعية الإجبارية. ما سأحدثكَ بهِ الآن لا يجب أن يعرف بهِ أحد إلّا قبل التنفيذ بيومٍ واحدٍ.

- لماذا يا برهان... ألا يجب أن نخطط بشكلٍ جماعي؟

- لستُ واثقاً من ولاء الجميع... هكذا على الأقل... في حالةِ فكرَ أحدهم بالخيانة، لن يكونَ لديه وقت سوى للهرب، ونكونُ بذلك فعلنا ما نريد.

- معك حق.

منذُ اليوم الذي عرف فيه برهان هويّةَ رامي عملا معاً على شيءٍ اعتبراهُ خدمةً للوطن وكانت كذلك، ولكن على طريقتهما، وحسبَ المدى المسموح به للحركة.

الخطوة الأولى هي : ادعاؤهما أنَّ رامي أصبحَ خائناً للجيشِ السوريّ وحليفاً « للدولةِ الاسلامية « وذلكَ بأن قدَّمَ لهم بعض المعلومات البسيطة التي تأكد من عدم جدواها، وبذلك سارا معاً، إلى اليوم الذي قاما به بعمليتهما الأخيرة، التي رغم أنها أغمدتهما في عمقِ الأرض، تحت التراب على شكل أشلاء متفرقة، فلربما رفعتهما إلى السماء السابعةِ وكانَ ذلك بعدَ عدةِ سنواتٍ من بحث برهان عن ابنهِ الذي لم يستطع رؤيتهُ أو ربما التقاهُ بعد ذلك اليوم. من يدري....

أمّا رامي كان سعيداً لأنهُ عاشَ سورياً وماتَ كذلك، لم يسجل لهُ اسمٌ في قائمةِ الشهداء لكن الله كان يعرفُ أنهُ كذلك، وأنا أيضاً كنتُ أعرف، فقد أخبرني برهان في لقائنا الأخير، وقال ممازحاً :

- كنتُ أعرف قيمة أم يحيى أكثر منك.

- حقاً....؟

- حقاً يكفي أنها أنجبت لي صديقاً للموت والحياة معاً

- ما الذي غيركَ يا برهان؟!

تنهد وأرسل نظرهُ خارج النافذة بزجاجها المغبش، لكن بدا لي أنّهُ يرى من خلالها موسماً قديماً للحياة...

قليلٌ من الذاكرة فقط... عليكَ أن تعرف أنّك مهما صرت خائناً، تبقى ذاكرتك وفيّة تحتفظ بالأحداثِ والأشخاصِ كما هم، دون تزييف أو مواربةٍ ومبررات.

استمعَ رامي للحديث بزهوٍّ طفولي ارتسم على ملامحهِ، نظرتُ إليه بلهفةِ العاشقِ لرائحةِ الحبيبة، لم أستطع منع نفسي من احتضانه.

- انتبه لعائلتي ما دمتَ حيّاً.

- سأفعل يا برهان، ربما نفعلُ ذلك معاً... أليس كذلك؟

- وداعاً.

كانت المرّة الأولى التي أشعر فيها بهولِ مشاعري تجاه برهان وبالتصاقي المرير به، إنها الذاكرةُ اللعينة التي تجعل من حياتنا مجالاً واسعاً للقصص والروايات التي لا يمكن لكَ أن تخرج من إحداها نظيفاً سليماً من وجعٍ في مكانٍ ما في الذاكرة من شربكة مشكلة اختلاط مشاعر... حزن... فرح... حب... كره... لا لا المشاعر أكثر تعقيداً من تسمياتها، المشاعر أكثر تركيباً من الاصطلاحات من الأحرف والكلمات، لذلك سأتركها على بعثرتها، اختلاطها، تنافرها، كما نصحني الدكتور علي يومَ ذهبتُ إليه حائراً في أناي ووجودها، أوعدم وجودها،

- قد تكون أنت المشكلة...

- ماذا أفعل في حالةِ مشكلةِ أناي؟! أألغي وجودي مثلاً؟

- لا... ففي عدم وجودك مشكلة اللاوجود... إبقَ على المشكلةِ الأولى فهي لا تحتاج إلى حل..

- كيف ذلك؟

- كالأسئلةِ التي لا تحتاج لأجوبة.

- لم أفهم...

- مثلُ كم التي لا تحتاج إجابة...

- دكتووور... بصراحة بدأت أحقد على الدكتور عبد الله.

- هههههه... لأنهُ أرسلك إلي؟

- ربمّا!

- اذهب واجلس لوحدكَ! اذهب إلى وجودك الأول البسيط، فكر باعتقادكَ الحقيقي واللاحقيقي.... افتح عالمك الداخلي المتعرّج...

حاول أن تلامس تعرجاتهِ كلّها لا تحاول فهمَ ما تحس بهِ اشعر فقط، حتى لو شعرت أنكَ لا تشعر، فهذا شكلٌ آخر للشعور.... أنتَ أخو عزيز أليس كذلك؟

- أجل...! كيف عرفت؟

- مجرد شعور!.

القرية ٢٩ نيسان ٢٠١٨

خرجت الجماعات المسلّحة من القرية والقرى المجاورة لها، انفجرت بعضُ الألغام، وماتَ بعضُ الضحايا، لكنَّ المطر يهطل بغزارةٍ في هذا الربيع، المطرُ لا يتوقف عن الهطول مهما كان عددُ الضحايا كثيراً، ومهما كان الفرحُ عارماً المطرُ يهطلُ كالزمن.

تطأ قدماي هذه الأرض بعد كلِّ هذا الغياب، أشعر أنني أطؤها بقلبي، قلبي المريض نفسهُ الذي شارفَ على نهايته هنا حيثُ كانت بدايته...

قسمٌ كبيرٌ من السكان حملوا أمتعتهم وعادوا إلى منازلهم، وآخرون تخلّوا عن الأرض لكنَّ المطر يهطل.... يهطل بغزارة....

الطريق إلى بيت حياة ليس بعيداً سأذهبُ إليها... أتوجهُ إلى هناك، لكنني أشعرُ بإعياءٍ شديد وأحارُ ما سببُ هذا البللِ على ثيابي؟! إنهُ مالحٌ كالعرق، لكن المطر ما زالُ يهطل بغزارة.

وحياة واقفةٌ في منتصف الطريق بجديلتيها الصهباوتين، وثوبها الطفولي بابتسامتها الساخرة ربمّا مني أو من المطر الذي ما زال يهطل....

عزيز يركض... يركض إليَّ يصطدم بي يعانقني كالمطر الذي لا يزال يهطل، جفن ينظرُ إلى حياة وكأنهُ بدأ يراها أخيراً ربمّا لأن المطر يهطلُ...

برهان يمسك بيد ابنهِ ويهرعُ للقائي مشاكساً كعادته ورامي يسير خلفهُ حاملاً بندقيةً روسية، ينظر إليه جفن ويبتسم ولا زال المطر يهطل...

أم يحيى تغمزُ لي... تتواطأ معي... فهناك سرٌّ لا يعرفه سوانا، وهذا المطر الذي يهطل... أمي تبكي كعادتها، أبي يقرأ... يناقش أبا يحيى، ويحيى يتأبطُ كتاباً أحمر، ربما عن العشق، أو عن هذا المطر الذي لا يزال يهطلُ... سنا ستجلسُ بيننا رغمَ هذا المطر... وأنا سأتحدث سأتحدث مع الجميع، سنتحدث كلّنا عن هذه القرية عنّا، عن الحب والغيرة، عن الوطن، عن الموت، عن الحياة، عن مطرٍ، لا يزال يهطل لأجلنا...

ولن يحدث كما يحدثُ عادةً... كما يحدث دائماً... ما من دائماً

في الوجود، ما من عادةً... الأحداث لا تتكرر لن يكون الأمر مجرَّد خروجٍ للهواء لا دخول بعده... أو محضُ انفراجٍ للروح لتخرج رحيقها فيتطاير دافئاً من حولنا، وينظر إلى الجسدِ الفارغ... إلى الباكين من حولنا...

فما زال المطرُ يهطلُ... ما من حدثٍ اليوم سوى هذا المطر....

..... فلنتحدَّث عن مطرٍ لنا...

تمت في ٢٠١٨/٦/٢٢

ماســـتر©